الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مدونة ابو عبدو

جو بايدن
JOE BIDEN

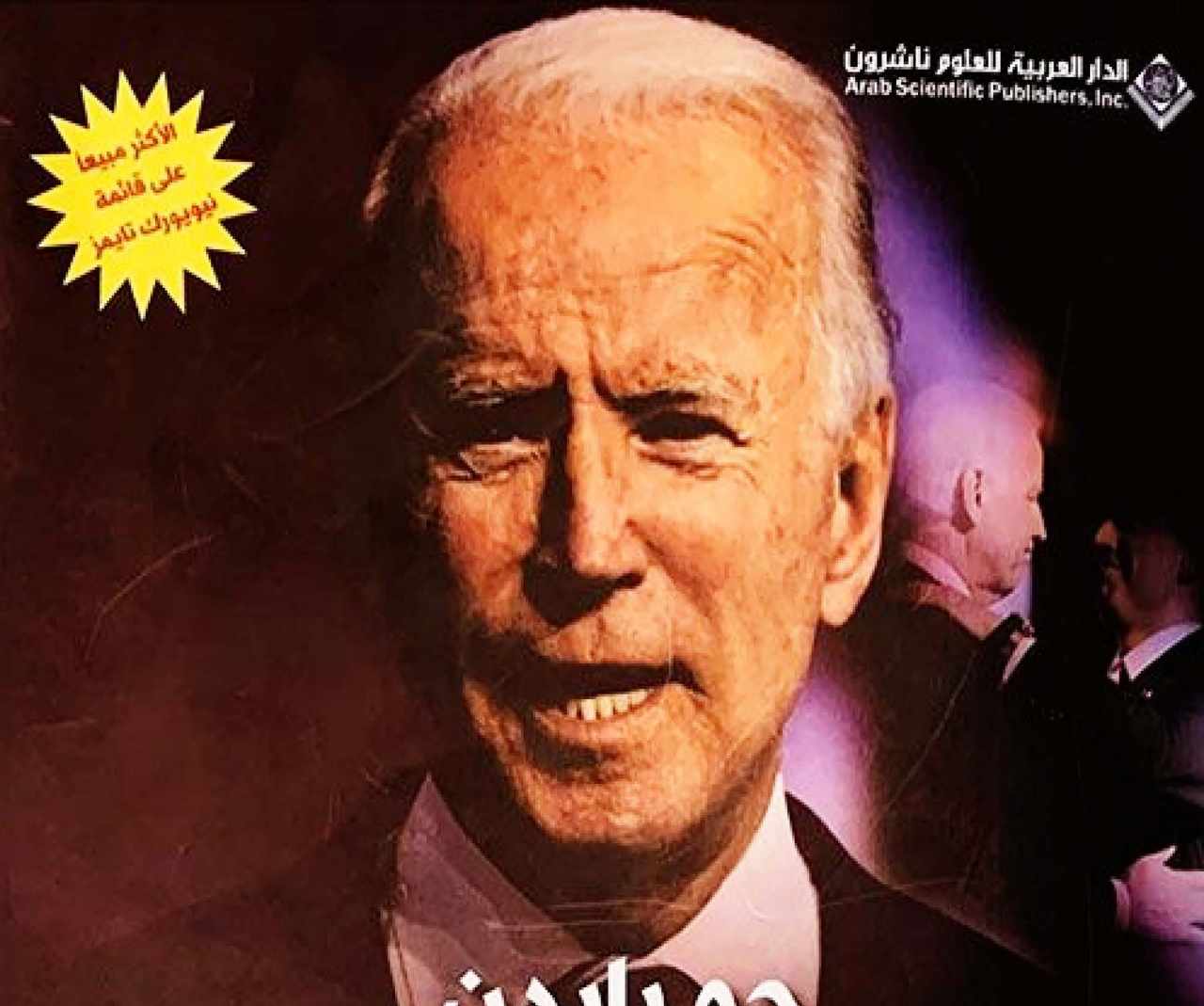

عِدني يا أبي

PROMISE ME DAD

عامٌ من الأملِ والمعاناة والهدف

ترجمة: د. عائشة يكن

عِدني يا أبي

PROMISE ME DAD

عامٌ من الأملِ والمعاناة والهدف

جو بايدن
JOE BIDEN

عِدني يا أبي
PROMISE ME DAD
عامٌ من الأملِ والمعاناة والهدف

ترجمة: د. عائشة يكن

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
JOE BIDEN
PROMISE ME, DAD
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من
Flatiron Books, New York
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2017 by Joe Biden
All rights reserved
Arabic Copyright © 2020 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2021 م - 1442 هـ

ردمك 0-3216-01-

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الفصل الأوّل: عيد الشّكر لدى عائلة بايدن 11

الفصل الثّاني: ليكن لديك هدف 33

الفصل الثّالث: العزاء 43

الفصل الرّابع : الثّقة 63

الفصل الخامس: أن أبقى منشغلا 85

الفصل السّادس: لا بدّ أن تكون أنت 115

الفصل السّابع: المخاطر المحسوبة 137

الفصل الثّامن: القاعدة الأمّ 161

الفصل التاسع: أخبروهم بالحقيقة 181

الفصل العاشر: هل يمكنك البقاء؟ 197

الفصل الحادي عشر: ترشّح يا جو، ترشّح 219

الخاتمة 245

إلى ناتالي وهانتر

قواعد السّعادة: أن يكون لديك عملٌ تقوم به،

شخصٌ تحبّه، شيءٌ تطمح إليه.

ايمانويل كانت

الفصل الأوّل

عيد الشّكر لدى عائلة بايدن

كان النّهار يقصر، لذا بدأ الضّوء في السّماء يتلاشى عندما انفتحت بوّابة منزلنا المؤقّت وتجاوز موكبنا السّياج الّذي يحيط بـ «المرصد البحريّ» للولايات المتّحدة في العاصمة واشنطن. كنّا في طريقنا من مقرّ إقامتنا الرّسميّ في المرصد إلى قاعدة أندروز الجويّة، حيث كان أولادي وأحفادي مجتمعين. كنّا أنا وجيل متلهّفين لنكون معهم في رحلة عيد الشّكر السنويّة. فالعائلة أصبحت تمثّل هروبًا أساسيًا في السّنوات الخمس والنّصف الّتي كنت فيها نائبًا للرّئيس. والمكوث معهم أشبه بالطّيران في عين العاصفة – يذكّرنا بسهولة حياتنا السّابقة وإيقاعاتها الطّبيعيّة، والهدوء الّذي سيأتي عندما تنتهي مدّة تعييني في هذا المنصب. هذه الوظيفة كانت مغامرة لا تصدّق، ولكنّها جعلتنا نفتقد أنا وجيل الكثير من الأشياء من حياتنا قبل نيابة الرّئاسة. نفتقد منزلنا في ويلمنجتون، نفتقد فرصة أن نكون وحيدين نقود سيّارتنا لمسافة طويلة حيث يمكننا التّحدّث براحتنا. نفتقد القدرة على التّحكّم بجدول أعمالنا وبتحرّكاتنا الخاصّة. أصبحت الإجازات والعطلات والاحتفالات مع العائلة تمثّل فترات الرّاحة الّتي تعيد بعض الشّعور بالتّوازن. ومن الواضح أنّ بقيّة العائلة كانت بحاجة إلى هذه الاستراحة بقدر ما كنّا أنا وجيل نحتاجها.

قبل بضعة أشهر فقط كنّا جميعًا معًا في رحلتنا الصّيفيّة السّنويّة إلى

إحدى المتنزّهات الوطنيّة. ولكن يبدو أنّ خمسة أيّام من المشي لمسافات طويلة والتّجديف في قوارب الشّلالات النّهريّة، ووجبات العشاء الطّويلة والصّاخبة في تيتون ليست كافية للبالغين. كنّا أنا وجيل في كوخنا نحزم أمتعتنا للمغادرة في اليوم الأخير عندما سمعنا طرقًا على الباب، كان ابننا هانتر. فهو يعلم أنّني وجيل سنذهب وحدنا إلى الشّاطئ لعزلة تمتدّ أربعة أيام، لكنّه تساءل ما إذا كان بإمكانه هو وزوجته اللّحاق بنا، نظرًا لأنّ لديهما بعض الوقت الحرّ. قلنا، بالطّبع! في غضون بضع دقائق، طرق ابننا الآخر، بو، فقد وافق حموه على مراقبة الأطفال. ربما لن نمانع أن ينضمّ هو وزوجته إلينا على شاطئ لونغ آيلند. قلنا، بالطّبع!

أعتقد أنّ بعض الأهل قد يشعرون بالضّيق عندما يُطلب منهم التّخلّي عن وقتهم الخاصّ، ولكنّني اعتبرت هذه الطّلبات ثمارًا لحياة عشناها بشكلٍ صحيح: لقد أراد أولادنا الكبار بالفعل أن يكونوا معنا. لذلك قضينا أربعة أيّام رائعة أخرى على الشّاطئ معًا في آب (أغسطس)، ولكن بحلول تشرين الثّاني (نوفمبر) كان هناك أيضًا إلحاح ملموس لحاجة الوجود الجماعيّ الّذي كان مقلقًا بعض الشّيء، وكنت مدركًا جدًا لذلك عندما شرعت أنا وجيل نعدّ لهروبنا السّنويّ إلى نانتوكيت، في عيد شكرٍ آخر لعائلة بايدن.

مررنا عبر بوّابات المرصد، وشعرت بسيّارة اللّيموزين المصفّحة، الّتي تطلبها حكومتنا، وهي تلفّ بسلاستها المعتادة إلى شارع ماساتشوستس، حيث جرى إيقاف حركة المرور المحلّيّة لتمهيد الطّريق لرحلتنا. ألقيت نظرة خاطفة إلى السّاعة الرّقميّة الثّابتة، الّتي تحتلّ الجزء العلويّ من طريقنا الدّاخليّ الخاصّ، ربّما نظرت إليها ألف مرّة منذ أن انتقلنا إلى المقرّ الرّسميّ. توهّجت أرقامها الحمراء، الّتي يتزامن توقيتها مع بندول الإيقاع بمنتهى الدّقّة: 5:11:42، 5:11:43، 5:11:44، 5:11:45. كان هذا هو الوقت الدّقيق للدّولة، الّذي يبثّ بواسطة ساعة «المرصد البحريّ» الأمريكيّ الرّئيسة

على بعد أقل من مائة ياردة [حوالي 91 متر]. وقد اعتبرت وزارة الدّفاع، الّتي كانت لديها قوّات وقواعد في مواقع حول العالم، أنّ الوقت المحدّد – المتزامن مع الميلّلي ثانية – هو واجب تشغيليّ ضروريّ من قبلها. 5:11:50، 5:11:51، 5:11:52.

كانت سيّارتنا اللّيموزين تتسارع بالفعل للخروج من المنعطف بقوّة مفاجئة، دفعتني إلى الوراء على المقاعد الجلديّة النّاعمة. أصبحت السّاعة وراءنا في ومضة، بعيدًا عن الأنظار، لكنّ أرقامها لا تزال تشير إلى الوقت وهي تتلاشى – 5:11:58، 5:11:59، 5:12:00. انطلق الموكب باتّجاه الجنوب الشّرقيّ، عبر أحد جانبيّ المستديرة حول المرصد، وتمكنّا من رؤية أضواء المقرّ الرّسميّ وهي تومض من خلال الأشجار الخالية من الأوراق. كنت سعيدًا بتوديع المنزل لبضعة أيّام، فمغادرتنا تعني أنّ العديد من المساعدين المجنّدين في البحريّة الّذين يعتنون بنا سيكونون أحرارًا في قضاء العطلة بأكملها مع عائلاتهم.

تسارع الموكب بمجرّد أن وصلنا إلى الطّريق السّريعة، وقامت الدّرّاجات النّاريّة المرافقة بدفع السّائقين الآخرين جانبًا. سلك الموكب التّخوم الجنوبيّة لواشنطن، على مرمى البصر من المعالم الأثريّة والمباني العامّة: مقبرة أرلينغتون الوطنيّة، نصب لنكولن التّذكاريّ، نصب واشنطن– والبيت الأبيض على مسافة خلفه– نصب جيفرسون التّذكاريّ، مبنى الكابيتول بالولايات المتّحدّة. لقد خدمت في مناصب انتخابيّة في هذه المدينة بشكلٍ مستمرّ منذ العام 1973، ستّة وثلاثين عامًا بصفتي عضوًا في مجلس الشّيوخ، وستّة أعوام بصفتي نائبًا للرّئيس، لكنّني لم أفقد انبهاري بجمال وأهمّيّة هذه المعالم الشّاهقة، الّتي كانت الآن تتوهّج في وهج ضوءٍ خافت. ما زلت أرى أنّ تلك الهياكل الرّخاميّة القويّة دلالة على مثلنا وآمالنا وأحلامنا.

لقد منحتني حياتي المهنيّة في واشنطن شعورًا بالفخر والإنجاز منذ

وصولي إليها، ولم يتلاشَ هذا الشّعور بعد ما يقرب من اثنين وأربعين عامًا. الحقيقة أنّه في 25 تشرين الثّاني (نوفمبر) 2014، كنت متحمّسًا ومحفّزًا لعملي كما كنت في أيّ وقت في حياتي المهنيّة، بالرّغم من اعترافي بأنّ منصبي الحاليّ كان وظيفة غريبة حقًّا. هناك مرونة غير عاديّة وفريدة في مسؤوليّات نائب الرّئيس. من النّاحية الدّستورية البحتة، يتمتّع شاغل المنصب بسلطة قليلة جدًا، هو أو هي مكلّف بكسر التّعادل في التّصويت في مجلس الشّيوخ – وهذا ما لم يتمّ استدعائي للقيام به منذ ما يقرب من ستّ سنوات – والانتظار لتولّي المهمّة إذا كان الرّئيس عاجزًا بطريقةٍ ما. نُقل عن نائب رئيس سابق قوله إنّ المنصب «لا يساوي دلوًا من البصاق الدّافئ». (هذه هي النّسخة المنقّحة. فهو لم يقل «البصاق»). القوّة الفعليّة للمنصب هي انعكاسيّة؛ أي تعتمد بشكلٍ شبه كامل على ثقة الرّئيس واطمئنانه.

لقد سلّمني باراك أوباما ملفّات كبيرة لإدارتها منذ بداية ولايتنا الأولى، وبمجرّد أن كلّفني الإشراف على «قانون الانتعاش لعام 2009»، أو مفاوضات الميزانيّة مع السّناتور ميتش ماكونيل، أو العلاقات الدّبلوماسيّة مع العراق، لم يراقبني. أعتقد أنّني قمت بعملي جيّدًا بما يكفي لكسب ثقته والحفاظ عليها. لقد طلب نصيحتي أكثر من أيّ وقتٍ مضى في نهاية العام 2014، وبدا أنّه يقدّرها، ممّا يعني أنّني شعرت في بعض الأيام أنّ لديّ القدرة على المساعدة في تغيير مسار التّاريخ بشكلٍ طفيف نحو الأفضل.

في مكانٍ ما في الموكب في ذلك المساء، بينما كنّا نسرع في شوارع واشنطن، كانت هناك سيارة تقلّ نائب الرّئيس المساعد العسكريّ، الّذي كان بحوزته «كرة القدم النّووية»[1]، الّتي يفترض أن تكون في متناول يدي

---

(1) كرة القدم النّووية (وتعرف أيضًا باسم حقيبة الطّوارئ، الزّر، الصّندوق الأسود) هي حقيبة تحتوي على ملفّات سرّيّة (شفرات) تسمح لرئيس الولايات المتّحدة بإعطاء أمر تنفيذ هجوم نووي عندما يكون بعيدًا عن مراكز القيادة الثّابتة، على سبيل المثال: «غرفة العمليّات في البيت الأبيض». (المترجم)

في جميع الأوقات. كنت واحدًا من قلّة من الأشخاص الّذين يتحكّمون في الرّموز الّتي يمكنها شنّ ضربة نوويّة على أيّ هدف تقريبًا على هذا الكوكب، لذلك كان هناك تذكير بالمسؤوليّات الجسيمة للمنصب والثّقة الموكلة إليّ، في جميع الأوقات، أربعة وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيّام في الأسبوع.

ولكن، على الرّغم من كلّ ذلك، وعلى الرّغم من مركزي وموقفي، إلّا أنّني كنت عاجزًا عن القيام بأكثر شيء أردت القيام به، وأنا أتّجه إلى أسبوع العطلة هذا: ألا وهو إبطاء هذه السّاعة الرّئيسة في أعلى طريقي الدّاخليّة، وجعل تكّات تلك الأرقام الحمراء تتأخّر، كي أعطي نفسي، وأسرتي، والأهمّ من ذلك، ابني الأكبر سنًا، مزيدًا من الفسحة كي يتنفّس. أردت لو أنّ في سلطتي أن أخدع الزّمن.

بدأ تقليد بايدن لعيد الشّكر في نانتوكيت كتصرّف دبلوماسي، في العام 1975. كنت عضوًا في مجلس الشّيوخ في الولاية الأولى، وأبًا أعزبًا لصبيّين – كان بو في السّادسة من عمره وهانتر في الخامسة – وقد بدأنا أنا وجيل جاكوبس نتحدّث بجديّة عن مستقبلنا معًا. عيد الشّكر كان أوّل عطلة لي و لجيل سويّة، وكنّا قد تلقّينا الكثير من الدّعوات. أرادنا والداي أن نقضي اليوم معهما في ويلمنجتون. والدا جيل أرادانا في ويلو غروف، بنسلفانيا. والدا زوجتي الأولى، الّتي توفيّت مع ابنتي الصّغيرة في حادث سيّارة قبل بضع سنوات، أرادا منّا أن نجلب أحفادهما إلى شمال ولاية نيويورك لقضاء عطلة نهاية الأسبوع الطّويلة معهم. بغضّ النّظر عن العائلة التي كنّا سنختارها، كنّا سنؤذي مشاعر أحدهم، وهذا آخر شيء كنّا أنا أو جيل نريد فعله. كنت في مكتبي في مجلس الشّيوخ في أحد الأيّام من ذلك الخريف، أشرح هذا المأزق لرئيس الموظّفين، الّذي قال: «ما تحتاجه هو

عيد شكر نوويّ». بمعنى الأسرة النّوويّة وحدها. ولكنّ ويس بارثيلمز كان شابًا من بوسطن، لذا فإنّ ما قاله في الواقع كان «عيد شكر نووى». لم أكن متأكّدًا ممّا كان يحاول قوله بالضّبط، إلى أن أوضح أنّه قد يكون من الأسهل على الجميع إذا ذهبنا وحدنا، أنا وجيل وبو وهانت. واقترح جزيرة نانتوكيت، الّتي كانت تبعد ساعة بالعبّارة جنوب كيب كود. لم يسبق لي أو لجيل زيارتها، ولكنّنا قررنا أن نمضي قدمًا ونعدّها مغامرة.

ملأنا سيارتي الجيب المقطورة بالوقود بسبعة وخمسين سنتًا الغالون، جمعنا الأولاد والكلب في المقعد الخلفيّ لرحلة قد تستغرق ستّ ساعات إلى العبّارة في هيانيس، ماساتشوستس. بالطبع ستّ ساعات تعدّ فترة طويلة ليُحاصر فيها صبيّان صغيران في المقعد الخلفيّ لسيّارة متحرّكة، لكنّ جيل أثبتت بالفعل أنّها راعية أطفال بارعة. فقد جمعت مسبقًا كلّ كتالوج ألعاب وكتالوج ملابس يمكن أن تجده، وعندما بدأ بو وهانت يتململان، ألقت الكتالوجات في المقعد الخلفي. وقضى ثلاثتهم ساعات وهم يتصفّحون الأوراق، وبدأ الولدان في إعداد قوائم رغباتهما الخاصّة بهدايا عيد الميلاد وتنقيحها، حتّى يكون لديهما شيء لإرساله إلى سانتا كلوز، في القطب الشّمالي. طلبت منهما جيل أن يأخذا وقتهما ويتأكّدا من القيام بالأمر بشكلٍ صحيح؛ حيث لا داع للعجلة.

تبيّن أنّ نانتوكيت تستحقّ العناء بمجرّد وصولنا أخيرًا إلى هناك بعد ثماني ساعات من مغادرتنا لمنزلنا في ويلمنجتون. كان الطّقس باردًا على الجزيرة الصّغيرة في نهاية تشرين الثّاني (نوفمبر)، ولكن بإمكانك أن تشمّ رائحة الهواء المالح المنعش القادم من المحيط الأطلسيّ. كانت الجزيرة قد فرغت لهذا الموسم، لذلك كان أغلب المكان لنا، كما أغلقت معظم المطاعم والعديد من المحلّات التّجاريّة. كان وسط المدينة صغيرًا، ربّما خمسة أحياء مربّعة، لكنّنا قضينا ساعات هناك نتفحّص واجهات المتاجر

وندخل المحالّ الّتي كانت مفتوحة للنّظر حولنا. قلت للولدين: إنّني سأشتري لكلٍّ منهما هديّة واحدة في تلك الرحلة – أي ما يريدان، في حدود المعقول. فأخذا وقتهما لينظرا حولهما. بو كان يحبّ متجر «موررايز توغري شوب»، موطن سراويل نانتوكيت الحمراء الشّهيرة؛ تلك السّراويل القطنيّة المصمّمة ليبهت لونها إلى الزّهري المغبرّ النّاعم. هانت استهواه متجر الملابس نوبي حيث أثار المالك ضجّة حوله. تناولنا عشاء عيد الشّكر في جاريد كوفن هاوس، وهو فندق عمره مائة وثلاثون عامًا، بني عندما كانت نانتوكيت مركزًا تجاريًا لقطاع صيد الحيتان، وبعدها مكثنا في المكان بجانب الموقد ولعبنا الدّاما. في اليوم التّالي تناولنا الغداء في مطعم يسمّى «الأخوة اللّصوص»، وذهبنا إلى دار السّينما الصّغيرة في المدينة، ولعبنا كرة القدم على الشّاطئ، وعدنا إلى المدينة لمشاهدة الإضاءة السّنويّة لشجرة عيد الميلاد. كما قمنا برحلات استطلاعيّة في جميع أنحاء الجزيرة، وكلّما مررنا ببرجٍ للبثّ الإذاعيّ مع ضوءٍ أحمر كبير في الأعلى كنت أنبّه الولدين إلى ضرورة الانزلاق في المقعد الخلفيّ كي لا يتمكّن الوحش أحمر العينين من رؤيتهما. قضينا وقتًا ممتعًا حتى أنّنا ذهبنا لمعاينة منزلٍ صغيرٍ من طراز «سولتبوكس» الإنكليزيّ الّذي كان يقف فوق الكثبان الرّمليّة في سكونست بيتش. كان السّعر المطلوب مرتفعًا جدًّا بالنّسبة لراتب عضو في مجلس الشّيوخ في العام 1975، ولكنّنا التقطنا صورة لنا نحن الأربعة على شرفة المنزل، تحت لافتة خشبيّة منحوتة مكتوب عليها «بريّ إلى الأبد». في طريق العودة إلى ديلاوير، كنت أفكّر بالفعل في رحلة العودة في العام التّالي.

تزوّجنا أنا وجيل بعد عام ونصف، وولدت ابنتنا آشلي بعد ذلك بأربع سنوات. وبدا أنّ الوقت يتحرّك بشكلٍ أسرع. تخرّج بو وهانت من الثّانويّة، ثمّ الكليّة، ثمّ كلّيّة الحقوق. تزوّج هانت من كاثلين عام 1993، وأنجبا ثلاث بنات. تزوّج بو من هالي عام 2002، وأنجبا ابنة ثمّ ولد. لم نعد أنا

وجيل مجرّد ماما وبابا؛ أصبحنا «تيتا» و «جدّو». أنهت آشلي دراستها العليا وتزوّجت هوارد. وفي كلّ عام، حتّى مع نموّ الأسرة، بتنا نقضي عيد الشّكر في نانتوكيت – أو «ناناتوكيت» ، كما اعتاد أحفادنا على تسميتها، حتّى عندما أصبحوا كبارًا بما يكفي لمعرفة التّسمية الأصحّ. نمت الرّحلة الصغيرة من مقطورة إلى قافلة من سيّارتين أو ثلاث سيارات، حيث كان الأحفاد يغيّرون ولاءاتهم بتبديل أماكنهم بين العربات في محطّات الاستراحة. ثمّ تكون هناك اندفاعة جنونيّة أخيرة للّحاق بالعبّارة، والحصول على الشّوكولاتة السّاخنة، أو حساء البطلينوس لأجل الرّحلة البحريّة. لقد أمضينا بضع سنوات رائعة في تلك الفترة، وعانينا من بضع سنوات رديئة، ولكن مهما حدث، ومهما كانت الصّدمات والكدمات الّتي كنّا نعانيها، كنّا نضعها جانبًا ونحتفل بعيد الشّكر في نانتوكيت. كانت رحلة العيد ثابتة في حياة أحفادنا منذ أن أصبحوا واعين، وقد أوضحوا مدى أهمّيّة ذلك بالنّسبة إليهم. كانت الرّسائل الصّغيرة تبدأ في الظّهور في منزلنا في وقت مبكر من شهر أيلول (سبتمبر)، حتّى قبل أن يتغيّر لون أوراق الشّجر، وكلّها مكتوبة بخطّ الأحفاد: شهرين إلى ناناتوكيت. خمسة أسابيع إلى ناناتوكيت. كان يضيف بعضهم رسومات للمنازل الّتي بقينا فيها، أو للشّاطئ. أسبوعين إلى ناناتوكيت. خمسة أيام فقط إلى ناناتوكيت.

تطوّرت جلسات المرح والعادات في زياراتنا الأولى إلى تقاليد عائليّة ثابتة: التّسوّق في وسط المدينة، والغداء لدى «الأخوة اللّصوص»، والرّحلات إلى الشّاطئ مع كرة القدم. وكنّا نعود إلى منزل «السولتبوكس» الصّغير كلّ عام لالتقاط صورة للعائلة تحت اللّافتة المنحوتة «بريّ إلى الأبد». أصبحت هذه الصّور علامة على نموّ عائلتنا، مثل الخطوط الّتي يرسمها الأهل على إطار الباب كسجلٍ لنموّ أطفالهم – أوّلًا كنّا نحن الأربعة فقط، ثمّ أصبحنا خمسة، فثمانية، ثمّ أحد عشر، وبعد أن ولد هانتر، ابن بو، في العام 2006

، وانضم هوارد، زوج آشلي، إلى العائلة بعد بضع سنوات، أصبحنا ثلاثة عشر شخصًا.

لقد ظلّت قائمة عيد الميلاد هي المنتج العظيم لرحلة عيد الشكر، سنة بعد سنة؛ وكانت هذه القائمة مضنية ومتعمّدة وجادّة. لا يتنصّل منها أحد، ولا يتعجّل أحد في المشروع. عادة ما تظهر الكتالوجات في منتصف الطّريق نحو الشّمال، في مكان ما بين جسر تابانزي وميستيك، كونيتيكت. ولكن تكون هذه مجرّد البداية، حيث تعقبها جلسات طويلة بعد العشاء، في أيّ فندق أو منزل كنّا فيه. وقد تكون أيضًا في اللّيلة الّتي تلي عيد الشّكر عندما تغلق جيل أخيرًا المزاد، والجميع – أطفالًا وكبارًا على حدّ سواء – عليهم تقديم قائمة عيد الميلاد لها، الحدّ الأقصى عشرة بنود، والحدّ الأدنى عشرة بنود. كنت دائمًا في ورطة مع أحفادي في ختام المشروع. جدّو لديه اثنان فقط! مجدّدًا!

ثمّ أصبح هناك عقبة صغيرة واحدة في السّعيّ الكبير إلى قائمة عيد الميلاد، وذلك عندما أصبحت نائبًا للرّئيس عام 2009. فقد طارت العائلة بأكملها إلى نانتوكيت في ذلك العام على متن طائرة الرّئاسة الثّانية، وقد فاجأني ذلك كتغيير مرحّب به للغاية بعد كلّ تلك السّاعات من القيادة على الطّريق السّريع رقم 95 خلال أسبوع من أكثر أسابيع السّفر ازدحامًا في العام، وهو أمر اعتقدت أنّه سيبهج الأحفاد بشكلٍ خاصّ. ولكنّ الرّحلة لا تستغرق أكثر من ساعة في الجوّ من قاعدة أندروز الجوّيّة إلى مطار نانتوكيت التّذكاري – حيث تبيّن أنّها فترة زمنيّة غير كافية نهائيًّا لتصفّح الكتالوجات. لذلك، أثناء رحلة العودة، بعد أن انتهت العطلة وأصبحت قوائم عيد الميلاد في ذلك العام بأمان في يد جيل، قدم أحفادي إلى مقصورتي الخاصّة على متن طائرة الرّئاسة الثّانية بشكلٍ جماعيّ، من نعّومي ذات الخمسة عشر عامًا، إلى هانتر البالغ من العمر ثلاث سنوات. كانوا قد تحدّثوا جميعًا بالموضوع،

والنّتيجة كانت بالإجماع: هذا النّمط الجديد من السّفر غير مناسب بالنّسبة إليهم. تحدّثت نعومي عن المجموعة فقالت: «جدّو، هل يمكننا السّفر برًا مرّة أخرى في العام المقبل؟»

لم أكن أعتقد أنّ رئيس جهاز الأمن الخاصّ بي سوف يتأثّر بقوّة حجّة قوائم عيد الميلاد- بغضّ النّظر عن مدى صدقها- عند موازنة هذا الاعتبار مقابل المخاوف الأمنيّة.

بحلول شهر تشرين الثّاني (نوفمبر) 2014، كان كلّ فرد في الأسرة يعرف التّرتيبات؛ ستكون هذه الرّحلة بمثابة رحلتنا السّادسة إلى نانتوكيت على متن طائرة الرّئاسة الثّانية. عادة ما نسافر إلى أندروز في سيّارات منفصلة ونلتقي على مدرج المطار. عندما وصلنا أنا وجيل إلى القاعدة الجوّيّة بعد رحلة استغرقت 25 دقيقة، كانت بقيّة العائلة هناك بالفعل. لقد قفز كلبنا الجيرمان شيبرد «الرّاعي الألماني» من السّيّارة وهرول عبر مدرج المطار بلا مقود ولا دليل. فهذا أصبح مألوفًا بالنّسبة لتشامب. حيث توجّه مباشرةً نحو السّلّم و صعد إلى الطّائرة. السّلّم المؤدّي إلى باب دخول طائرة الرّئاسة الثّانية عريض بما يكفي لشخصين، وهناك حوالي عشرون درجة. أبقيت عيني على بو وهو يشقّ طريقه صعودًا من الجانب الأيسر من الدّرج. كان ابني الأكبر أنحف ممّا كان عليه عندما رأيته آخر مرّة، ولكنّني اعتقدت أنّه ربما استعاد بعض القوّة الّتي فقدها في ذراعه اليمنى وساقه اليمنى قبل بضعة أشهر. صعود تلك السّلالم كان صراعًا بالنّسبة له، ولكنّه أصرّ على القيام بذلك بنفسه. ظلّ يقول إنّه بخير. في الواقع، لم أسمعه يشكو مرّة واحدة منذ تشخيص مرضه قبل خمسة عشر شهرًا. كان يقول: «كلّ شيء على ما يرام» مرارًا وتكرارًا. «إنّني أشعر بتحسّن كلّ يوم». كنت تحت أوامر صارمة ألّا أظهر القلق أمام أيّ شخص. حذّرني بو إحدى المرّات، عندما

ضبطني وأنا أنظر إليه: «أبي، لا تنظر إليّ بحزن». لقد كان حازمًا: «أبي. أبي! هل تفهمني؟ لا تنظر إليّ هكذا».

بعد ساعتين من صعودنا إلى الطّائرة الرّئاسيّة الثّانية، كنّا في منزل صديقنا على الجزيرة، نقسّم غرف النّوم. كان قانون البكورة تقليدًا عائليًا في مسألة ترتيبات الإقامة. كان علينا أنا وجيل أن نختار أوّلًا، ثمّ بو وهالي، ثمّ هانت وكاثلين، ثمّ آشلي وهوارد، ثمّ نزولًا من خلال الأحفاد. كان فريق اتّصالات البيت الأبيض قد استولى أساسًا على غرفة واحدة في المنزل. قد يغادر نائب الرّئيس مكتبه، ولكنّ المكتب لا يغادر نائب الرّئيس أبدًا. كان موظّفو الاتّصالات قد قاموا بتوصيل الأسلاك بخطّ آمن تحسّبًا لأيّ مكالمات طارئة أو دوليّة، وأقاموا اتّصالًا آمنًا بالصّوت والصورة إلى غرفة العمليّات في البيت الأبيض في حال الضّرورة.

تناولنا العشاء ليلة الثّلاثاء، قبل يومين من عيد الشّكر، وبعد ذلك جلسنا مع الأحفاد، الّذين أصرّوا على أن نلعب جميعًا المافيا، وهي لعبة «من الجاني؟» الّتي يمكن لعبها حول طاولة غرفة الطّعام. بعد أن ذهب الصّغار إلى الفراش، جلس الباقون منّا نحكي قصصًا عائليّة قديمة. لم يدعني بو وهانت أنسى اليوم، قبل ما يقرب من أربعين عامًا، عندما جعلت بو يأكل تفّاحة مغطّاة بالرّمل بعد أن أسقطها، على الرّغم من أنّه قيل له ألّا يأخذها إلى الشّاطئ. وهل تذكرون عندما قام بو وآشلي بتعليق عصا الطّبل فوق أنف هانت ليكون أوّل شيء يراه عندما يستيقظ من النّوم نتيجة الإفراط في تناول الطّعام في وليمة عيد الشّكر؟ وهل تذكرون أوّل مرّة قفزنا فيها إلى الكثبان الرّملية؟ كان الوقت قد تجاوز منتصف اللّيل عندما ذهبنا أنا وجيل أخيرًا إلى الفراش. كنّا سعداء. كانت العائلة معًا في مكان لم يمثّل سوى فرحة لنا لما يقرب من أربعين عامًا. ولكن قبل أن نخلد إلى النّوم، تحدثت أنا وجيل حول تقليص رحلتنا قليلا هذه المرّة – ربّما إبطاء وتيرة الأنشطة

لصالح بو، على الرّغم من معرفتنا بأنّه سوف يصرّ على عدم تغيير أيّ شيء. سوف يقول: «كلّ شيء جيّد، كلّ شيء على ما يرام».

لم يقلها أحد بصوت عالٍ، ولم يكن هناك حاجة لذلك، ولكنّنا شعرنا بأنّ عيد الشّكر هذا العام جاء مختلفًا، كأنّ هناك جهدًا متصنّعًا لنكون على طبيعتنا. كنّا حريصين على التّقيّد بطقوسنا القديمة. تأخّرنا في الاستيقاظ صباح الأربعاء، وتكاسلنا كما نفعل دائمًا إلى أن دفعت تيتا المجموعة خارج الباب. قدنا إلى المدينة وبدأنا نزهتنا في الشّوارع نفسها، وإلى المتاجر نفسها الّتي زرناها لما يقرب من أربعين عامًا. كان كلّ فرد من أفراد الأسرة قد بدأ يبحث عن الهديّة المثاليّة. كما كلّ عام، ما زلت أشتري هديّة واحدة لكلّ شخص. دخلنا متجر الملابس نوبي أولًا، كما هو الحال دائمًا، وعلم المالك أنّنا كنّا هناك، كما يحصل دائمًا. صرخ سامي: «أين «هانت»؟ تمامًا كما كان يفعل عندما كان ابني الأصغر لا يزال خجولًا في الثّامنة من عمره، وليس رجلًا ناضجًا لديه ابنة في الجامعة. ثمّ انتقلنا إلى متجر السّاعات الّذي يملكه سبايدر رايت، وهو راكب أمواج أسطوريّ ومصمّم لألواح التّزلّج وكان يعرف بو وهانت وآشلي منذ الصّغر؛ وسانكن شيب، وهو متجر للهدايا التّذكاريّة. كان الأطفال الصّغار يحبّونه أكثر؛ ومتجر موراير توغري.

تجوّلنا بشكلٍ حرّ، في مجموعات صغيرة انقسمت للذّهاب إلى مخازن معيّنة. أخذ الأحفاد الأكبر سنًّا الصّغار معهم. أردت التّوقّف عند المحطّة لأحصل على قهوتي، وربّما صحيفة. أرادت آشلي وجيل الذّهاب إلى محلات نانتوكيت للكشمير. كان تشامب يتجوّل بمفرده مع أيّ مجموعة تظهر له المزيد من الحبّ. فتّشنا المحلّات التّجاريّة لساعات، والهواتف المحمولة تطنّ. عليك القدوم للتّحقّق من... طبيبي في البيت الأبيض، كيفين أوكونور، الّذي بدأ بمرافقتنا منذ العام السّابق، كان يهزّ رأسه حول الغلو في

التّفتيش. ويقول: «إنّه، ماذا؟ أربعة أو خمسة أحياء من المتاجر؟ لقد أمضيت هنا ساعة واحدة ورأيت المكان كلّه. ماذا تفعلون كلّ هذا الوقت؟».

لكـن كان مـن المفيـد جـدًا الخروج مع حشـد الأعياد مجـدّدًا، والقيام بشيء يعتبره معظم النّاس أمرًا بديهيًّا. وكان جهاز الأمن لدينا قد منحنا حيّزًا واسعًا من الخصوصيّة في نانتوكيت، لذلك كان هناك وهم بالحرّيّة الحقيقيّة. للحظة، شعرت أنّ كلّ شيء على ما يرام. بدا كلّ شيء طبيعيًا.

تباطأ تقدّمنا بسبب الأشخاص الّذين أرادوا مصافحة أو عناق – أو أخذ صورة شخصيّة مع نائب رئيس الولايات المتحدّة. ولم أكن النّجم الوحيد. كان بو بايدن فعليًّا نجمًا صاعدًا في السّياسـة الدّيمقراطيّة. كان على وشـك إنهاء فترة ولايته الثّانية كمدّعٍ عام لولاية ديلاوير، وقد سـبق أن صرّح عن نيّته التّرشّح لمنصب الحاكم في العام 2016. وكان إعلانه قد أخلى السّاحة؛ لم يكن أحد في ديلاوير مستعدًا لتحدّي بو في الانتخابات التّمهيديّة للحزب الدّيمقراطيّ. كان يُنظر إليه عمومًا على أنّه السياسيّ الأكثر شعبيّة في الولاية، وأكثر شـعبيّة حتّى من والده. رأى أهل ديلاوير فيه ما رأيته. كان بو بايدن، في سنّ الخامسة والأربعين، هو جو بايدن الثّاني. كان لديه أفضل ما لديّ، مع الأخطاء والعيوب المعدّلة هندسيًا. وكان هانت إلى جانبه بصفته كاتب خطابات ومستشارًا موثوقًا به. كنت متأكدًا من أنّ بو قد يترشّح للرّئاسة يومًا ما، وبمساعدة أخيه، يمكنه الفوز. عندما فزنا أنا وباراك مجدّدًا في انتخابات العام 2012، كنت قد بدأت التّفكير بجديّة في التّنحّي جانبًا بعد الولاية الثّانية وتحويل تركيز الأسرة إلى مستقبل بو السّياسيّ.

لسـت متأكّـدًا متـى حـدث ذلك، ولكن في مـكان ما على طول الطّريق بـدأت أتطلّـع إلـى أبنائـي. لقـد كانوا رجـالًا طيّبين وفاضلين يتشـاركون في إيمانهم بالخدمة العامّة ويتصرّفون وفقًا لها. أمضى هانت الصّيف بعد سنته الأولى في الكليّة كعضو في فريق المتطوّعين اليسـوعيّين في تدريس اللّغة

الإنجليزيّة للأطفال في بيليز. في عامه الأوّل بعد الكلّيّة، قاده عمله مع فريق المتطوّعين اليسوعيين إلى بورتلاند، أوريغون، حيث كان مسؤولًا عن مركز خدمات الطّوارئ في حيّ محروم. كانت أوّل وظيفة كبيرة له بعد تخرّجه من كليّة الحقوق في جامعة ييل كمتدرّب تنفيذيّ في بنك كبير في ويلمنجتون، حيث كان يتقدّم وفق مسارٍ سريع. لكنّه جاء إليّ في إحدى الليالي بعد بضع سنوات فقط وقال إنّه بحاجة إلى القيام بشيءٍ أكثر جدوى، لذا ترك هذا المنصب المرتفع الأجر ليتولّى وظيفة في الحكومة. وبحلول عيد الشكر في العام 2014، كان هانت في عامه الثّالث كرئيس لمجلس إدارة برنامج الغذاء العالميّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة.

اتّخذ بو مسارًا مشابهًا، مدفوعًا بإحساسه الصّلب بالشّرف والواجب. فقد تطوّع – بصفته مدنيًا يعمل في مكتب المدّعي العام للولايات المتّحدة – للذّهاب إلى منطقة الحرب في كوسوفو لمساعدة تلك الجمهوريّة النّاشئة على تطوير نظامها القانونيّ ومحاكمها. كما انضمّ إلى الحرس الوطنيّ لجيش ديلاوير في سنّ الرّابعة والثّلاثين، وأصرّ على الذّهاب مع وحدته عندما تمّ نشرها في العراق بعد خمس سنوات. ولكن كان عليه أن يلتزم التزامًا ثابتًا أمام البنتاغون بأنّه سيأخذ إجازة كمدّعٍ عام للدّولة من أجل تكريس طاقاته الكاملة لمسؤوليّاته فى العراق. لقد فعل ذلك بسهولة. لا أستطيع أن أقول: إنّني كنت سعيدًا بالطّريقة الّتي خرج بها عن مساره ليضع نفسه في مسار خطر مرّة أخرى، لكنّني لم أتفاجأ. فكّرت في تذكيره بأنّه قد سبق أن خدم في أحد حقول النّار وقد لا يودّ القيام بذلك مرة أخرى. لكنّني كنت أعرفه جيّدًا بما يكفي لأعرف ما سيقوله: «لقد التزمت بذلك يا أبي. لا يمكنني أن أخذل رفاقي. إنّه واجبي».

كان بو مصمّمًا أيضًا على أن يكون أبًا جيّدًا. كانت هناك قصّة تداولها طاقم العمل لديّ، وهو أمر حدث في إحدى رحلاتنا السّابقة في نانتوكيت:

كان بو وابنه هانتر يركبان عائدين إلى المنزل في إحدى السّيارات الموجودة في الموكب، عندما قرّر بو التّوقّف بسرعة في متجر موراىز توغري لاختيار سروال جديد من سراويل نانتوكيت الحمراء. كانت زوجته، هالي، تمزح من أنّ بـو كان محافظًـا للغايـة بحيـث لا يرتـدي في الواقع الأحمر الفاقع، لكنّه يحبّ فكرة وجودهم في خزانة ملابسه. عندما انفصلت سيارة بو عن الموكب الرّئيـس فـي ذلـك الصبـاح للالتفاف إلى مخزن موراي، صرخ هانتر الصغير من مقعد سيارته في الخلف، «انتبه، أيها السّائق، لقد فاتك المنعطف!»

قـال بـو لإيثـان روزنزويـغ، الّذي كان يقود السّـيّارة «من فضلك أوقف السّيارة». كان إيثان عميد القبول في كليّة إيموري للحقوق في أتلانتا، لكنّه كان يحبّ القيام بعمل تطوّعي ثانويّ من أجلنا عندما يكون لديه وقت فراغ خلال الأعياد. كان إيثان يعرف بو منذ زمنٍ طويل، وكان بمقدوره أن يشعر بـأنّ بـو كان منزعجًـا. قـال إيثـان، «مهلا، بو، إنّه ليس بالأمر المهمّ. لم يكن يقصـد شـيئًا». لكـن بـو حثّه علـى إيقاف السّـيّارة. أراد لهانتر أن يحفظ هذا الدّرس. توقّف إيثان عند حافة الطّريق وخرج بو وفتح الباب الخلفيّ حتّى يتمكّن من التّحدّث إلى ابنه. قال بو: «انظر، هانتر»، وكان حازمًا، «هذا إيثان، وهو صديقنا. لا تخاطب أبدًا أيّ شخص بصفته «سائقًا». فأنت لا تخاطب أيّ شخص من خلال وظيفته. هذا ليس تصرّفًا لائقًا. واضح؟ هل فهمت؟ أحبّك يا صديقي».

انطوى بو على نفسـه في يومنا الأوّل في نانتوكيت. وقد أصبح جهاز أمنه الخاصّ بارعًا حقًّا في إبعاده. كان يشعر بالتّعب بسهولة ويزداد خجله فـي التّفاعـل مـع النّـاس. كمـا كان يفقد إحساسـه باليد اليمنـى الّتي لم تعد قويّـة بمـا يكفـي للمصافحـة بشـكلٍ جيّد. كان يصارع حالة تسـمّى الحبسـة الكلاميّة. فقد تسبّب العلاج الإشعاعيّ والكيميائيّ ببعض الأضرار في الجزء

من الدّماغ الّذي يتحكّم في القدرة على تسمية الأشياء. احتفظ بو بجميع قدراته المعرفيّة، لكنّه كان يكافح لتذكّر الأسماء المناسبة. كان يعمل بجهد ليستعيد قوتّه ويعكس الحبسة الكلاميّة. كان يذهب إلى فيلادلفيا في معظم الأيّام لتلقّي ساعة من العلاج الفيزيائيّ والعلاج الوظيفيّ، ثمّ ساعة من علاج النّطق، كلّ ذلك بالإضافة إلى علاجاته الكيماويّة المعتادة. كانت آشلي تقابله هناك لتبقى برفقته في جلسات العلاج أثناء قيامه بتمارين العضلات والتّمدّد، أو استعراض الصّور، وتسمية الأشياء. كما كانت آشلي تأخذه لتناول الطّعام قبل أن يتوجّه ليوم عملٍ بصفته مدّعيًا عامًا. كان يقصد أن يثبت للجميع أنّه قادر على التّعامل مع الأمر وأنّه يحرز تقدّمًا، وكنت أصدّقه.

دماغ الإنسان رشيق بشكلٍ ملحوظ، وكان بو يدرّب حرفيًا مناطق أخرى بالقرب من مراكز الكلام لتولّي وظيفة التّسميّة. سارت العملية ببطء، لكنّه لم يُظهر إحباطًا أبدًا. لم يره أحد في العائلة أو من أصدقائه أو من موظّفيه في مكتب المدّعي العام غاضبًا أو محبطًا. يستغرق الأمر قليلًا من الصّبر، وبعض الكلمات الإضافيّة عندما لا يستطيع تذكّر كلمة رئيس البلديّة: «أتعلم، ذلك الرّجل الّذي يدير المدينة؟» أو قطعة الخبز: «ناولني، كما تعلم، الشّيء الأسمر الّذي تضع عليه الزّبدة».

جزء من جمال الإجازة العائليّة في نانتوكيت هو العزلة الرّائعة والقسريّة. كانت الرّحلة منطقة خالية من الهاتف طوال سنواتي في مجلس الشّيوخ. لم أكن أعمل إلّا في حالات الطّوارئ الرّهيبة، كي أتفرّغ بالكامل لأولادي وأحفادي. لكن هذا هو التّقليد الوحيد الّذي خُرق بعض الشّيء بحلول العام 2014. بصفتي نائبًا للرّئيس، لم أكن أبدًا خاليًا تمامًا من العمل، حتّى في فترة عيد الشّكر. على سبيل المثال، اضطررت إلى الابتعاد عن الرّحلة إلى المدينة يوم الأربعاء والعودة إلى المنزل لتلقّي مكالمة عبر الخطّ الآمن من أرسيني ياتسينيو، رئيس وزراء أوكرانيا، الّذي حرص على إخباري بما حدث

في كييف في ذلك اليوم. كنت في تلك المدينة قبل أربعة أيّام فقط، وبدت الأمـور محفوفـة بالمخاطـر. كانت الحركة الّتي بدأتها «ثورة الكرامة»، وهي مظاهرة شعبيّة رائعة وقعت في ساحة في كييف تسمّى ميدان نيزاليجنوستي، تتلاشـى. وبـدا أنّ الأوكرانيّيـن علـى وشـك أن يخسـروا كفاحهـم من أجل الدّيمقراطيّة والاستقلال. استغلّ الرّئيس الرّوسيّ فلاديمير بوتين عدم استقرار الثّورة كفرصةٍ للاستيلاء بالقوّة العسكريّة على جزءٍ من أوكرانيا يسمّى شبه جزيرة القرم، واسـتمرّ في الضّغط. وكان يرسـل في الآونة الأخيرة دبّابات وجنودًا روسًـا عبر الحدود لتهديد المقاطعات الأخرى فى الجزء الشّـرقيّ مـن البـلاد، ويهـدّد بقطـع إمدادات أوكرانيا من الغـاز الطّبيعيّ، وهو ما كان سـيزعزع اسـتقرار اقتصاد البلاد الهشّ أساسًـا. كانت الحكومة الدّيمقراطيّة المنتخبـة حديثًـا فـي أوكرانيا في خطرٍ حقيقيّ من الانهيار تحت وطأة حملة بوتن اللّامبالية.

فـي غضـون ذلـك، بات الرّئيـس الأوكرانيّ ورئيس الـوزراء الجديدين يواجهـان قضايـا ثقـة باسـتمرار. فقـد كان الرّئيـس بترو بوروشـينكو ورئيس الوزراء ياتسينيوك من الأحزاب المتنافسة، وكانت الانتخابات الأخيرة مؤلمة ومسبّبة للانقسام. وقد ظلّت دوائرهما الانتخابيّة أكثر اهتمامًا بتسجيل النّقاط السّياسيّة من اهتمامها بالحكم. فقد كانت زمرة بوروشنكو وياتسينيوك يهدرون طاقتهم في الخلافات بعضهم مع بعض في الوقت الّذي كان ينبغي لهم إنشاء مؤسّسات وقوّات أمنيّة قادرة على التّصدّي لبوتين. لم يكن الأوكرانيّون قد شكّلوا بعد حكومة ائتلافيّة فعّالة في نهاية شهر تشرين الثّاني (نوفمبر)، أي بعد ستّة أشهر من تولّي بوروشنكو الرّئاسة. وإذا لم يفعلوا ذلك قريبًا، فهذا يعني إجراء انتخابات مبكّرة. وهذا يعني المتاعب. كان من المؤكّد أنّ عملاء بوتيـن سـوف يضخّـون الأمـوال في حملات المرشّـحين الموالين لروسـيا، وربّما يقضون على أيّ أملٍ في حصول أوكرانيا على أيّ اسـتقلال حقيقيّ.

كان من المرجّح أن يتخلّى الاتّحاد الأوروبيّ وحلف شمال الأطلسيّ عن أوكرانيا بصفتها قضيّة ميؤوس منها، وسوف تُجرّ البلاد مجدّدًا إلى المدار الرّوسيّ السامّ. وسوف تذهب سدىً شجاعة هذا العدد الكبير من الشّعب الأوكرانيّ وتضحياته في ثورة الكرامة .

أمضيت شهورًا في تبادل المكالمات الهاتفيّة مع كلّ من بوروشنكو وياتسينيوك، في محاولة لإقناع كلّ منهما، على حدة، بتقديم الولاء للبلد على الولاء للحزب السّياسيّ. وقد استثمرت يومين كاملين في كييف الأسبوع السّابق في محاولة لجعل بوروشنكو وياتسينيوك يرون خطر عدم رغبتهم العنيدة في العمل معًا. فقد كنت لا أزال أعمل على حلّ المشكلة أثناء مغادرتي كييف في 22 تشرين الثّاني (نوفمبر)، قبل أربعة أيّام فقط. اتّصل بي ياتسينيوك وأنا أغادر فدعوته لمرافقتي إلى المطار. لقد أحببت أرسيني. فهو ذكيّ – وحاصل على دكتوراه في الاقتصاد – ولكنّه لم يكن أكاديميًا مُنغلقًا. لقد كان قائدًا شابًا جادًا اهتمّ اهتمامًا عميقًا بأن يكون بلده دولة ديمقراطيّة فعليّة لديها حدود آمنة. كان رئيس الوزراء البالغ من العمر أربعين عامًا يتمتّع أيضًا بقدرٍ من المثاليّة الّتي أقدّرها، وفي رحلة اللّيموزين إلى المطار، ناشدت ذلك الجزء منه. قلت لـ ياتسينيوك، «اسمعني جيّدًا، عليك أن تكون مع بوروشينكو. يجب أن تشكّلا فريقًا واحدًا. لا يمكنكما الذّهاب في طريقٍ منفصل. إذا جرت الدّعوة إلى انتخاباتٍ جديدة، ستكون كارثة. سوف تخسر كلّ شيء. صدّقني يا أرسيني، يجب أن تتقدّم يجب أن تكون الرّجل الأكبر. يمكنك القيام بذلك. سيكون الأمر صعبًا ولكن يمكنك القيام به».

عندما اتّصل بي ياتسينيوك على الخطّ الآمن في نانتوكيت بعد ظهر ذلك اليوم، كان يحمل أخبارًا مهمّة، لقد أرادني أن أكون أوّل من يعرفها. أخبرني أنّ الأحزاب المتنافسة في أوكرانيا شكلّت للتوّ حكومة ائتلافيّة

جديدة. سيبقى هو رئيسًا للوزراء، ولكنّ حليفًا رئيسًا لبوروشنكو سيكون رئيسًا للبرلمان الجديد. اتّفق الرّجلان أيضًا على جدول أعمال للمضيّ قدمًا. قال لي: «سيدي نائب الرّئيس، أنا أحافظ على التزامي تجاهك».

اعتراني شعور جيّد أثناء العشاء في تلك الليلة، بوجودنا نحن الثّلاثة عشر على الطّاولة، والعمل من خلال قوائم عيد الميلاد، ومعرفة أنّ الأحزاب قد عملت على تشكيل حكومة جديدة في كييف.

استيقظنا صباح عيد الشّكر وقمنا بممارسة سباق الدّيك الرّومي السّنويّ- مسافة عشرة أميال (لأيّ شخص يرغب في ذلك) إلى الجانب الآخر من الجزيرة. اجتزت الطّريق مع بعض الأحفاد على الدّراجة. قضينا جزءًا من النّهار في رمي كرة القدم بجانب الشّاطئ. لقد أريت الشّابّ هانتر المنحدرات حيث اعتاد والده وعمّه القفز من عليها والتقاط الكرة عندما كانا في سنّه تقريبًا. حرص بو وهالي وأطفالهما على التقاط بعض الصّور الجميلة لهم الأربعة معًا على الشّاطئ. ثمّ ذهبنا إلى منزل السولتبوكس الصّغير لالتقاط صورتنا السّنويّة، لكنّ المبنى كان مُحاطًا بشريط الشّرطة الأصفر. كان المنزل ضحيّة لارتفاع المدّ والجزر في المحيط الّذي كان يجرف ثلاثة أو أربعة أقدام من سكونست بلوف كلّ عام على مدار العشرين عامًا الماضية. قد تجرف سنوات العاصفة الرّديئة عشرة أضعاف ذلك في بعض الأماكن. وأخيرًا، «بريّ إلى الأبد» فقد أرضه الآمنة، ونفذ وقته؛ بل إنّه انجرف إلى المحيط الأطلسيّ. والشّيء الوحيد الّذي خلّفه وراءه كان جزءًا من أساساته.

عدنا إلى المدينة في اليوم التّالي لعيد الشّكر، لضمان وجودنا في المكان الصّحيح عند الغسق، لمشاهدة الإضاءة السّنويّة لشجرة عيد الميلاد في

نانتوكيت. فقد طلب بو يد هالي للزّواج على ضوء الشّجرة في العام 2001 وتزوجا في كنيسة سانت ماري، في قلب وسط مدينة نانتوكيت، في العام التّالي. لطالما اشتبهت هالي في أنّ هذه كانت طريقة بو كي يرتبطا بعيد الشّكر مع عائلة بايدن بصورة دائمة. وقد نجحت. كانا يحتفلان بعيدهما الثّاني عشر في نهاية الأسبوع، ولم تفوّت هالي عيد الشّكر أبدًا. حتّى في العام الّذي كان فيه بو متمركزًا في العراق، أصرّت على أن نحافظ جميعًا على التّقاليد ونذهب إلى نانتوكيت.

أثناء قيامنا بجولة عائليّة، وجدت نفسي أفكّر في قضيّة بدأت تلقي بظلالها عليّ. كنت أتلقّى الكثير من الأسئلة، من جهات مختلفة، حول التّرشّح إلى الرّئاسة في العام 2016. حتّى الرّئيس أوباما فاجأني بسؤاله مباشرة عن خططي في إحدى وجبات الغداء المعتادة قبل أسابيع قليلة. أراد أن يعرف ما إذا كنت قد فكّرت في كلّ الأشياء الّتي يمكنني القيام بها إذا لم أترشّح. وأكّد لي أنّه ما زال في وسعي أن أكون مؤثّرًا. يمكنني إنشاء مؤسّسة أو مركزًا للسّياسة الخارجيّة. يمكنني حتّى القيام ببعض الأشياء الّتي لم يسبق أن فعلتها من قبل – مثل كسب بعض المال. «لكن هل اتّخذت قرارك [بشأن التّرشّح]؟» سألني الرئيس، بصراحة، عبر الطّاولة في مساحة خاصة صغيرة قبالة المكتب البيضاوي: «لا، لم أفعل»، كان كلّ ما يمكنني قوله.

في مكانٍ ما في شوارع نانتوكيت في ذلك اليوم، طرحت مسألة العام 2016 مع ابنيّ. بادرني شعور بأنّهما لا يريدانني أن أترشّح، وقلت لهما ذلك. نظر بو إليّ مباشرة وقال: «علينا أن نتحدّث، يا أبي». لذا عندما عدنا إلى المنزل في ذلك المساء جلسنا نحن الثّلاثة في المطبخ وتحدّثنا.

كنت أعلم أنّ هناك الكثير من الأسباب الوجيهة لعدم التّرشّح، وعدم اليقين بشأن صحّة بو كان على رأسها. وقد شككت حقًّا في أنّ أبنائي، الّذين أصبحت لهم أحكام أقدّرها وأعتمد عليها، لا يريدونني أن أضع العائلة في

محنة حملة رئاسيّة الآن. قال بو عندما استقزينا في المطبخ في نانتوكيت: «أبي، لقد فهمت الأمور بشكل خاطئ كليًا. عليك أن تترشّح. أريدك أن تترشّح». وافق هانتر: «نريدك أن تترشّح». تحدّثنا نحن الثّلاثة لمدّة ساعة. أرادا معرفة استعداداتي، ومتى يكون الوقت مناسبًا للإعلان. كانت هناك حجّة قويّة يسوقها بعض خبرائي السّياسيّين بأنّه إذا كان هناك أيّ احتمال لخوض الانتخابات على الإطلاق، عليّ أن أعلن على الفور، في بداية العام 2015. لكنّني أعتقد أنّنا كنّا نريد، نحن الثّلاثة، مزيدًا من الوقت لنرى ما سيحدث مع بو. أخبرني أبنائي، عندما قرّرت أنّ الأمر ليس حاسمًا؛ أنّهم أرادوني فقط أن أعرف أنّهم يدعمونني. ظلّ هانت يخبرني أنّه من بين جميع المرشّحين المحتملين، كنت الأفضل استعدادًا والأفضل قدرة على قيادة البلاد. لكنّ القناعة والشّدّة في صوت بو هو أكثر ما فاجأني. في مرحلة معيّنة قال: إنّه من المفروض عليّ أن أترشّح، إنّه من واجبي. كانت «واجب» كلمة لا يستخدمها بو بايدن باستخفاف.

عندما استقلّينا طائرة الرّئاسة الثّانية في رحلة العودة إلى المنزل يوم الأحد، بدا الجميع سعداء. كانت الأيام الخمسة ناجحة من جميع النّواحي. كان لدى جيل قوائم عيد الميلاد المكتملة في الحفظ والصّون. لقد كانت رحلة رائعة. وصلنا – أنا وجيل – إلى «المرصد البحريّ» في ذلك اليوم بعد الظّهر وصعدنا السّلّم المركزيّ الواسع إلى الطّابق الثّاني للاستقرار في ركن المعيشة غير الرّسميّ الّذي نستخدمه عندما نكون نحن الاثنان لوحدنا. كانت مساحة صغيرة، مزدحمة إلى حدّ ما، ولكنها كانت منزلنا الصّغير داخل مسكن مصمّم إلى حدّ كبير للاستخدام العامّ. فرشنا غرفة الجلوس بأرائك جلديّة تتطابق مع تلك الموجودة في غرفة المكتبة لدينا في ويلمنجتون، وملأنا الرّفوف بكتبنا المفضّلة وصورنا العائليّة. كانت هناك طاولة صغيرة

لشخصين في إحدى الزّوايا بمثابة طاولة عشائنا، حيث كنّا نأكل على ضوء الشّموع حتّى في أيام الصّيف الطّويلة.

جلست على أريكتنا، في المكان الوحيد في المنزل الّذي نشعر أنّه ملكنا حقًّا، للاسترخاء والتّفكير. ولكن كانت هناك صورة لم أستطع إخراجها من رأسي. ظللت أرى المنزل الصّغير «بريّ إلى الأبد»، تقوّضه الطّبيعة القويّة اللّامباليـة وحتميّـة الزّمـن، بحيـث لـم يعـد قادرًا على الصّمود؛ أكاد أسـمع الصّدع الحادّ أثناء فشـل مراسـيه، ويمكنني أن أتخيّل المدّ يتدفّق ويخرج، ويسـحبه بـلا هـوادة وبـلا رحمة حتّى يطفو علـى الماء، ثمّ يبتلعه البحر. لن يكون أيّ عيد شـكر هو نفسـه تمامًا. أخرجت مذكراتي وبدأت في الكتابة. كان لدي بند واحد كبير لقائمة عيد الميلاد الخاصّة بي في ذلك العام، لكنّني كنت أحتفظ به لنفسي: المرصد البحري، 30 تشرين الثّاني (نوفمبر) 2014، السّاعة السّابعة والنّصف مساءً. للتوّ وصلت إلى المنزل من نانتوكيت. أدعو الله أن يكون لدينا عام آخر معًا في العام 2015. بو بو. بو.

الفصل الثّاني

ليكن لديك هدف

عندما شاهد بو لأوّل مرّة صور السّكانر الّتي أظهرت إصابة في دماغه، في صيف عام 2013، كان جزءًا من ردّ فعله هو الارتياح: لقد حصل أخيرًا على تفسيرٍ لما كان يحدث له. كان بو قد استيقظ في صباح أحد الأيام قبل ذلك بثلاث سنوات وهو غير قادر على الكلام وأصيب بالشّلل في الجانب الأيمن من جسده. نُقل إلى المستشفى، حيث أظهر الفحص الأوّليّ وجود جلطة في دماغه. لكنّ أعراض السّكتة الدّماغيّة التقليديّة تلاشت بعد ساعاتٍ قليلة من وصوله إلى غرفة الطّوارئ، بينما كان الأطبّاء لا يزالون يقرّرون أفضل السّبل لعلاجه. نادى عليّ من نقّالة في غرفة الفحص: «أبي، انظر»، وحرّك ذراعه اليمنى ورجله لأعلى ولأسفل. بدا لي وكأنّها معجزة. اعتقد طبيبي في البيت الأبيض، كيفن أوكونور، أنّ بو ربّما عانى من شيء ما يسمّى شلل تود، وهو أحد الآثار الشّائعة لنوبات الصّرع. لم يكن لدى أحد تفسير محدّد، ولكن أيّ علامة على وجود جلطة قد اختفت، ولم يشعر بو بأيّ عجز دائم.

كان بو بخير لبضع سنوات بعد تلك الحادثة، ولكنّه بدأ بعد ذلك يشعر بمشاعر غريبة ودوخة أحيانًا وهو يجري لمسافةٍ طويلة. ظنّ أنّ ذلك بسبب الجفاف، إلى أن ساء الأمر. لم يكن توازنه ثابتًا بشكلٍ دائم وكان يعاني من هلوسة سمعيّة. في بعض الجولات، كان يسمع صوت محرّك طائرة نفّاثة

ينقـضّ عليـه، كان الشّـعور حقيقيًـا جـدًا وحاضرًا جدًا. اكتشـفت لاحقًا، أنّه قد يجد نفسـه متواريًا على جانب الطّريق. وبدأ يتسـاءل عمّا إذا كانت هذه نوبـات مـن الهلـع أو اضطـراب مـا بعد الصّدمة من جولته في العراق، أو ما إذا كان يفقد عقله. لذا، وبقدر ما بدا الأمر مقلقًا، فإنّ ملامح الكتلة الكبيرة على الجانب الأيسر من دماغه طمأنته على الأقلّ بأنّه لم يصب بالجنون.

لقد رأى الأطبّاء الورم في نتائج السّكانر في شـيكاغو، بعد أن أصيب بـو بحادثـة أخـرى تشـبه السّـكتة الدّماغيّـة بينمـا كان فـي إجـازة مع هانت وعائلتيهما. أعدنا بو إلى مستشفى توماس جيفرسون الجامعيّ في فيلادلفيا، حيـث كان الأطبـاء يعرفونـه وحيـث كان هـوارد، زوج آشـلي، يعمل بصفته جرّاحًـا فـي الـرّأس والرّقبة. أجرى أطبّاء الأعصاب في جيفرسـون مجموعةً من الاختبارات وفحصًا بالأشـعّة فوق الصّوتيّة قبل أن يقدّموا لنا جملةً من التّشـخيصات الممكنـة: مـن ورم حميـد؛ إلى سـرطان في الغـدد اللّيمفاوية، والّـذي مـن المرجّـح أن يكون قابلًا للشّـفاء، إلـى ورم أرومي دبقي، والّذي من المرجّح أن لا يكون كذلك. عندما أشار الأطبّاء في جيفرسون بأنّ علينا الاسـتعداد للأسـوأ، احتياطًا، كان ردّ فعل بو الأوّل هو الغضب. اللّعنة! ثمّ شرعنا جميعًا في العمل.

اتّصل هوارد وكيفن أوكونور، اللّذين نطلق عليهما اسم «دوك»، بالخبراء للحصول على نصائح حول أفضل مكان للعلاج، بغض النّظر عن التّشخيص. كان دوك عسكريًا مثل بو، طبيب القوّات الخاصّة «دلتا فورس» الّتي خاضت معارك خطيرة. عادةً ما يكون هادئًا تحت الضّغط، لكنّه كان مضطربًا قليلًا من احتمال الإصابة بورم أرومي دبقي. عندما سـألته جيل عن أفضل مكان للذّهاب إليه في حالة الورم الأرومي الدّبقي، قال من دون تفكير – لأنّه لم يسـمح لنفسـه بالاعتقاد بأنّه قد يكون الأسـوأ – «إذا كان الوحش، فلا يهمّ أين نذهب». انفجرت جيل في البكاء.

كان دوك طيّبًا مع بو، الّذي كان لا يزال يحاول معرفة كلّ الاحتمالات في تلك الأيّام القليلة الأولى. بدأ الخوف الحقيقيّ يتسلّل. في بعض الأحيان يمسك به بو عندما يكون الجميع بعيدًا عن السّمع للحصول على تقييمه الصّادق. فقال لـ بو: «مهما كان الأمر، فإنّه سيّء، لكنّنا سنكتشف ما هو. وبمجرّد أن نعرف ما هو، ستكون لدينا خطّة».

سأله بو: «وعد؟».

«وعد. أنت وضعك جيّد. النّاس ينجون من هذا، وكلّ الّذين ينجون يشبهونك. إنّهم شباب. لديهم لياقة بدنيّة. يتمتّعون بصحّة جيّدة. ستكون لدينا خطّة».

أجاب بو: «شكرًا دوك. أنت تعرف أنّني أحبّ الجيش».

بحلول الوقت الّذي اصطحبنا فيه بو إلى مركز السّرطان ام دي أندرسون في هيوستن بعد بضعة أيّام فقط، كان جميع أطباء التّشخيص يميلون نحو الورم الأرومي الدّبقيّ، ولكن لم يكن بإمكانهم الجزم بذلك. كان من الصّعب أن نفهم، بالنّظر إلى بو – السّمرة والوسامة واللّياقة، مع نموّ غير معهود للحيته خلال أسبوع – أنّه من الممكن أن يكون لديه شيء خطير. بدا لي أنّه يتمتّع بصحّة جيّدة وحيويّة كما هو دائمًا، منذ أن كان طفلًا صغيرًا. كان بإمكانه الخروج والرّكض لمسافة عشرة أميال في ذلك اليوم، وبدا أنّه بكامل طاقته. خصّص طبيب التّخدير في أندرسون ساعة لشرح الجراحة المعقّدة والمحفوفة بالمخاطر الّتي ستجرى له في اليوم التّالي لإزالة الورم وتحديد ما إذا كان الورم الأرومي الدّبقيّ حقًّا. لوّح له بو بعد عشرين دقيقة. قائلًا: «لقد فهمت. لننه هذا الأمر!». وجدنا مطعمًا إيطاليًا في الحيّ الكبير في هيوستن في تلك اللّيلة، ولم يكن أحد هناك ليخمّن أنّنا نواجه أزمة. أكلنا، وضحكنا واختلقنا الأمل. كنّا جميعًا معًا: بو وهالي، أنا وجيل، هانت

وكاثلين، آشلي وهوارد.

لـم يكـن بـو يخـادع نفسـه بشـأن فداحة وضعه. فقـد أظهر آخر فحص شـعاعيّ في ام دي أندرسـون كتلة رماديّة كبيرة في الفصّ الصّدغيّ الأيسـر، ممّا يعني احتمال أن يكون قد شقّ طريقه عبر مناطق في الدّماغ تتحكّم في كلامـه وإدراكـه وحركتـه. ومـع ذلك بدا بو أقلّ اهتمامًا بنفسـه وتكهّناته من اهتمامه بأيّ شخص آخر في العائلة. لقد كان قلقًا بشأن زوجته وأطفاله وأخيه وأخته وأمّه وحتى بشأني. عندما دفعوه إلى قسم جراحة الدّماغ لإجراء عمليّة جراحيّة طويلة وشـاقّة، كان هوارد ودوك معه. أمسـك بو بيد دوك وهو في طريقه إلى الدّاخل، وقال: «دوك، عدني بأنّك ستعتني بأبي».

«بو، ستكون متواجدًا لتعتني أنت بوالدك».

«بجـدّ، دوك. بغـضّ النّظـر عمّـا يحـدث. اعتـنِ بأبـي. صدقًـا. عِدني. بصدق».

بينمـا اسـتقرّ فـي غرفـة العمليّـات، جـرى اصطحـاب بقيّتنـا إلـى غرفة الاجتماعـات الّتـي خصّصهـا لنا طاقم شـؤون المرضى بالمستشـفى. كانت هناك مساحة كافية لجهاز الأمن الخاصّ، وكان لديّ خطّ هاتف آمن. عمل فريق أندرسـون بجدّ للحفاظ على خصوصيّتنا، وهو ما تمنّيناه بشـدّة، لكنّ المرور إلى غرفة الانتظار أضاف لمسـة من السّـرياليّة. فقد مشـينا عبر متاهة مـن الممـرّات، كلّ واحـدٍ منهـا صامـت، لا لون له، ويبـدو بلا نهاية. كانت لوحـات الأضـواء العلويّـة بيضاء فلورسـنت حادّة. أعتقـد أنّ العائلة بأكملها شـعرت وكأنّها في مكانٍ لم تتواجد فيه أبدًا، سـواء جسـديًا أو فكريًا. كان هناك الكثير من المعلومات الّتي ترد إلينا وبسرعة. ظللت أفكّر بأنّ عليّ أن أتعلّم الكثير عن هذا المرض. هل سيكون لديّ الوقت لتعلّم كل ما تجب معرفته؟ شعرت بأنّني أفقد السّيطرة بينما تبعنا مرافقينا عبر الممرّات الطّويلة.

لا نوافذ هناك، ولا سبيل لرؤية الأفق، ولا سبيل للتنبؤ بأيّ مستقبلٍ منظور.

أحدًا لم ينبس بكلمة.

وصلنا أخيرًا إلى قاعة الاجتماعات وجلسنا لانتظارٍ طويلٍ أمامنا.

لقد جذبتنا إلى مستشفى ام دي أندرسون سمعة الدّكتور ريموند صوايا، جرّاح الأعصاب الّذي يعدّ من بين الأفضل في العالم في إجراء ما يسمّى بجراحة الدّماغ مع اليقظة. سمحت العمليّة للجرّاح باستئصال الجزء الأكبر من الورم في المخّ دون الإضرار بالكلام أو الإدراك أو المهارات الحركيّة. كان المريض واعيًا في الواقع خلال معظم العمليّة الجراحيّة، حيث قام بتسمية أشياء بسيطة مرسومة على بطاقات فلاش أو في محادثة عفويّة مع طبيب التّخدير، بينما قام الدّكتور صوايا بمعاينة حدود الورم باستخدام أقطاب كهربائيّة دقيقة. إذا لم يتمكّن بو فجأة من التّعرّف إلى صورة فيل أو سيّارة، أو شعر بفقدان القوّة، أو لم يستطع التّحدّث على الإطلاق، يعلم صوايا أنّه لا يستطيع استئصال تلك البقعة دون إلحاق أضرار جسيمة. كان على بو أن يكون قويًا بما يكفي لتحمّل ساعات من هذا الإجراء المقلق للغاية. سمح الدّكتور صوايا وطبيب التّخدير لهوارد ودوك أوكونور بالدّخول إلى غرفة العمليّات، حتّى يتمكّنا من المساعدة في تهدئة بو. ويبدو أنّهما حرصا على أن تسير الأمور بخفّة وسهولة ومرح. قال أحد الأطبّاء الاختصاصيّين: «تذكّر، ما يحصل في قسم جراحة الدّماغ يبقى في قسم جراحة الدّماغ».

بينما كان الدّكتور صوايا يستكشف المنطقة المحيطة بورم بو بحثًا عن أماكن القطع، أرسل أيضًا خزعة صغيرة إلى المختبر. كان بحاجة إلى انتظار نتائج المختبر قبل أن يبدأ في استئصال الورم. إذا تبيّن أنّ السّرطان هو سرطان الغدد اللّيمفاويّة، فسوف يكون صوايا أكثر تحفّظًا. حيث تذوب الأورام اللّيمفاويّة تحت الإشعاع والعلاج الكيميائيّ، في حين أنّ الورم الأرومي الدّبقي لن يتأثّر بشكلٍ كامل تقريبًا حتّى بجرعات عالية. لذلك

إذا أكّدت نتائج المختبر وجود ورم أرومي دبقيّ، فسوف يعمل بجدّ لإزالة أكبر قدرٍ ممكنٍ منه. كان لدى صوايا أكثر من سبعين ناجيًا على المدى الطّويل من بين المرضى الّذين عالجهم في الثّلاثين عامًا الماضية، وما يميّز هؤلاء النّاجين عن البقيّة هو كميّة الورم الّتي أُزيلت في الجراحة الأوّليّة. عندما يستأصل الدّكتور صوايا ٪98 أو أكثر من الورم، تكون فرصة المريض للتّغلّب على الصّعاب أفضل بكثير. أيّ استئصال أقلّ من ذلك يجعل المعركة الصّعبة أكثر صعوبة.

كنّا جميعًا مستنزفين وصامتين في الغالب، عندما جاء الدكتور صوايا إلينا في غرفة الانتظار في وقتٍ ما بعد السّاعة الواحدة من بعد ظهر ذلك اليوم، بعد أكثر من سبع ساعات من دخول بو إلى غرفة العمليّات. كان الجرّاح رجلًا طويل القامة وأنيقًا، بلكنة خفيفة وناعمة من حياته المبكرة في سوريا ولبنان. كان حضوره وسلوكه دائمًا واثقًا ومريحًا، وبدا واضحًا أنّه سعيد بكيفيّة سير الجراحة. أوضح الدّكتور صوايا أنّه قد أزال ورمًا أكبر بقليل من كرة الجولف، وقد مرّ بو بالعمليّة دون أيّ مضاعفات. باستثناء النّدبة على الجانب الأيسر من رأسه، سيكون كما كان من قبل. لم يصب كلامه وإدراكه ومهاراته الحركيّة بأذى. لكنّ الأخبار لم تكن كلّها جيّدة. كان الورم منتشرًا قليلًا، ولم يتمكّن صوايا من إزالته بالكامل. لقد اكتشف بعض الخلايا السرطانيّة المجهريّة مباشرة ضدّ جدار الشّريان، وهو يعلم أنّه إذا حاول قطعها، فإنّ بو قد يتعرّض لأضرار جسيمة لا رجعة فيها. ثمّ ساءت الأخبار، أسوأ بكثير، وأوضح الدّكتور صوايا أنّ نتائج المختبر أكدّت توقّعات الفريق الطبّيّ: ورم بو كان بالتّأكيد ورم أروميّ دبقيّ. في مرحلته الرّابعة. كنت في الرّكن الخلفيّ من الغرفة، باتّجاه الزّاوية، عندما أعلن صوايا الخبر – وكنت سعيدًا لأنّ أحدًا من أفراد الأسرة لم يكن ينظر إليّ. خفضت

رأسي للأسفل وحدّقت في الأرض. شعرت وكأنّني تلقّيت صفعة. وصلت إلى مسبحتي وطلبت من الله أن يمنحني القوّة للتّعامل مع هذا الأمر.

كان بو مستيقظًا ويقظًا في وقتٍ لاحق من بعد ظهر ذلك اليوم، وتناول الطّعام الصّلب تلك اللّيلة. في صباح اليوم التّالي كان خارج السّرير، يتجوّل، ومتلهّفًا بالفعل للعودة إلى المنزل. ولكن كان هناك الكثير من الأمور الّتي ينبغي استيعابها، والكثير من القرارات الّتي ما زال علينا اتّخاذها. لقد أصبحنا الآن في يد اختصاصيّ طبّ الأعصاب البارز في ام دي أندرسون، الدّكتور دبليو كيه ألفريد يونغ، الّذي سيشرف على علاج بو. نشأ الدّكتور يونغ في هونغ كونغ ولكنّه جاء لدراسة الطّبّ في الولايات المتّحدة، فقد والدته وشقيقين بمرض السّرطان وكان هو نفسه أحد النّاجين من السّرطان، ممّا يعني أنّه كان محاربًا حقيقيًا وملتزمًا ضدّ هذا المرض، ويفهم تمامًا الوضع الّذي نحن فيه.

كان بين يدي الدّكتور يونغ جميع التّقارير الطّبّيّة الجديدة. وقد أظهرت الاختبارات الجينيّة للكتلة أنّ بو لديه أسوأ الأسوأ؛ وهو يفتقر إلى طفرة رئيسة أدّت إلى إبطاء نموّ الورم، ولكن كان لديه طفرتان منفصلتان زادتا من سرعته. بدا يونغ لطيفًا، لكنّه كان صادقًا وصريحًا مع بو. قال: «سنضع خطّة علاج قويّة، وأعتقد أنّ بإمكانك التّعامل معها». «أنت شابّ، وصحّتك جيّدة. نحن نعلم أنّ هذه عوامل تنبّؤيّة جيّدة. ولكنّك ستخوض معركة صعبة يا بو. أمامك معركة طويلة».

لم يسأل بو الدّكتور يونغ كم من الوقت، بحسب رأيه، قد يكون لديه. ولم يسأل أحد من العائلة ذلك. لقد بحثنا جميعًا عن التّوقّع القياسيّ للورم الأرومي الدّبقي في ذلك الوقت. عادة ما يعود الورم في غضون ستّة أو سبعة أشهر من الجراحة، وكان متوسط العمر بعد التّشخيص الأوّليّ بين

اثني عشر وأربعة عشر شهرًا. ربّما يتعافى اثنان في المائة من الورم على المدى الطّويل. قلنا لأنفسنا: هذا يعني أنّ بعض الأشخاص يتغلّبون عليه فعليًّا. فلم لا يكون بو؟ كنّا نعرف أيضًا أنّ هناك تقدّمًا غير عاديّ يجري في علاج الأورام الأروميّة الدّبقيّة، وكنّا نعرف أنّ الدّكتور يونغ والفريق في ام دي أندرسون، هم في مقدّمة المطّلعين على أحدث العلاجات التّجريبيّة. وكنت متأكّدًا من أنّني سأتمكّن من الوصول إلى أفضل الأدمغة الأخرى في هذا المجال. علّمتني التّجربة أنّ بإمكان نائب الرّئيس، في الغالب، إقناع أيّ طبيب أو باحث طبّيّ تقريبًا في البلاد بالرّدّ على مكالمته، ولن أخجل من طلب المساعدة والمشورة. كان لدى بو أيضًا جهازٌ قويٌّ من الدّعم. كانت هالي صخرة. وسوف تبقي حياتهم على المسار الصّحيح، وتتأكّد من أنّ أطفالهم بأمان وبصحّة جيّدة. كنت أعرف أنّها ستسند ظهر بو وتزرع في نفسه آمالًا كبيرة. أمّا جيل، فستبقي عين الأمّ اليقظة المدرّبة على بو. إذا أزعجه أيّ شيء أو تسبّب له بالألم، فسوف تعرف قبل أن ينطق بكلمة، وستفعل كلّ ما بوسعها لتحسين الوضع. آشلي ستكون موجودة إلى جانبه أثناء علاجه في فيلادلفيا، وتقدّم له الحبّ غير المشروط، وافتتان الأخت الصّغيرة. كان هانت سلاح بو السّرّيّ، فقد كانت مهمّته طوال حياته حماية أخيه؛ وهذا ما سوف يفعله. مهما تطلّب الأمر. وكان بو يعلم أنّ هانت سيكون موجودًا كلّما احتاجه. دون الحاجة لذكر ذلك. لقد كانا دائمًا سندًا بعضهما لبعض، منذ أن كانا طفلين صغيرين، ولم يتغيّر شيء. ولكنّ الأمر أصبح الآن أكثر قوّة. قال هانت لشقيقه يوم الجراحة: «بو، أنت تعلم أنّني كنت سأتبادل الأماكن معك لو باستطاعتي». وكنّا نعلم جميعًا أنّه يعني ذلك، حرفيًّا. كان هانت آخر شخص في الغرفة يساعد بو على اتّخاذ القرارات الصّعبة بشأن أيّ علاج جديد واعد، ولكنّه غير مثبت، قد يستحقّ المخاطرة. وهو الشّخص الوحيد الّذي يمكن لـ بو أن يفضي إليه بأيّ شيء. بينما كان بو يخبرني ويخبر أيّ

شـخص آخر في العالم أنّه بخير: «كل شـيء على ما يرام. أنا بخير» .. كان بإمكانه أن يخبر هانت الحقيقة المطلقة حول مخاوفه الحقيقيّة.

الأهـمّ مـن ذلـك، أنّ بـو كان يقودنا جميعًا، ونأخذ منه إشـاراتنا. وكان عازمًـا علـى خـوض المعركـة – تبًّا للاحتمالات. قال لـي ولهانت: «لا تدعا أيّ شخص يقول لي ما هي النّسب. مفهوم؟ سوف أتغلّب على هذا، اللّعنة. سوف نتغلّب على هذا. لا أريد أن أسمع أيّ شيء عن النّسب المئويّة».

بينما كنّا نستعدّ لمغادرة المستشفى، بعد يومين فقط من الجراحة، عرّج الدّكتور صوايا على غرفة بو متمنيًا له التّوفيق. عانقه بو، وكذلك فعل الدّكتور صوايا بالمقابل. من الواضح أنّ الرّجلين قد مرّا معًا بما يشبه المعركة. عندما تفقّدنـا الدّكتـور يونـغ بعـد ذلك بقليل، سـحبتُه جانبًا وطرحت عليه سـؤالًا سيطرحه جميع الآباء: «ما ينبغي أن يفعل ابني الآن؟ كيف عليه أن يعيش؟».

قال إنّ بو يجب أن يكون إيجابيًا ومتفائلًا. يجب أن يعود إلى المنزل ويفعل ما كان سـيفعله قبل التّشـخيص. أخبرته أنّ بو كان يخطّط للتّرشّـح لمنصب حاكم ولاية ديلاوير. قال: «إذًا، قل له أن يعود إلى المنزل ويترشّح لمنصب الحاكم». «يجب أن يعيش كما لو أنّه سيعيش».

أردت أن يسـمع جميـع أفـراد العائلة ذلـك، لذلك جمعت الجميع في الرّدهـة الصّغيـرة خـارج غرفـة بو، وأوضح الدّكتور يونغ مرة أخرى أنّه على الرّغم من أنّ هذه المعركة ستكون صعبة، إلا أنّ هناك أملًا. أعتقد أنّه كان ينظر إلى بو عندما قالها، لكنّ الرّسالة كانت موجّهة إلينا جميعًا. يجب ألا ندع هذا المرض يسيطر على وجودنا بالكامل. أخبر بو بالعودة إلى المنزل والعيـش كمـا لـو كان لديه مسـتقبل: «ترشّـح لمنصب الحاكـم. ليكن لديك هدف.

كل يـوم تقريبًـا بعـد ذلـك، وجـدت نفسـي أتصـرّف اسـتنادًا إلى تلك

النّصيحة – أن يكون لديّ هدف. بغضّ النّظر عمّا يقف في وجهي، فقد تمسّكت بإحساسي الخاصّ بالهدف. لقد تمسّكت بالحياة الغالية. إذا فقدت السّيطرة على ذلك وتركت معركة بو تستهلكني، كنت أخشى أن ينهار عالمي كلّه. لم أكن أرغب في خذلان البلد، أو إدارة أوباما، أو عائلتي، أو نفسي، أو الأهمّ من ذلك، بو.

الفصل الثالث

العزاء

ارتأى البيت الأبيض أن أمثل الرئيس في حفل تأبين أحد ضابطيّ الشرطة في نيويورك اللذين قتلا يوم السبت قبل عيد الميلاد 2014. كان الرئيس مع ميشيل وبناته في رحلتهم السنوية لقضاء العطلة في هاواي حيث بدأ، واعتبر الموظفون أنه من غير الحكمة بالنسبة له أن يطير لمدّة أحد عشر ساعة متواصلة للمشاركة في حدثٍ يدور حوله لغطٌ كبير. وافقت على القيام بالتأبين. كنت أعرف أنّ عليّ القيام بذلك، على الرغم من أنّ إلقاء كلمات التأبين يحزّ لديّ دائمًا ذكريات مؤلمة حول خسائري، ويولّد لديّ شعور بالتشاؤم خصوصًا منذ تشخيص مرض بو. لذلك أمضيت الأيام القليلة التي سبقت عيد الميلاد في إعداد الكلمة. كنت أعرف أنّ عليّ تحقيق التوازن المثاليّ لمساعدة مدينة نيويورك على التعافي. كان مقتل الشرطيين رفاييل راموس ووينجيان ليو، بالزيّ العسكريّ في مدينة نيويورك، حدثًا آخر في سلسلة من التداعيات المفاجئة والعنيفة للعلاقة الممزقة بين رجال الشرطة ومجتمع السود. وقد قتل الرجلان على يدّ مسلحٍ بمفرده، بينما كانا يجلسان بهدوء في سيارة الدورية في بروكلين ويقومان بعملهما فحسب. مفوّض شرطة مدينة نيويورك بيل براتون، لدى إعلانه عن مقتل الشرطيين، قال: «لقد اغتيلا بكلّ بساطة بسبب زيّهما العسكريّ». وأضاف «لقد نصب لهما كمين وقتلا». وردت أنباء هذا العمل الأحمق في خضمّ أكثر من أسبوعين

مـن المظاهـرات المتزايـدة ضـدّ وحشـيّة الشّـرطة فـي المدينـة. كانت تلك الاحتجاجـات قـد اندلعـت بسـبب قرار هيئة المحلّفيـن الكبرى بعدم توجيه الاتّهام إلى شرطيّ ضرب حتّى الموت رجلًا أمريكيًا من أصل أفريقيّ، يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا يُدعى إريك غارنر – على الرّغم من أنّ الحادثة بأكملها كانت مسجّلة في فيديو هاتف محمول. حرص رئيس بلديّة نيويورك بيل دي بلاسـيو على عدم انتقاد هيئة المحلّفين الكبرى، لكنّه حرص على التّعبيـر عـن تعاطفـه مـع عائلـة غارنر ومع الأهل القلقين بشـأن أيّ مواجهة لأبنائهم الملوّنين مع رجال الشّرطة. وقد شرح العمدة بالتّفصيل الاحتياطات الخاصّـة التـي كان يصـرّ هـو وزوجته على ابنهما المختلط الأعراق مراعاتها فـي تعاملـه مـع الشّـرطة: افعـل كلّ ما يطلبونه منـك، ولا تتحرّك فجأة، ولا تحاول الوصول إلى هاتفك الخلويّ.

وأوضح العمدة: «كان عليّ أن أقلق على مرّ السـنين، هل دانتي بأمان كلّ ليلـة؟... وليـس فقـط مـن جرّاء الواقع الأليم للجرائم والعنف في بعض أحيائنا، ولكن هل هو في مأمن من الأشـخاص أنفسـهم الّذين نريد [نحن] أن نثـق بهـم كحمـاة لهـم؟». علـى الفـور، اتّهم رئيس أكبر مركز شـرطة في المدينة، باتريك لينش، العمدة بالإساءة إلى الشّرطة».

عندما تلقّى دي بلاسـيو نبأ كمين راموس وليو في بروكلين، هرع إلى المستشـفى لتهدئة أسـرهم وأصدقائهم. أدان العمدة عمليّات القتل بشـدّة، وفعـل ذلـك دون تـردّد، كمـا فعـل الرّئيس أوباما. قـال الرّئيس: «إنّ الضّبّاط الّذيـن يخدمـون ويحمـون مجتمعاتنا المحلّيّة، إنّما يخاطرون بسـلامتهم من أجل سلامتنا كلّ يوم، لذا فإنّهم يستحقّون تقديرنا وامتناننا كلّ يوم. أطلب مـن النّـاس رفـض العنـف والكلام الّذي يؤجّج الفتـن، واللجوء إلى الكلام الّـذي يـداوي الجـراح – الصّـلاة، والحوار المتأنّـي، والتّعاطف مع أصدقاء الضّحايا وعائلاتهم». ولكنّ الأمور كانت قد خرجت فعليًّا عن السّيطرة.

كان عضو الكونغرس عن نيويورك، بيتر كينغ، في حالة ذهول واضح عندما ظهر على شاشة التلفزيون بعد ساعات فقط من إطلاق النار. النائب كينغ موظف عموميّ عاقل ومتفانٍ، لكن بدا أنّ غضبه من جريمة القتل المروّعة قد طغى عليه. قال كينغ لأحد المحاورين إنّ تصريحات الرّئيس والعمدة كانت سطحيّة ومخادعة. قال كينغ: «لقد حان الوقت للمسؤولين المنتخبين للوقوف إلى جانب رجال ونساء إنفاذ القانون، وإنهاء إهانة ضبّاط الشّرطة وهيئة المحلّفين الكبرى»، مشيرًا إلى أنّ الرّئيس والعمدة كانا جزءًا من المشكلة. وكان عمدة نيويورك السّابق رودي جولياني، في السّاعات الأولى بعد إطلاق النّار، قد خرج عن طوره. فهو يعلم من خبرته الطّويلة أنّ عددًا من وسائل الإعلام ستسمح له بالتّحدّث دون اعتراض. فأكّد أنّ الرّئيس أعطى رخصةً للمسلّح، الّذي تبيّن أنّه أعلن عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ عن نيّته مطاردة وقتل ضبّاط الشّرطة للانتقام من غارنر وآخرين ممّن قُتلوا خلال المواجهات الأخيرة مع سلطات حفظ النّظام. قال جولياني في بيانٍ مفعم بالتّعصّب وخاطئ بشكلٍ جليّ: «لقد كانت لدينا أربعة أشهر من البروباغندا، بدءًا من الرّئيس، بأنّ على الجميع أن يكرهوا الشّرطة». حتّى باتريك لينش كان أكثر دراماتيكيّة. حيث قال: «هناك أيادٍ كثيرة ملطّخة بالدّماء اللّيلة». وألقى باللّوم على جميع «أولئك الّذين حرّضوا على العنف في الشّوارع تحت ستار الاحتجاج الّذي حاول تقويض ما يفعله ضبّاط شرطة نيويورك كلّ يوم. إنّ الدّم الملطّخ على أيديهم يبدأ عند درج البلديّة، في مكتب العمدة».

في الأيّام الّتي أعقبت إطلاق النّار، ظلّ جولياني، ولينش، وحفنة غيرهم يخدشون بمخالبهم غير آبهين بالعديد من سكّان نيويورك الكرماء الّذين ساروا ضدّ الموت غير المبرّر لإريك غارنر، لكنّهم حضروا أيضًا لتقديم تعازيهم أمام نصبٍ تذكاريّ مؤقّت على الرّصيف للضّبّاط راموس وليو-

بما في ذلك ابنة غارنر، التّي وصلت لتقديم تعاطفها كشخصٍ يتفهّم حقًا. قال إميرالد سنايبس–غارنر، البالغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، مرتقيًا إلى مستوى المناسبة على النّحو الّذي ينبغي للبلد بأكمله أن يشعر معه بالفخر: «كان عليّ أن أخرج وأعلم أسرهم أنّنا نقف معهم. سأرسل صلاتي وتعازيّ للعائلات جميعها الّتي تعاني من هذه المأساة».

بحلول الوقت الّذي توجّهت فيه إلى نيويورك لحضور جنازة الضّابط راموس يوم السّبت، 27 كانون الأول (ديسمبر)، بدت المدينة وكأنّها على حافّة الهاويّة. كان المئات من سكّان نيويورك قد رفضوا تعليق مظاهراتهم كتعبيرٍ عن احترامهم لرجال الشّرطة الّذين قتلوا. قال أحد منظمّي إحدى المسيرات، تحت لافتة كتب عليها «إرهاب الشّرطة العنصريّ»: «لا نقصد التّقليل من احترام أيّ شخص. ولكنّنا هنا لنقول إنّه أمرٌ سخيف، إنّه شائن، إنّه إهانة لأيّ شخص أن يطلب منّا وقف هذه الاحتجاجات».

في الوقت نفسه، حضر رجال الشّرطة من جميع أنحاء البلاد إلى نيويورك لحضور حفل تأبين رفائيل راموس لاظهار الدّعم لأخيهم الضّابط ورفاقه. تجمّع ما يصل إلى خمسةٍ وعشرين ألفًا من ضبّاط إنفاذ القانون في كوينز لحضور الجنازة، وظلّ بعض السّياسيّين المحليّين يخبرونهم أنّهم في «خطرٍ جسيم» هذه الأيّام وأنّ «ظهورهم مستهدفة». كان النّاس مثل لينش وجولياني لا يزالون يحاولون إقناعهم وكلّ شخصٍ آخر بأنّ عمدة المدينة دي بلاسيو والرّئيس أوباما هما المشكلة.

بدا العمدة دي بلاسيو سعيدًا لأنّني كنت أنا من يمثّل الحكومة؛ فهو يعلم أنّ لديّ علاقة وثيقة مع الشّرطة، ومجتمع الحقوق المدنيّة. وكان قد اتّصل بي بعد أيامٍ قليلة من إطلاق النّار ليطلب بعض المساعدة في التّعامل مع الهوّة المتزايدة من عدم الثّقة بين قوّات إنفاذ القانون ومجتمع السّود. وبقدر ما قد يبدو الموقف مستحيلًا، كنت أعتقد في الحقيقة أنّني أعرف

طريقة لتجاوز الانقسام. لقد عبّرت عن ذلك من قبل، في ولايتي في ديلاوير وكذلك في جميع أنحاء البلاد. كان هناك دائمًا الديماغوجيون عند جانبيّ القضيّة، كان هذا أمرًا لا مفرّ منه، لكنّني كنت أعرف أنّهم لا يمثّلون الغالبيّة العظمى من النّاس. لطالما اعتقدت أنّ المشكلة قابلة للحلّ – لأنّ المشكلة كانت واضحة. هناك مخاوف حقيقيّة ومشروعة لدى الجانبين، وإذا كانت المشكلة هي الخوف، فالجواب هو المعرفة. يتعيّن على كلّ طرف أن يكون مستعدًا لمحاولة فهم هواجس الطّرف الآخر.

لهذا السّبب، بالعودة إلى أواخر الثّمانينات، عندما انفجر معدّل الجريمة، بدأت في السّعي نحو مفهومٍ جديد– ولكنّه في الحقيقة قديم جدًا – للشّرطة. ويتمثّل بإعادة رجال الشّرطة للسّير في الشّوارع لكي يتعرّفوا على أصحاب المتاجر، وأطفال الحيّ، ويتعرّفوا على الحيّ نفسه. ممّا يجعل الحيّ يتعرّف على رجال الشّرطة ويثق بهم. لقد ابتعدنا عن هذا المفهوم – أصبح النّموذج الجديد يتمثّل في شرطيّ يتجوّل وحده في سيّارة شرطة بدلًا من أن يمشي في دوريّة – وكان أفضل علماء الجريمة يدافعون عن الفكرة القديمة بمسمّى جديد: الشّرطة المجتمعيّة.

ولكنّها كانت معركة يصعب الفوز بها في أواخر الثّمانينات وأوائل التّسعينات لأنّ الحزب الجمهوريّ الوطنيّ بدأ بالحديث عن التّحوّل إلى اللّامركزيّة: كلّ ما هو محليّ يُدفع ثمنه من الأموال المحليّة، وليس من الضّرائب الفيدراليّة. وكانت حجّتهم بأنّ الجريمة محلّيّة بشكلٍ فريد. كان عليّ تذكير زملائي بأنّ معظم الجرائم المحلّيّة سببها آفة المخدّرات، وأنّ المخدّرات مسؤوليّة فيدراليّة. استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنّني حصلت أخيرًا على تمويلٍ حقيقيّ مدوّنٍ ضمن مشروع قانون الجرائم الّذي قمت بتأليفه في العام 1994 والّذي قدّم مائة ألف شرطيّ محليّ إضافيّ. وقد نجح الأمر.

انخفضت جرائم العنف بشكل كبير، من حوالي مليوني حادثة في العام 1994 إلى 1.4 مليون في العام 2000. وانخفض معدّل القتل على الصّعيد الوطنيّ إلى النّصف تقريبًا. تحسّنت العلاقة بين الشّرطة ومجتمع السّود كثيرًا، رغم أنّها كانت بعيدة عن الكمال. لكنّ الشّرطة المجتمعيّة أصبحت ضحيّة لنجاحها. مع انخفاض الجريمة، انخفض أيضًا الضّغط الشعبيّ للتّركيز على حفظ الأمن. أشارت بيانات استطلاعات الرّأي إلى أنّ الجريمة قد تراجعت إلى أسفل القائمة من كونها المشكلة الأولى الّتي أراد الأمريكيّون من حكومتهم إصلاحها. وهذا يعني أنّه عندما وصلت إدارة بوش إلى السّلطة وجدّدت الدّعوة الإيديولوجيّة لتفويض السّلطات، لم يعد هناك الكثير من الصدّ لحجّتهم بأنّ الجريمة هي مسألة محليّة بحتة، فلماذا تنفق الأموال الفيدراليّة على الشّرطة المحليّة عندما يكون بوسعك خفض الضّرائب على الأثرياء بدلًا من ذلك؟

في تلك السّنوات، كنت أشعر أحيانًا وكأنّني أنادي لوحدي، فأحذّر النّاس باستمرار من أنّ جعل المجتمعات آمنة يشبه جزّ العشب. تجزّ العشب لديك في عطلة نهاية أسبوع جميلة في الصّيف فيبدو رائعًا. تتركه ينمو لمدّة أسبوع، فيصبح خشنًا بعض الشّيء. تتركه لمدّة شهر، فيبدو سيّئًا. تتركه لفصل الصّيف، فأنت أمام كارثة.

وهذا بالضّبط ما حصل. كانت أعداد رجال الشّرطة تتناقص على الأرض، مع النّتيجة المتوقّعة للعلاقات المتوتّرة بشكلٍ متزايد بين الشّرطة ومجتمع السود. لم يعد رجال الشّرطة يخرجون من سيّاراتهم لمقابلة النّاس بالقدر نفسه. كانوا يتجوّلون أكثر فأكثر بمفردهم، خائفين بشكلٍ مفهوم في الأحياء الأكثر عنفًا، وأحيانًا في فائض من المعدّات العسكريّة وشبه العسكريّة الّتي تجعلهم يظهرون بمظهر الغزاة بدلًا من الحماة. كانت اللّقطات الدراميّة لمصرع الشّخصيّات البارزة تظهر باستمرار في أخبار التّلفزيون وتنتشر كالنّار

في الهشيم عبر وسائل التّواصل الاجتماعيّ. وفي حين احتلّت أخبار إيريك غارنر المروّعة في نيويورك، ومايكل براون في فيرجسون، وتامير رايس ذي الإثنيّ عشر عامًا في كليفلاند، واحتلّ الضّابطان راموس وليو العناوين الرّئيسة، أصبح من الصّعب على أيّ من الجانبين الاعتراف بإنسانيّة الآخر الأساسيّة.

كان الشّرطيّ المحليّ في سيّارة الدوريّة ينظر إلى الصّبيّ البالغ من العمر خمسة عشر عامًا الّذي يرتدي الهودي (الكنزة ذات القبّعة) في زاوية الشّارع بصفته مجرمًا قيد التّدريب، بدلًا من أن ينظر إليه بصفته كاتبًا طموحًا قد يكون في يومٍ من الأيّام شاعرًا حائزًا على جائزة، وأنّه يستحقّ الحصول على فرصة. رأى النّاس في الحيّ أنّ الشّرطيّة في سيّارتها تمثّل تهديدًا، بدلاً من أن تكون أمًا تدرّب كرة السّلّة، وتدرّس أحد فصول مدرسة الأحد، وتريد أكثر من أيّ شيء آخر في العالم أن تعود إلى المنزل بأمان، لتحضن أطفالها الثّلاثة، ولها كلّ الحقّ في القيام بذلك.

ارتأيت أنّ الوقت قد حان للعودة إلى السّياسة المثبتة المتمثّلة في الاستثمار في المزيد من الرّجال والنّساء الأفضل تدريبًا على الأرض. أخبرت العمدة دي بلاسيو قبل أيام قليلة من جنازة راموس بأنّني سأرسل له إحصائيّات عن الشّرطة المجتمعيّة وأجلس معه بعد رأس السّنة، بعد أن تهدأ العاصفة الأخيرة، إذا كان يرغب في الحديث عنها.

كان الرّئيس أوباما يعمل جاهدًا لإيجاد سبل لتحسين العلاقات بين الشّرطة وجميع المجتمعات المحليّة الّتي تخدمها، وقد طوّر مقترحات محدّدة جدًّا في السّياسة العامّة. لكن كان هناك الكثير من الأشخاص الّذين استثمروا في تسجيل نقاط سياسيّة بدلاً من حلّ المشكلة، كما أنّ الهجمات على الرّئيس من قبل أشخاص مثل لينش وجولياني جعلت من المستحيل تقريبًا حصوله على جلسة استماع عادلة.

لديّ من الخبرة ما يكفي لأعرف أنّ وضع سياسة جيّدة ضروريّ دائمًا ولكنّه نادرًا ما يكون كافيًا. لقد عملت طويلًا وبجهدٍ شاقّ على مرّ السنين لبناء علاقات شخصيّة واكتساب ثقة كلا الجانبين، حتّى أتمكّن من التّفكير مع كلّ من الشّرطة والمجتمع المحليّ في أكثر الظّروف اشتعالًا. لطالما حاولت أن أفهم وجهة نظر الجميع. قال لي وزير التّعليم لدينا، آرني دنكان، بعد إطلاق النّار مباشرةً في نيويورك: «أنت الوحيد الّذي يمكنه القيام بذلك يا جو. أنت تحظى باحترام كلا المجتمعين». ربّما منحني آرني رصيدًا أكثر ممّا أستحقّ، ولكنّ تشجيعه كان بمثابة تذكير بما جذبني إلى الخدمة العامّة ولماذا بقيت فيها لفترة طويلة. لقد توصّلت إلى الاعتقاد بأنّ الواجب الأوّل للموظّف في الشّأن العامّ هو المساعدة في الجمع بين النّاس، لا سيّما وقت الأزمات، وخصوصًا في ظلّ الانقسامات الصّعبة، وعليه إظهار الاحترام لجميع الأطراف على طاولة المفاوضات، والمساعدة في إيجاد طريقٍ آمن للمضيّ قدمًا. بعد خمسة وأربعين عامًا في المنصب، ما زالت تلك القناعة الأساسيّة تمنحني هدفًا.

كنت أقوم بالتّعديلات والتّدوينات في اللّحظة الأخيرة على كلمتي المعدّة، أثناء التّحليق أنا وجيل بالطّائرة الرّئاسيّة الثّانية من واشنطن إلى نيويورك، في صباح الشّتاء المتلألئ. كنت دائمًا أؤمن بأنّ الجنازات هي للأحياء، ووظيفة التّأبين تتمثّل في الاعتراف بفداحة الخسارة التّي عانوا منها للتوّ، ومساعدتهم على إدراك أنّ إرث أحبائهم وإنجازاتهم لم تمت معهم. كما أحاول جاهدًا أن أؤكّد لهم أنّهم ليسوا وحدهم. كان عليّ أن أفعل ذلك من أجل عائلة راموس أولًا، ولكن أيضًا من أجل العائلة الأكبر للشّرطة الّتي ستشاهد مراسم تأبين الضّابط راموس. كانت الشّرطة في المدينة وفي جميع أنحاء البلاد غاضبة وحزينة. كان بعض رجال الشّرطة يتألّمون حقًّا نظرًا

لأنّ الكثير من النّاس بدا أنّهم قد انقلبوا عليهم. كانوا بحاجة إلى تذكيرهم بأنّ خدمتهم جديرة بفخرنا واحترامنا. إنّ كون المرء شرطيًا ليس مجرّد عمل يقوم به هؤلاء الرّجال والنّساء، كما أردّد دائمًا، إنّه يمثّل طبيعتهم. يمكنني معرفة أيّ واحدٍ من زملائي سيصبح شرطيًّا وأنا لا أزال في المدرسة الابتدائيّة. إنّهم الأشخاص الّذين يدافعون عنك عندما يُعتدى عليك في الحيّ. يتدخّلون عندما تتعرّض للتّنمّر. يريدون حماية الآخرين.

أجريت قلمي على طول الكلمات على الورقة، أدوّن ملاحظات صغيرة حول مكان الوقف والكلمات الّتي يجب التّشديد عليها: «بحسب خبرتي، وأنا متأكّد من أنّ هذا ينطبق على كلّ رجل وامرأة يرتدون الزّيّ العسكريّ ويسمعونني الآن، ينضمّ كلّ شرطيّ إلى المؤسّسة العسكريّة للسّبب الأساس نفسه: إنّه إحساسكم بالواجب. اعتقادكم أنّ بامكانكم المساعدة. هذا هو العنصر الوحيد، برأيي، الّذي يسري عبر جميع أجهزة إنفاذ القانون الأمريكيّة. عندما تقع مثل هذه الأحداث، فإنّ الأمّة لا تنسى أبدًا شجاعتكم». كنت أقرأ الخطاب للمرّة الأخيرة عندما اقتربنا من كنيسة المسيح تابرناكل في كوينز حوالي السّاعة التّاسعة والنّصف من صباح يوم السّبت. بدت الكنيسة وكأنّها واجهة لمتجر سابق، وكانت صغيرة جدًا لاستيعاب الحشود الهائلة المنتظرة في الخارج. وقف أكثر من عشرين ألف رجلٍ وامرأة، جميعهم تقريبًا يرتدون الزّيّ العسكريّ، بهدوء في الشّوارع المحيطة ومواقف السّيّارات استعدادًا لمشاهدة البثّ الفضائي للقدّاس على الشّاشة الكبيرة المرفوعة في الأعلى.

خرجت من السّيارة إلى طقسٍ شتويّ منعش، وكان بإمكاني أن أشعر بالتّوتّر في الأجواء. كانت درجة الحرارة ترتفع نحو الأربعين درجة [فارنهايت]، ومع ذلك كان الجوّ باردًا، وكانت السّماء زرقاء بلّوريّة حادّة بدت وكأنّها قد تتشقّق إلى ألف قطعة. قام مرافقونا بدفعنا أنا وجيل داخل الكنيسة، وقادونا إلى مقاعدنا في الصّفّ الأماميّ، بينما كانت عيناي تعتاد

الدّاخل المظلم للكنيسة الإنجيليّة. كانت الكنيسة بمثابة البيت الرّوحيّ لرافائيل راموس ومرشده؛ كان على بعد ساعاتٍ فقط من التّخرّج من برنامج القسّيسين المتطوّعين عندما قُتل. عندما جلست، كانت ركبتيّ تلامسان نعش الضّابط راموس، الّذي وضع على محملٍ قبالة المسرح. وكان المتحدّثون الرّئيسون الآخرون جالسين في مقاعدهم؛ كان العمدة هناك، مع مفوّض الشّرطة براتون والحاكم أندرو كومو. شعرت بألمٍ خفيفٍ عندما رأيت المحافظ. ذكّرني بـ بو، الّذي كان في الأيّام الأخيرة من ولايته رئيسًا لضبّاط إنفاذ القانون في ديلاوير. عمل بو على قضايا الجريمة كلّ يوم، وعمل جاهدًا أيضًا على تحسين العلاقات بين الشّرطة والمجتمع المحليّ لتجنّب مثل هذه المآسي المميتة. أراد كثيرًا أن يسافر معي، لتقديم تعازيه، لكنّ إعاقته الجسديّة بدأت بالفعل تشكّل عبئًا عليه. قال: «سأنتظر حتّى أتحسّن يا أبي».

استُدعيت إلى المنصّة للتّحدّث أولًا، وعندما صعدتها جلس الجمهور في صمتٍ مترقّب. بتعبيرٍ بسيطٍ ومباشر، توجّهت في البداية إلى عائلة راموس بالتّعازي باسم عائلتي، وصدمني فجأة مشهد ابنيِ الضّحيّة المراهقين الجالسين أمامي. كانا أصغر من أن يفقدا أحد والديهما. وجدت نفسي غير قادرٍ على إشاحة نظري عن الولدين. كان الأمر كما لو كنت أشاهد بو وهانت صغيرين جالسين على تلك الكراسي، وهما يحدّقان في وجهي، وقد ذكّرني ذلك بالدّمار الّذي واجهاه بفقدان أمّهم وما تعنيه نجاتهما بالنّسبة لي. وذكّرني أيضًا أنّه مهما كانت المخاطر السّياسيّة والعامّة كبيرة، كانت مهمّتي هنا في نيويورك، في جوهرها، مهمّة شخصيّة. إذا سمحت بخسارة راموس أن تطمسها سياسات اليوم، فسأفشل. بعد أن قمت بإخراج كلمتي المُعدّة بعناية، قلت: «يا لهما من شابّين وسيمين. أتذكّر مناسبة مماثلة منذ زمنٍ طويل».

قلت لمريتزا راموس: «أيّتها الأم، أؤكّد لك، إنّ هذين الصّبيّين سوف

يتجاوزان كلّ هذه المحنة. أنا متأكّد من أنّني أتحدّث باسم الأمّة بأسرها عندما أقول لك إنّ قلوبنا تتألّم من أجلك. أعلم من تجربة شخصيّة أنّ هناك القليل الّذي يمكن لأيّ شخص أن يقوله أو يفعله في هذه اللّحظة لتخفيف الألم، هذا الإحساس بالخسارة، هذا الشّعور بالوحدة. لكنني آمل أن تجدي بعض العزاء في حقيقة أنّ هناك، كما ذكرت الصّحافة، أكثر من خمسة وعشرين ألفَ عضوٍ في الأخويّة نفسها، نساء ورجال مثل زوجك، يقفون وسوف يقفون معك، طوال حياتك. لا شكّ في ذلك. إنها أخويّة استثنائيّة».

استغرق الكاتب الّذي ساعدني في هذا الخطاب، وهو ابن محقّق شرطة متقاعد في مدينة نيويورك، وقتًا لفهم حياة رافائيل وما كان أبناؤه يعنون له. قلت لهما: «جاستن وجايدن، لقد كان فخورًا جدًا بكما، وأعلم أنّه على الرغم من صعوبة تصديق ذلك، فإنّه سيكون جزءًا من حياتكما، وطوال حياتكما». ثم وجدت نفسي أتوجّه إلى الأرملة الشابّة وأقدّم ضمانًا كنت قدّمته لعددٍ لا يحصى من النّاجين على مرّ السنين. «أنا أعلم أيضًا من التّجربة أنّ الوقت سيأتي، وسوف يأتي، عندما ترسم ذكرى رافائيل ابتسامة على شفتيك قبل أن تستحضر الدّموع إلى عينيك. عندها ستعلمين – أنّ الأمور ستكون على ما يرام. أعلم أنّه من الصّعب تصديق أنّ ذلك سيحصل، لكنّني أعدك، أعدك أنّ ذلك سوف يحصل. ودعائي لك هو أن يحصل ذلك عاجلًا وليس آجلًا».

بحلول ذلك الوقت كنت قد خرجت عن النّصّ، لكنّني كنت متأكّدًا ممّا قصدت قوله: «لقد تحدّثت في عددٍ كبيرٍ جدًا من المآتم لعددٍ كبيرٍ جدًا من ضبّاط حفظ السّلام، العديد من المآتم لنساءٍ ورجالٍ شجعان يحافظون على أمننا. ورأيت عائلاتهم تتألّم حزنًا. وللأسف، فإنّ جميع أصدقائهم وجيرانهم وحتّى الأشخاص الّذين لم يعرفوهم، لا يدركون ولا يجري تذكيرهم بالتّضحيات التّي يقدّمونها بشكلٍ يوميّ لجعل حياتنا أفضل، إلّا

عندما تحدث مأساة كهذه... إنّ ضبّاط الشّرطة وعائلاتهم يمثّلون صنفًا مختلفًا من البشر. نحمد الله على ذلك. نحمد لله على ذلك.

كان زوجك، سيّدة راموس، وشريكه، جزءًا من أرقى الأشخاص في نيويورك. وهذه ليست عبارة فارغة. فهذا على الأرجح أرقى قسم شرطة في العالم. أرقى قسم شرطة في العالم. لقد استحقّا هذه العبارة...

عندما تقوم بدوريّات في شوارع نيويورك فكأنّك تلفّ العالم. هناك مباني الطوابق الثّلاثة، والأبراج السّكنيّة، والعبير الّذي يفوح من ملايين الأطباق التّي تحافظ على آلاف التّقاليد. شوارع يلفّها الصّمت وشوارع تضجّ بمائة لغة – همس. صراخ. ضحك. بكاء. في كلّ حيّ من هذه الأحياء الأكثر حيويّة من جميع المدن – هذه الفوضى الخلّاقة الّتي تقف كمنارةٍ للعالم.

لم تستهدف رصاصة القاتل ضابطيْن فقط، ولم تقتصر على الزّيّ العسكريّ. لقد استهدفت هذه المدينة. مدينة يشارك في الدّوريّة فيها ابن مهاجرين صينيّين مع قسّيسٍ متدرّب من أصلٍ إسبانيّ».

وذكّرت جميع المستمعين بأنّ هذه المدن الأمريكيّة الأكبر والأكثر تنوّعًا قد ساعدت في رعاية طالب جامعيّ شاب اسمه باراك أوباما. لقد تعلّم صديقي الرّئيس شيئًا هنا في نيويورك ظلّ يمثّل حجر الزّاوية في حياته المهنيّة في الخدمة الحكوميّة: «ليس هناك أمريكا سوداء وأمريكا بيضاء وأمريكا لاتينيّة وأمريكا آسيويّة»، كما قال في الخطاب الّذي قدّم فيه نفسه للأمّة قبل عشر سنوات. «هناك الولايات المتحدّة الأمريكيّة».

كان الصّباح أكثر إشراقًا عندما قادونا أنا وجيل من كنيسة المسيح تابرناكل وعبر الشّارع لانتظار انتقال نعش رافائيل راموس عبر الجادّة المزدحمة، وإلى داخل عربة الموتى. كانت الشّمس تلمع من أعلى سيّارة الموكب الأولى، ولكنّ النّهار نفسه بدا ألطف. وجدت نفسي أقف بين

مجموعة من الشّخصيّات المرموقة من بينهم النّائب كينغ، وإلى كتفي الأيمن رودي جولياني. لم يستطع جولياني مقاومة توجيه ضربة خلفيّة للرّئيس. قال لي: «على الأقل، هناك شخصٌ ما في الحكومة يفهم الأمر».

أمسكت لساني، وكان كلّ ما قلته: «الرّئيس يفهم الأمر»، ولكن يبدو أنّه لم يسمع ذلك.

عزفت المزامير. حلّقت مجموعة من مروحيّات شرطة نيويورك في تشكيلات. وسار حرس الشّرف بالنّعش المغطّى بالعلم باتّجاه الباب الخلفيّ المفتوح لعربة الموتى. استطعت أن أرى جايدن وجوستين في الجانب الآخر من الشّارع، بدلتاهما الدّاكنتان زُرّرتا ضدّ البرد، حواجبهم معقودة، ويمسكان بيديّ والدتهما. كلّ ما استطاع بقيّتنا فعله هو الوقوف في صمت وأيدينا على قلوبنا. عندما جرى تحميل النّعش أخيرًا وجرى تقديم العلم للعائلة، توجّه موكب الجنازة نحو المقبرة. بعد أن انعطف خارج الشّارع، بدأت أسمع أصواتًا من بين حشود رجال الشّرطة المصطفّين في الشّارع: «جو! أهلا جو!» لم يصرخ أحد، «السّيّد. نائب الرّئيس!» بل «جو!» «أهلا جو!» وكأنّهم يعرفونني. بدأ رجال ونساء يرتدون الزّيّ العسكريّ يتوافدون لمصافحتي، وشعرت في بعض الأحيان أنّهم يسحبونني حيث كان الدّرّاجون من رجال شرطة يحاولون الوصول من الأسفل ليلمسوا يدي. انتهى الجزء الأوّل من اليوم، ولكن ليس الجزء الأصعب.

كان لدينا أنا وجيل محطّة أخرى قبل مغادرتنا نيويورك – محطّة أصررت أنا عليها، بالرّغم من معرفتي المسبقة أنّها لن تكون سهلة أبدًا. كان أمامنا 45 دقيقة بالسّيّارة إلى منطقة غرايفساند في بروكلين، لزيارة عائلة وانجيان ليو، ضابط الشّرطة الآخر الذي قتل. كان يبلغ من العمر اثنين وثلاثين عامًا فقط، وهو متزوّج حديثًا اشترى منزلًا كبيرًا بما يكفي ليعيش والديه معه ومع عروسه الجديدة. تأجّلت جنازة ليو لأنّ العديد من أقاربه في الصّين

ما زالوا يحاولون الحصول على وثائق سفر مناسبة للقدوم إلى نيويورك، وكنت أعلم أنّني لن أتمكّن من العودة لهذا القدّاس. كنت أرغب في تقديم واجب العزاء، على الأقل، ولكن بينما كان موكبنا يتخطّى خليج جامايكا، وشاطئ برايتون، وجزيرة كوني، كنت متأكّدًا من أنّ هناك الكثير ممّا يمكنني تقديمه لعائلة ليو.

اكتشفت على مرّ السّنين، أنّ وجودي يجلب دائمًا بعض العزاء للأشخاص الّذين يعانون من خسارة مفاجئة وغير متوقّعة، بالرّغم من أنّه يعيد لي ذكرياتي الحيّة من الأوقات الحزينة. ليس لأنّني أمتلك أيّ سلطة خاصّة، ولكن لأنّ قصّتي تسبقني: لقد كنت عضوًا في مجلس الشّيوخ الأمريكي المنتخب حديثًا وعمري ثلاثون عامًا، متحمّسًا لوجودي في واشنطن لإجراء مقابلات مع الموظّفين، عندما تلقّيت مكالمة هاتفيّة بأنّ زوجتي وابنتي البالغة من العمر ثمانية عشر شهرًا – توفّيتا في حادث سيارة أثناء خروجهما للتّسوّق قبل أسبوع من عيد الميلاد.

كان بو وهانت في السّيّارة أيضًا. لقد نجوا من دون أذىً دائم، ولكن ليس قبل قضاء أسابيع في المستشفى. بدا الألم لا يطاق في البداية، واستغرق الأمر وقتًا طويلًا للشّفاء، لكنّني نجوت من المحنة القاسية. لقد نجحت في ذلك، بدعمٍ كبير، وأعدت بناء حياتي وعائلتي. عندما أتحدّث إلى أشخاصٍ في حالة حداد، فإنّهم يعرفون أنّني أتحدّث من واقع تجربتي. يعرفون أنّني أشعر بعمق ألمهم.

إحدى الأشياء الّتي تأقلمت معها بشكل خاصّ على مرّ السّنين هي كم من الأشخاص يعانون بهدوء وبدون شكوى من الألم النّفسيّ والعاطفيّ في كلّ الأوقات؟ تأمّل هذه الحقيقة البسيطة: بينما كنت أقود مسرعًا على طول الطّريق السّريع في أقصى حدود أمريكا في الأيام القليلة الماضية من العام 2014، لقي أكثر من مليونين ونصف المليون من مواطنينا حتفهم في تلك

السّنة الواحدة. توفّي خمس هؤلاء الأشخاص بسبب السّرطان، ممّا يعني أنّهم عانوا على الأرجح من موتٍ طويلٍ ومروّع ومؤلم بينما كانت عائلاتهم تشعر بالعجز وهي تراهم. يبلغ عدد الأشخاص الّذين لقوا حتفهم، في أيّ شكل من أشكال الحوادث، ضعف حجم سكّان مسقط رأسي ويلمنجتون. هنا وبصحّة جيّدة اليوم؛ ذهب إلى الأبد في اليوم التّالي. انتحر ما يقرب من ثلاثة وأربعين ألفًا من البالغين والمراهقين في العام 2014. وبلغ عدد الوفيّات المرتبطة بالكحول أكثر من ثلاثين ألفًا؛ وعدد الوفيّات المرتبطة بالمخدّرات ما يقرب من خمسين ألف حالة وهي في ارتفاعٍ كلّ عام. كانت غالبيّة الوفيّات النّاتجة عن المخدّرات لرجال ونساء تقلّ أعمارهم عن الأربعين. بلغ عدد الوفيّات بالأسلحة النّاريّة ما يقرب من أربعة وثلاثين ألفًا في العام 2014، وكان ثلثاها حالات انتحار أو حوادث. كما هو الحال في معظم السّنوات، مات ما يقرب من 1 في المائة من مواطنينا. تحكي الإحصائيّات البسيطة القليل جدًا عن قصّة الإنسان الحقيقيّة والمعقّدة. ليست هذه مجرّد أرقام. كان هؤلاء أشخاصًا مثل رافائيل راموس، الّذي أحدث موته فجوة كبيرة في حياة الأسرة الّتي رأيتها للتوّ، والّذي لن تتاح له الفرصة أبدًا لاستخدام كهانته الجديدة لجعل حياة المئات، إن لم يكن الآلاف، أفضل قليلًا.

تأمّل كيف أنّ كلّ شخص مات تقريبًا خلّف وراءه شخصًا أو شخصين على الأقلّ مصابين بجروح بالغة وعميقة من جرّاء الخسارة؛ ترك بعضهم عشرات المفجوعين، وترك آخرون عددًا أقلّ. يذهلني كمّ من النّاس يتحمّلون ويعيشون مع خسارة مدمّرة في غياب أيّ دعم يشبه الدّعم الّذي تلقّيته، ويستيقظون كلّ يوم، ويجرّون أقدامهم الواحدة تلو الأخرى، ويستمرّون بكلّ بساطة. يتابعون أداء وظائفهم، وإدارة مهامّهم اليوميّة، وتربية أطفالهم بمفردهم – وغالبًا دون شكوى. يوجد جيش من هؤلاء الجنود.

حسب تقديري، في أيّ لحظة، يعاني واحد من كل عشرة أشخاص في بلدنا من درجة خطيرة من العذاب بسبب خسارة حديثة، وأنا لا أستشهد بإحصائيات مرّة أخرى فحسب. أراهم على امتداد الحاجز الشّريطيّ في أيّ حدث سياسيّ أشارك به، واقفين هناك، وشيئًا داخل أعينهم يكاد يتوسّل. من فضلك، من فضلك، ساعدني. دائمًا ما يكون من العمليّ أكثر تجاوزهم، لتجنّب أيّ تورّط شخصيّ دخيل، وللمحافظة على الجدول الزّمنيّ. ولكنّنا نقضي جميعًا وقتًا طويلًا في التنقّل، ونتسابق لمواكبة متطلّبات الحياة العصريّة والطّموح الشخصيّ، لذلك أحاول أن أكون مدركًا، في جميع الأوقات، لما يمكن أن تحدثه لفتة إنسانيّة صغيرة للأشخاص المحتاجين. كم يكلّف حقًا قضاء لحظة للنّظر في عينيّ شخص ما، ومعانقته، وإخباره أو إخبارها، أنّني أفهمك. أنت لست وحدك؟

كان هناك تسعة ضبّاط يرتدون زيًّا عسكريًّا واقفين خارج منزل ليو عندما وصلنا. استدعت شرطة نيويورك أيضًا مترجمًا لأنّ والديّ ليو، على الرّغم من أنّهما أتيا من الصّين قبل عشرين عامًا، لكنّهما لم يشعرا بالرّاحة عند التّحدّث باللّغة الإنجليزيّة، ويفضّلان التّحدّث بلغتهم الأمّ الكانتونيّة. لقد اعتمدا على ابنهما. كان وانجيان في الثّانية عشرة من عمره عندما وصلت العائلة، لذلك كان قد تعلّم جيّدًا اللّغة الإنجليزيّة والثّقافة الأمريكيّة. نشأ طفلًا وحيدًا يساعد والديه على التّأقلم مع عالمهما الجديد، وكان لا يزال يفعل ذلك حين وفاته. حتى أنّه أحضر والديه في شهر العسل قبل ثلاثة أشهر.

كان ليو الأصغر يمثّل قصّة نجاح مهاجر. أول تذكار اشتراه في نيويورك كان ملصقًا لتمثال الحريّة. التحق بالجامعة ودرس المحاسبة، ولكن بعد الهجوم على مركز التّجارة العالميّ في 11 سبتمبر 2001، صمّم على أن يصبح ضابطًا في الشّرطة. كان عريسًا وقت وفاته، ويمتلك منزلًا، وكان متمرّسًا في قسم الشّرطة بعد أن أمضى سبع سنوات، يقوم بأكثر وظيفة

يرغب في القيام بها. لكنّ الأمر لم يتعلّق فقط بما أنجزه، ولكن بما يتطلّع إلى القيام به. كان وانجيان ليو هو مستقبل تلك العائلة، وكان هو وعروسه يتحدّثان بالفعل عن إنجاب الأطفال. حيث سينشأ أبناؤه وبناته على أرضٍ صلبة، مع أبٍ يمكنه مساعدتهم على الإبحار نحو ما يريدونه في الحياة، وكان بإمكاني أن أستشعر هذا المستقبل الضّائع وأنا أصعد الدّرجات الخارجيّة الصّغيرة المؤدّية إلى منزله.

جلس حوالي عشرون فردًا من أفراد عائلته الممتدّة في المطبخ، حتّى يتسنّى لزوجته ووالديه استقبالنا أنا وجيل بشكلٍ مريح في غرفة المعيشة. عانقني والد ليو عندما دخلنا ولمس وجهي. لقد كان رجلًا نحيلًا صغير الحجم يحاول جاهدًا أن يكون شجاعًا. قال مرارًا وتكرارًا: «شكرًا لك»، بينما بقيت زوجته على مسافة منّا وكانت تنحني بأدب. قال وي تانغ ليو، «شكرًا لك»، وظلّ قريبًا. «شكرًا جزيلًا. شكرًا جزيلًا».

كانت زوجة الضابط ليو، باي شيا تشين، صغيرة وجميلة للغاية. ينادونها «ساني». لم تكن اللغة الإنجليزيّة هي لغتها الأمّ، لكنها كانت تتحدّث بطلاقة، لذا تحدّثت نيابةً عن العائلة. رحّبت بنا ترحيبًا هادئًا ومتعثّرًا. يمكنني أن أجزم بأنّها لم تكن فقط في حالة ذهول من وفاة الرّجل الّذي وصفته بحبّ حياتها، وصديقها المفضّل، وبطلها، ولكن أيضًا هي خائفة بعض الشّيء من وجود نائب رئيس الولايات المتّحدة وزوجته في منزلها. ولكن لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا قبل أن تسترخي، وسرعان ما أخبرتنا أنّ لديها شيئًا تودّ أن تريه لنا في غرفة النّوم الّتي شاركتها مع زوجها. كانت جيل تخجل دائمًا من اقتحام المساحات الشّخصيّة للأشخاص، لكنّ ساني أصرّت. أخذتنا من يدنا ودخلنا نحن الثّلاثة غرفة النّوم.

ما أرادتنا ساني أن نراه هو صورة لهما في الخارج وهما يتعانقان في يوم زفافهما قبل ثلاثة أشهر. لقد أدهشني حجم الصورة، ومدى سعادتهما،

ومدى فخرهما بتعليقها في مكانٍ مكشوف، وكم بدت حزينة الآن وهي تنظر إليها. كنت في هذا الوضع، تمامًا حيث كانت. يمكنني أن أتذكّر بوضوح، بعد وفاة زوجتي نيليا، عدم قدرتي على فتح باب خزانة غرفة نومنا. استطعت أن أتذكّر معاناتي عند شمّ رائحتها على الوسائد والنّظر إلى البقعة الفارغة في مغسلة الحمام حيث كانت فرشاة أسنانها. لم أتمكّن من البقاء في غرفة النّوم تلك؛ بعت منزلي وغادرت. ووجدت نفسي أتساءل كيف ستتعامل ساني مع الأمر، وأسفت لأنّ عليها ذلك.

سحبتُها جانبًا لتقديم بعض النّصائح حول ما كانت تواجهه. شاركتها بعضًا من أفضل النّصائح الّتي تلقّيتها بعد وفاة نيليا، من أكثر المصادر غير المتوقّعة. كان هناك حاكم سابق لنيو جيرسي اتّصل بي فجأة ليخبرني حول فقدان زوجته. لمدّة طويلة جدًا كان يعتقد أنّ الأمور لن تتحسّن أبدًا. بعد ستّة أشهر من وفاة زوجته، كان يفكّر فيها ويشعر بالأسى كما في اليوم الأوّل لتلقّي الخبر. كان خائفًا من أنّه لن يتحسّن أبدًا، وكان يعلم أنّني على الأرجح أشعر بالمثل. أشار إليّ أن أحصل على روزنامة، وكلّ ليلة، قبل أن أنام، أن أضع رقمًا في تاريخ ذلك اليوم. قال إنّ رقم واحد يعني سيّء مثل اليوم الّذي تلقّيت فيه الخبر، ورقم عشرة يعني أفضل يوم في حياتك. قال لي ألّا أتوقّع أيّ عشرات، وقال لا تقضي أيّ وقت في النّظر إلى هذا التّقويم، ولكن ضع رقمًا عليه كل يوم. بعد حوالي ستّة أشهر، ارسمه على ورقة الرّسم البيانيّ. ما وعدني به تبيّن أنّه صحيح: كانت الأيام السّيئة لا تزال بالسّوء نفسه، لكنّها تباعدت مع مرور الوقت.

أخبرت ساني أيضًا بمزيد من التّفصيل ما أحاول إخبار الجميع به: سيأتي وقت تمرّين فيه بجانب حقل أحبّه كلاكما، أو ترين زهرة، أو تشمّين رائحة بدلته عندما كان يخلعها ويعلّقها في الخزانة، أو تسمعين أغنية، أو تنظرين إلى الطّريقة الّتي يمشي بها أحدهم، وستعود الذّكريات جميعها.

ولكـن يومًـا مـا، يعلـم الله متـى، سـتدركين أنّ ذلـك لا يدعـوك للبـكاء. بل يدعوك للتّبسّم. أودّ أن أقول لكلّ شخص في هذا الموقف، «سيأتي الوقت الّذي ترسم فيه الذّكرى ابتسامة على شفتيك، قبل أن تستحضر الدّموع إلى عينيك». وأكّدت لها أنّ ذلك سيحدث. وعندها ستعلمين أنّك قد تخطّيت المحنة.

آخـر شـيء فعلتـه قبـل مغادرتنـا غرفـة النّوم هـو إعطاؤها رقـم هاتفي الخـاصّ. وقلـت لهـا: «الآن، كمـا تعلمين، سـيكون الجميع هنا من أجلك. سـيحيطك كلّ شـخص بالحبّ وسيشـغلك ذلك ويبعد تفكيرك عن الأسوأ. وبعد ذلك، في غضون ستّة أسابيع، أو ربما اثني عشر أسبوعًا، ستبدأ حياة أيّ شخص آخر في العودة إلى طبيعتها. لكنّ حياتك لن تعود إلى طبيعتها مـرّة أخـرى. فـي الحقيقـة، ربما أصبحت الآن تدركيـن ذلك على الأرجح، سـيزداد الأمـر صعوبـة عليـك. وبعـد فترة من الوقت سـيتولّد لديك شـعور بالذّنب لأنّك سـتلجئين إلى الأشـخاص أنفسـهم باسـتمرار للحصول على المساعدة، أو لمجرّد التّحدّث. ومع عودة حياتهم إلى طبيعتها، سيبدأ قلقك بشـأن الاعتمـاد عليهـم كثيـرًا. قـد يأتي وقت تقولين فيه لنفسـك، أنا أطلب منهم الكثير. يجب أن أتوقّف عن الشّكوى». قلت: «لذلك عندما تشـعرين بالإحباط وتحسّين بالذّنب لإثقال كاهل عائلتك وأصدقائك، ارفعي السمّاعة واتّصلي بي». لديّ شعور بأنّها لم تصدّق تمامًا أنّني كنت صادقًا كليًّا. ولكنّني كنـت كذلـك. لـديّ قائمـة طويلـة من الغربـاء الّذين لديهـم رقمي الخاصّ، ولديهـم دعـوة للاتّصـال، والعديـد منهـم يفعل ذلك. قلت لهـا: «اتّصلي بي عندما تريدين التّحدّث فحسـب. أحيانًا يكون من الأسـهل أن تفتحي قلبك لشخصٍ لا تعرفينه جيّدًا، لكنّك تعلمين أنّهم يعرفون معاناتك. أنت تعلمين أنهم مرّوا بها. فقط ارفعي السمّاعة واتّصلي بي».

كنّا في المنزل الصّغير في غرافساند لمدة ساعة تقريبًا، وقرب نهاية الزّيارة بدأت ألاحظ أنّ والد وانجيان ليو نادرًا ما ترك جانبي. من حين لآخر كان يميل نحوي حتّى يلامس كتفه ذراعي. وظلّ يردّد «شكرًا». «شكرًا جزيلًا. شكرًا جزيلًا.» لم أبتعد، بل انحنيت حتّى يشعر بوجودي قربه. عندما وصلت فرقتنا المتقدّمة لمواكبتنا من المنزل، أصرّ وي تانغ ليو على مرافقتي إلى الخارج، في الطّقس البارد، ولم يكن يرتدي سوى سترة قطنيّة، وسروال، وصندل مفتوح فوق جواربه. بدا غافلًا عن البرد وبقي ملاصقًا لكتفي كما لو كان يحاول يائسًا أن يبلّغني شيئًا أحتاج إلى معرفته. كان وي تانغ يسمّي اليوم الّذي فقد فيه ابنه الوحيد أتعس يوم في حياته. كان يخبر المعزّين الآخرين أنّ وينجيان هو قدوة يحتذى بها في تقوى الأبناء الكونفوشيوسيّين، كان يحترم أباه ويطيعه ويرعاه. ويخبر النّاس كيف كان ابنه يصرّ دائمًا على اصطحابه إلى الطّبيب كلّما شعر بالمرض، أو يتوقّف عند مصنع الملابس لمساعدته على إنهاء القطعة الّتي بين يديه قبل قيادته إلى المنزل، أو يتّصل به كلّ يوم قبل أن ينتهي من نوبته ليطمئنّ إلى أنّه بخير وسيعود إلى المنزل. كان الضّابط ليو يقول لوالده «عليك أن لا تقلق بعد اليوم».

لكنّني لم أعرف أيًا من هذا في ذلك الوقت. لم يكن يعرف الإنجليزية ليعبّر لي عن ذلك، ولم أكن أعرف الكانتونية كي أفهمه. عندما عانقني وي تانغ أخيرًا أمام منزله، أمام صفّ من رجال الشّرطة الواقفين، تمسّك بي بإحكام لفترة طويلة، وكأنّه لا يتحمّل أن يدعني أذهب. وقفنا هناك لفترة طويلة، متعانقين على الرّصيف الصّغير أمام المنزل الّذي كان يعيش فيه مع ابنه الوحيد، كأبوين فحسب. فهمت كلّ ما يريدني أن أعرفه – أو ظننت أنّني فهمت.

الفصل الرّابع

الثّقة

جاءت المكالمة تمامًا في الموعد المحدّد، عند السّاعة الثّانية عشرة والنّصف من ظهر أوّل اثنين من السّنة الجديدة، 2015: «عفوًا سيّدي، الرّئيس جاهز من أجلك». أمسكت بطاقتي الصّغيرة الّتي تتضمّن ملاحظاتي حول القضايا الّتي أردت مناقشتها في ذلك اليوم، وانطلقت إلى مكتبه الّذي يبعد 45 ثانية عن مكتبي، لتناول غدائنا الأسبوعيّ الخاصّ. في بعض الأحيان، كنت أتذكّر، وأنا في طريقي، أوّل مرّة تحدّثت فيها أنا وباراك أوباما عن تناول وجبة معًا. كان ذلك قبل عشر سنوات بالضّبط، عندما كان أوباما في الثّالثة والأربعين من عمره، سناتورًا منتخبًا حديثًا يحاول فقط الحصول على موقع له في واشنطن. أراد أن يكون عضوًا في لجنة العلاقات الخارجيّة. كنت أفضل ديمقراطيّ في اللّجنة، وكنت كبيرًا بما يكفي بحيث يمكنني تحديد من لديه مقعدٌ متاحٌ، لذلك طلب أن يأتي لرؤيتي.

كان من الواضح أنّ السّناتور أوباما سيشكّل مكسبًا عظيمًا للّجنة. بدا أنّه يتمتّع باتّساعٍ وعمقٍ في التّفكير، واستعدادٍ للعمل الجادّ، وإحساسٍ بدور أمريكا في العالم – الإمكانيّات والقيود – مشابهًا لإحساسي. علاوة على ذلك، فإنّ خطابه في مؤتمر جون كيري الوطنيّ الدّيمقراطيّ في الصّيف الماضي قد أثار إعجابي حقًّا، كما كلّ من سمعه. عندما تحدّث عن «العبقريّ الحقيقيّ لأمريكا، والإيمان بالأحلام البسيطة، والإصرار على المعجزات

الصّغيرة»، بدا وكأنّه ينشد من كتاب التّراتيل نفسه الّذي أنشد منه. «لا يتوقّع النّاس أن تحلّ الحكومة جميع مشاكلهم. لكنّهم يشعرون، في أعماق أعماقهم، مع تغييرٍ طفيف في الأولويّات، أنّ بإمكاننا التّأكّد من أنّ كلّ طفل في أمريكا لديه فرصة جيّدة في الحياة، وأنّ أبواب الفرص ستظلّ مفتوحة أمام الجميع».

عندما جاء باراك إلى مكتبي ليعبّر عن تقديره في ذلك اليوم الشّتويّ البارد قبل عشر سنوات، أخبرته أنّني سأكون سعيدًا بوجوده في اللّجنة، وسأحرص على حدوث ذلك. لم يكن لدينا الكثير من الوقت للتّحدّث، واقترحت أن نلتقي مرّة أخرى، ويتعرّف بعضنا على بعض بشكلٍ أفضل. كنت أعلم أنّ عائلته لا تزال في شيكاغو وكان يتنقّل، كما كنت، لذلك أخبرته أنّه إذا كان يريد أن نتناول العشاء معًا في إحدى اللّيالي، فسأكون سعيدًا للقيام بذلك. كان بإمكاني البقاء بعد انتهاء عمل مجلس الشّيوخ، ويمكننا الذّهاب إلى مطعم إيطالي محليّ قبالة الكابيتول هيل. قلت: «لا شيء فاخر».

قال: «أوه ، يمكننا أن نذهب إلى مكانٍ فاخر»، وأوضح أنّ عائدات كتابه جعلته في وضعٍ جيّد. «أستطيع تحمّل ذلك. «

«أستطيع تحمّل ذلك» رنّت في أذني كتعليقٍ غريب، أقرب إلى الغطرسة. اتّضح لي فقط في وقتٍ لاحق، بعد أن تعرّفت عليه جيّدًا، أنّ باراك لم يكن من النّوع الّذي يتحدّث عمّا يمكن أن يتحمّله، وأنّه ربّما شعر بالإهانة لأنّني اعتبرته رجلًا محدود الموارد. تمامًا كما أنّه ربّما لم يخطر ببال باراك في ذلك الوقت أنّني رجل محدود الموارد. لم نتناول ذلك العشاء أبدًا، ولكنّنا تناولنا الكثير من وجبات الغداء السيّئة في السّنوات الّتي تلت ذلك.

اتّصل بي باراك أوباما لأوّل مرّة بشأن طرح اسمي لأكون نائبًا له في انتخابات حزيران (يونيو) 2008، بعد وقتٍ قصير من حصوله على عددٍ كافٍ من أصوات النّوّاب للتّرشّح. كنت في القطار عائدًا إلى المنزل في

ويلمنجتون عندما رنّ هاتفي. طلب إذني للتّدقيق في بياناتي، فقلت لا. قلت لـه: «سأسـاعدك بـأيّ طريقـة ممكنة، لكننـي لا أريد أن أصبح نائبًا للرّئيس». بالطّبع لم أقل هذا باستخفاف. فقد شـرفّني بسـؤاله، لكنّني كنت عضوًا في مجلس الشّـيوخ للولايات المتّحدة لمدّة خمسـةٍ وثلاثين عامًا، وهي وظيفة أحببتها، في مؤسّسة أحترمها. لقد اكتسبت الكثير من الاحترام بصفتي مشرّعًا رائعًـا وكانـت لـديّ أقدميـة. كنت رجلًا حرًّا، وكنت أسـتمتع بما أفعله. كما اعتقـدت أنّ بإمكانـي تقديـم مسـاهمات أكثـر أهمّيّـة بصفتـي رئيسًـا «للجنة العلاقات الخارجيّة» ممّا يمكنني تقديمه بصفتي نائبًا للرّئيس.

وأصرّ على أنّ هذه ليست مجرّد مناورة، وأعطاني الانطباع بأنّني بالفعل مرشّح الرّئيس. وقال «إنّ الأمر جادّ. ولكنّني بحاجة إلى إجابة الآن».

«إذًا الجواب هو لا».

«أسدِ لي معروفًا يا جو، اذهب إلى المنزل وتحدّث مع العائلة أوّلاً».

«وافقت على القيام بذلك، وعندما أغلقت الخطّ اتّصلت بجيل، وطلبت منهـا أن تدعـو إلـى اجتمـاعٍ عائليّ. جلسـنا نحن الخمسـة في ذلك المسـاء للتّحدّث.

فاجأنـي ردّ عائلتـي. كانـوا كلّهم مؤيّدين لذلك. كانت حجّة بو وهانت أنّ بإمكاني مسـاعدة أوباما في الفوز بولايات رئيسـة مثل بنسـلفانيا وأوهايو وفلوريدا، وسوف تساعد تجربتي في السّياسة الخارجيّة في دعم اللّائحة.

شعرت جيل بالارتياح في الواقع من مكالمة باراك. لقد كانت خائفة، بنـاءً علـى تلميـح الدّيمقراطيّيـن المرموقين لها، من أنّ أوباما سـوف يعيّنني فـي منصـب وزيـر الخارجيّة، وسـأعيش السّـنوات الأربـع القادمة على متن الطّائـرات وفـي عواصـم أجنبيّـة. وقالـت: إنّ منصب نائب الرّئيس سـيكون تحدّيًـا جديـدًا لجميـع أفراد الأسـرة. كان هنـاك أيضًا ناحية جذّابة لجيل ألا وهي وجود المقرّ الرّسمي لنائب الرّئيس في واشنطن، ممّا يعني أنّه سيكون

لدينا منزل على بعد دقائق قليلة من هانت وبناته الثّلاث، وآخر على بعد دقائق قليلة من بو وطفليه. وسيؤدّي ذلك إلى إلغاء سفري لمدّة أربع ساعات الّذي كنت أقوم به كلّ يوم ينعقد فيه مجلس الشّيوخ على مدار الخمسة والثّلاثين عامًا الماضية، وسيمنحني المزيد من القدرة على رؤية أحفادي.

كانت الحجّة الأخرى المقنعة كالآتي: حتّى لو كانت مشاركتي هامشيّة فحسب، ولكن سيكون لي دور في المساعدة في انتخاب أوّل رئيسٍ أمريكيّ من أصل أفريقيّ للولايات المتّحدة – ورجل أعتقد أنّ بامكانه أن يكون رئيسًا عظيمًا. والدتي البالغة من العمر تسعين عامًا، والّتي شاهدت نضالي طوال حياتي من أجل الحقوق المدنيّة والمساواة العرقيّة، وصفت الأمر بهذه الطّريقة في اجتماعٍ عائليّ أكبر في اليوم التّالي: «دعني أفهم جيّدًا، يا عزيزي. أوّل رجلٍ أمريكيّ من أصل أفريقيّ في التّاريخ لديه فرصة ليكون رئيسًا، يقول إنّه يحتاج إلى مساعدتك للفوز – وقلت: لا».

القرار، حتّى بتشجيع الأسرة، كان لا يزال صعبًا. لقد كنت في واشنطن لفترة كافية، لمشاهدة ثمانية نوّاب رئيس مختلفين، وعرفت التّاريخ. المنصب نفسه له تاريخ طويل وأسطوريّ – بصفته أضحوكة. اقترح بنجامين فرانكلين أن يشار إلى نائب الرّئيس باسم «صاحب السّعادة الزّائد». كان ريتشارد نيكسون ضحيّة ما يعدّ النّكتة الوحيدة الّتي أدلى بها دوايت أيزنهاور خلال الثّماني سنوات الّتي قضاها كرئيس. سُئل أيزنهاور خلال حملة نيكسون العنيفة ضد جون كينيدي عمّا إذا كان بإمكانه أن يحدّد للصّحفيّين بعض القرارات الرّئيسة الّتي ساعد نائبه في تشكيلها. أجاب أيزنهاور: «إذا أمهلتني أسبوعًا، فقد أجد واحدًا».

عندما تولّى كالفن كوليدج المنصب، أرسل سلفه توماس رايلي مارشال، رسالة موجزة: «أرجو أن تتقبّل تعاطفي الصّادق». كان مارشال رجلًا أضاف إلى منصبه تواضعًا مهيبًا وحسّ الفكاهة. قال ذات مرة: إنّ نائب الرّئيس هو

«رجل في نوبة صرع. لا يستطيع الكلام؛ لا يستطيع الحركة؛ لا يعاني من ألم؛ مدركٌ تمامًا لكلّ ما يجري حوله، لكن ليس له دور فيه».

بعد فترة قصيرة فحسب من تولّي مارشال لمنصبه، بدأ في شرح الوظيفة بهذه الطّريقة: امرأة لديها ولدان؛ هرب أحدهما إلى البحر، وانتخب الآخر نائبًا للرّئيس؛ لم يُسمع عن أيّ منهما بعد ذلك. قضى توماس رايلي مارشال ثماني سنوات كنائبٍ للرّئيس، وساعد في توجيه البلاد خلال الحرب العالميّة الأولى، ثمّ اختفى من التّاريخ وكأنّه دخل برنامج حماية الشّهود. إنّ معرفة هويّة نائب الرّئيس الأمريكي وودرو ويلسون مسألة صعبة لو طرحت أمام متابعي البرنامج التّلفزيونيّ لعبة الخطر جيوباردي، فإنّهم بلا شكّ سوف يتصلون بخطوط الشّكاوى. لكن على الأقل بدا أنّ مارشال كان يحافظ على روحه المرحة. كان نيلسون روكفلر في منصبه لمدّة عامين فقط، لكنّه سرعان ما شعر بالتّوتّر. واشتكى: «أنا أحضر الجنازات. وأذهب إلى أماكن الزّلازل».

كان دانيال ويبستر الأكثر شراسة، حيث رفض ترشيح حزبه له لمنصب نائبٍ للرّئيس ويليام هنري هاريسون في العام 1840. فعلّق قائلًا: «أنا لا أنوي أن أُدفن قبل أن أموت حقًا وفي نعشي». أخطأ ويبستر في تقدير الجانب الإيجابيّ للمنصب. فقد أصبح هاريسون أوّل رئيس يتوفّى أثناء ولايته – بعد شهر واحد فقط من تنصيبه – وهو الأمر الّذي كان من شأنه أن يمنح ويبستر ولاية كاملة مدّتها أربع سنوات كرئيس. رفض ويبستر ترشيحه لمنصب نائب رئيس للمرّة الثّانية بعد ثماني سنوات، ثمّ رأى كيف أصبح زاكاري تيلور ثاني رئيس يتوفّى أثناء تولّيه المنصب، بعد ستّة عشر شهرًا فحسب.

لقد تصارعت لمدّة يوم أو يومين مع فكرة أن أخدم في الواقع كنائب لأيّ رئيس. أكثر ما كان يقلقني هو أنّني سأفعل شيئًا لم أفعله منذ ما يقرب من أربعين عامًا: العمل لدى شخصٍ آخر. كما قال لي رئيس الموظّفين السّابق وصديقي القديم تيد كوفمان بينما كنت أقرّر، «لا أريد أن أكون

في مكتب نائب الرّئيس في اليوم الأوّل عندما يأتي رئيس موظّفي الرّئيس ويكلّفك بمهمّة: رأيت وجهة نظره. قلت مرّة لجيل: «لم يكن لديّ رئيسٌ قطّ. أنا لا أعرف كيف سأتعامل مع الأمر». في الواقع، لا بدّ أنّي قلتها لها أكثر من مرّة: «ماذا يحدث عندما يتعيّن عليّ دعم سياسة الإدارة الّتي لا أتّفق معها؟... كيف سيكون الأمر عندما أكون في المرتبة الثّانية؟... لم يكن لديّ رئيس قطّ. كيف سأتعامل مع هذا؟» إلى أن أتت جيل أخيرًا بالجواب. قالت: «هيّا، جو، تصرّف بنضج».

وافقت على خوض عمليّة التّدقيق في بياناتي ولكن ليس بكثيرٍ من الحماسة.

قام الفريق الّذي حقّق معي بمراجعة مواردي الماليّة للتّأكّد من عدم وجود أيّ تضارب أساسيّ في المصالح. قاموا بفحص حساباتي المصرفيّة، والأصول، والرّهون العقاريّة، والفواتير والدّيون الأخرى. لقد طلبوا رؤية تصريحاتي الضّريبيّة الّتي تعود إلى عشر سنوات، وأيّ عمل خارجيّ قد يكون لديّ، وأيّ أسهم. لم يكن هناك الكثير. فليس لديّ اهتمامات تجاريّة. ولا أملك أسهمًا أو سندات. كانت أسهمنا فقط في المنزل ومرتّبي التّقاعديّ. كان لدى جيل مرتّب تقاعديّ من عملها كمعلّمة وقدّمت لها والدتها بعض شهادات الإيداع. سأل أوباما الفريق الّذي يحقّق معي: «هذا كلّ ما هنالك؟». في المرّة التّالية الّتي رأيته فيها، بعد انتهاء العمليّة، نظر إليّ باراك وقال مازحًا: «كان هذا أحد أسهل تدقيق في العالم. أنت لا تملك شيئًا».

آخر الجلسات العديدة الّتي أجريتها مع فريق التّدقيق جرت في مكتبي، قبالة قاعة مجلس الشّيوخ. كان هناك ثمانية أو تسعة محامين يراجعون التّفاصيل النّهائيّة، ويتابعون الأسئلة القليلة المتبقيّة لديهم. عندما شارف الاجتماع على نهايته، قال لي المحامي الرّئيس: «حسنًا، سؤال أخير واحد فقط، سيدّي الرّئيس، ونكون قد انتهينا جميعًا. لماذا تريد أن تكون نائب

رئيس؟ « قلت: «لا أريد أن أكون».

«بجدّ، سيّدي الرّئيس: لماذا تريد أن تكون نائبًا للرّئيس؟»

كـرّرت جوابـي: «لا أريـد أن أكـون نائبًا للرّئيس». وأضفت: «اذا أرادني أن أقوم بذلك ويعتقد أنّ هذا سيساعد فسأفعل».

بطريقـةٍ مـا وصلـت تلـك المحادثة إلى عائلتي. لم يسـعدوا بها، لأنّهم اعتقدوا أنّني ربّما أحاول تخريب فرصي.

أتذكّـر بالضّبـط متـى أصبـح جليًّـا بالنّسـبة لي أنّ هذا سـيكون الشّـيء الصّحيـح الّـذي يجـب القيـام بـه. نقلنـي باراك سـرًّا إلـى مينيابوليس خلال الحملة الانتخابيّة. مرتديًا جينز، وقبّعة البيسـبول ونظّارات شمسـيّة، تسـلّلت إلى جناحه بالفندق، حيث أجرينا المحادثة الأكثر أهميّة في علاقتنا المبكرة. لقد علمت بالفعل من المناقشـات التّمهيديّة الرّئاسـيّة، ومن العمل معه في لجنـة العلاقـات الخارجيّـة أنّـه لـم تكن لدينـا خلافات جوهريّة بشـأن هذه القضايا. أمّا الاختلافات فكانت تكتيكيّة. ولكنّني سألته في مينيابوليس عمّا إذا كان يقصد حقًّا ما قاله: إنّه يريدني أن أسـاعده في الحكم، لا سـيما في مسـائل السّياسـة الخارجيّة. فقال: نعم. وسـألته عمّا إذا كان يقصد ما قاله حول اعتبار استعادة الطّبقة الوسطى قضيّة حاسمة في رئاسته.

قال: «نعم». «أنا حقًّا أعني ذلك».

لقد صدّقته. كنت مقتنعًا بأنّه رجل صادق وشريف من الدّاخل ويحافظ على كلمته. كنت مقتنعًا أيضًا أنّ بإمكانه أن يكون بالفعل رئيسًا جيّدًا.

سـألني باراك في ذلك الاجتماع السّـرّي عن المجالات المحدّدة التّي أرغب في أخذ زمام المبادرة فيها. كان ردّي أنّني لا أريد أيّ مجال محدّد. بعد خمسة وثلاثين عامًا في مجلس الشّيوخ، وانخراطي في كلّ قضيّة رئيسة تقريبًا، أشعر أنّ بامكاني تقديم أكثر من ذلك بكثير. أردت أن يكون لي تأثير فـي جميـع المجـالات. قلـت لـه إنّني سـأفعل ما هو في أمـسّ الحاجة إليه،

ووعدت بأن أكون مؤيّدًا قويًا ومدافعًا عن سياساته. لكنّني أردت أكثر من مجموعة من المهامّ المحدّدة الّتي تضع قيودًا صارمة على المنصب. قلت له: «أريد أن أكون آخر شخص في القاعة يصوّت على كلّ قرار مهمّ». «أنت رئيس. أمّا أنا فلا. أنا أفهم ذلك. ولكن إذا كانت خبرتي هي الّتي تبحث عنها، فأنا أريد أن أكون آخر شخص يرجّح كفّة أيّ قضيّة».

كان السّؤال الوحيد المتبقّي بعد ذلك هو كيف كنت سأتأقلم مع الفريق الفعّال المذهل الّذي شكّله باراك. وكان من الواضح أنّ ذلك يهمّه حقًا. لذلك طلب منّي أن ألتقي بمدير حملته الانتخابيّة، وكبير الاستراتيجيّين للحديث عن دوري في الحملة. سافرا إلى مطار نيو كاسل سرًا في طائرةٍ خاصّة، واصطحبهما بو وجيل إلى منزل أختي كي لا تتنبّه الصّحافة. لقد كان اجتماعًا هامًا، وعندما افترقنا أعتقد أنّنا جميعًا كنّا مقتنعين بأنّ الأمر سينجح.

كنت في غرفة الاستقبال في انتظار خروج جيل من عيادة طبيب الأسنان عندما اتّصل باراك ليبلغني قراره النّهائيّ. طلب منّي أن أكون نائبًا له، فوافقت دون تردّد. وأشعرني ذلك بالرّضا أن أقول نعم.

قال: «إنّني اتطلّع إلى ذلك». قلت: «وأنا كذلك».

بعد نصف ساعة من قبولي، دخلت أنا وجيل عبر بابنا الأماميّ، ووجدنا آشلي جالسة في المطبخ. لابدّ أنها رأت شيئًا ما في وجوهنا. قالت: «أبي، لقد اتّصل، أليس كذلك؟». قلت: «نعم، لقد اتصّل».

«وقلت: نعم؟»

أجبتها: «أخبرتك أنّني سأقبل، يا عزيزتي. نعم. لقد وافقت». قفزت وألقت ذراعيها حولي. وقالت: «أبي، أنت تعرف كيف تقتبس دائمًا من

قصيـدة شـيموس هينـي». أعتقـد أنّ كلّ شـخص في العائلـة يمكنه أن يلقي قصيـدة الشّـفاء فـي طـروادة[1] عـن ظهـر القلب في تلك المرحلـة، كانوا قد سمعوني أقتبس منها مرّات عديدة على مرّ السّنين:

يقول التّاريخ بأنّ الأمل استحالة
ما دمت حيًا لم يضمّك قبر
ورغم ذلك قد يثور طوفان العدالة
حتّى ولو لمرةٍ في العمر
ذاك الّذي ظلّت الخلق ترقبه
طوال أزمنة مديدة
عندئذٍ يتناغم التّاريخ والأمل..[2]

«أبي، هذا هو الأمل والتّاريخ».

قلت مازحًا: «أوه، عظيم، هو الأمل. وأنا التّاريخ».

لكنّني كنت أعرف ما تعنيه، وكنت سعيدًا لأنّها كانت سعيدة جدًا. لقد اتّصلنا بالهاتف وأخبرنا العائلة بأكملها، ولم أشكّ للحظة واحدة في أنّنا قد اتّخذنا القرار الصّحيح.

عندمـا كنـت قيـد النّظـر فـي أن أتولّى منصب نائـب الرّئيس، تواصلت مع وولتر موندیل للحصول على مشورته، أخبرني أنّ غداءه الأسبوعيّ مع الرّئيـس جيمـي كارتـر تبيّـن أنّـه كان حجـر الزّاوية في علاقـة العمل بينهما. لذلـك قرّرنـا أنـا وبـاراك اتّبـاع هـذه النّصيحـة كوسـيلة للتأكّد مـن أنّنا نعقد

(1) مسرحيّة the cure at troy أو الشّفاء في طروادة هي مسرحيّة شعريّة للشّاعر الأيرلنديّ الحائز على جائزة نوبل في الآداب شيموس هيني، اقتبسها من مسرحية لسوفوكليس تدعى Philoctetes، واستلهم في كتابتها تولي نيلسون مانديلا الحكم في جنوب أفريقيا وكفاحه ضدّ نظام الفصل العنصريّ. وهذا المقطع من الأبيات الافتتاحيّة الّتي ينشدها الكورس. (المترجم)

(2) من مدوّنة ترجمة الشعر 22 يونيو 2017

اجتماعات منتظمة، حيث يمكننا التحدّث معًا على انفراد، وبصراحة مطلقة، حول أيّ شيء يدور في أذهاننا. بدأنا في عقد اجتماع الغداء الأسبوعيّ في الشّهر الأوّل لوصولنا إلى البيت الأبيض. حتّى بعد مرور ستّ سنوات، كنت لا أزال أتطلّع إلى ذلك. ليس لأنّنا لم نقضِ الكثير من الوقت معًا بالفعل. فقد أدرجني منذ البداية في جميع اجتماعاته الرّئيسة. من المؤكّد أنّنا قضينا ألف ساعة معًا في غرفة العمليّات بحلول ذلك الوقت. كنّا نبدأ كلّ يوم في المكتب البيضاوي للاطّلاع على الإحاطة الاستخباراتيّة اليوميّة. وكنت أحضر الاجتماع الأسبوعيّ للجنة رؤساء فريق الأمن القوميّ التّابع له، والاجتماعات مع مستشاري السّياسة الخارجيّة والاقتصاد، واجتماعاته الثّنائيّة مع رؤساء الدّول الزّائرين، واجتماعاته مع قادة الكونغرس. لم يستغرق الأمر طويلًا حتّى أدركت أنّها لم تكن مجرّد وظيفة شكليّة. أراد الرّئيس قراءتي لكلّ ما يحدث، وأرادني أن أكون في الجوار. إنّ كلّ شخص تقريبًا يتّصل بالرّئيس يكون متعطّشًا لشيءٍ ما – في بعض الأحيان لا يكون أكثر من التّقدير، أو سعيًا للتّهدئة، ولكنّ الأهّم من ذلك كلّه يريد من الرّئيس أن يسمعه. لم يكن هناك مفرّ من ذلك بالنّسبة لباراك، وقد يستنزفه الأمر. فقد اشتكى لي في أحد الأيّام بعد مغادرة وفد من الكونغرس للمكتب قائلًا: «لماذا يحتاجون إلى هذا القدر من الاهتمام؟» وأضاف: «وعليك دائمًا دعمهم». كان يعرف الجواب دون أن أخبره، لكنّه كان محبطًا من مقدار الوقت والطّاقة اللّذين يستغرقهما ذلك. وكان سعيدًا بوجودي هناك لتولّي بعضًا من ذلك العبء.

أخبرتني إحدى مساعداته الشّخصيّات القديمات ذات مرة، قرب نهاية فترتنا الثّانية، أنّها شعرت بالفضول وأجرت الحسابات، وبدا لها أنّنا نقضي أنا والرّئيس حوالي أربع ساعات ونصف معًا في الأيّام الّتي نكون فيها في واشنطن. لست متأكّدًا من أنّ أيًا منّا كانت لديه فرصة لقضاء ساعات

الاستيقاظ هذه مع زوجته في تلك الأيام. ولكن طوال ذلك الوقت معًا، نادرًا ما كنت أنا والرّئيس بمفردنا، باستثناء لحظات عابرة بين الاجتماعات. كان غداؤنا يعدّ المكان الوحيد الّذي يمكن أن نتحدّث فيه بصراحة، دون الخوف من سماعنا. يمكننا مناقشة أهمّ القضايا الرّاهنة الّتي تواجه الحكومة والبلاد والعالم؛ ويمكننا مناقشة أيّ مسألة شخصيّة نواجهها. إذا صدف أن فعل أحدنا شيئًا ما أغضب أو خيّب أمل الآخر، فإنّ الغداء الأسبوعيّ هو الوقت المناسب لتنقية الأجواء. هذا لا يعني أنّ هناك الكثير من ذلك. حتّى إحدى «هفوات بايدن»، التي أثارت سخط البيت الأبيض وموظّفي حملة العام 2012 – عندما سبقت الرّئيس بالقول في برنامج لقاء مع الصّحافة، إنّني «مرتاح تمامًا» لزواج المثليّين وإنّ الأزواج المثليّين يستحقّون كلّ الحقوق والحريّات المدنيّة نفسها الّتي يتمتّع بها الأزواج من جنسين مختلفين – لم يتسبّب بأيّ اضطّراب حقيقيّ بيننا. ذهبت إلى المكتب البيضاوي في اليوم التّالي فوقف الرّئيس للتّوّ واستدار حول مكتبه، وكانت تعلو وجهه ابتسامة كبيرة.» قال: «حسنًا، جو، قلت لي: إنّك لن تؤدّي دورًا مضحكًا أو تنتحل شخصيّة أخرى.» وقال مازحًا إنّني أثرت ضجّة وأغضبت الجميع، وقال بأنّه توجّب على الفريق القيام ببعض العمل [لإصلاح الأمر]. لكنّه لم يلمني لأنّني صرّحت برأيي حول قضيّة تهمّني بعمق.

كانت المحادثات خلال وجبات الغداء الخاصّة بنا شخصيّة بالقدر نفسه. كنّا نتحدّث عن زوجاتنا ونتحدّث عن الصّداقة الوثيقة بين بناته وأحفادي، وما كان يحدث في حياتهم. ونتحدّث عن الغولف.

في إحدى وجبات الغداء السّابقة، قال لي الرّئيس: هل تعرف ما فاجأني؟ كيف أصبحنا أصدقاء مقرّبين».

فقلت مازحًا: «لقد فاجأتك!»

عندما دخلت المكتب البيضاوي لتناول غدائنا الأسبوعيّ في 5 كانون الثّاني (يناير) 2015، بعد ستّ سنوات ونصف تقريبًا من قبولي لمنصب نائب الرّئيس، كان الرّئيس أوباما، كالعادة، في مكتبه. قال لي: «هيّا. أنت جائع؟» وقادني إلى ما وراء المكتب الصّغير خارج المكتب الرّئيس إلى غرفة الطّعام الخاصّة به. كان الإعداد رسميًا. احتفظ الرّئيس ببعض الممتلكات الشّخصيّة في الغرفة – بعض صور بناته وزوج من قفازات الملاكمة الحمراء، في علبة زجاجيّة، موقّعة من محمّد علي. ألقينا معاطفنا واتّجهنا إلى طرفي طاولة من خشب الماهوجني يبلغ طولها ستّة أقدام. لقد أثنى على العمل الّذي أنجزته في حفل الشّرطة التّأبينيّ في نيويورك.

قال الرّئيس، ونحن نجلس: «ماذا لديك لهذا اليوم؟»

كان باراك قد عاد لتوّه من إجازة عيد الميلاد في هاواي، وبدا أنّه يتمتّع بقدرٍ إضافيّ من الهدوء في طبعه الهادئ أساسًا. كانت الانتخابات النّصفيّة الأخيرة في مسيرته السّياسيّة وراءه، وعلى الرّغم من أنّها لم تسر على ما يرام بالنّسبة لنا نحن الدّيمقراطيّين، ولكنّ الرّئيس لن يضطّر أبدًا إلى التّرشّح للحكم عليه من قبل النّاخبين. لا يزال لديه عامان في المنصب، وكان مصمّمًا على استغلالهما على أكمل وجه. كانت هناك أشياء كبيرة علينا إنجازها، وكانت لديه قائمة أولويّات للتّحدّث عنها على الغداء في ذلك اليوم. كان الرّئيس أحد الأشخاص القلائل الّذين أخبرتهم عن معركة بو مع السّرطان. شعرت بضرورة إخباره، لأنّني كنت اضطّر في بعض الأوقات للسّفر سرًا إلى هيوستن أو فيلادلفيا للقيام ببعض الإجراءات أو الاستشارات، وأراد بو الحفاظ على خصوصيّة الأمر. لم يكن يريد أن تتداول الصّحف قصّته، وقد فهم باراك ذلك تمامًا. كنت أعلم أنّ بإمكاني الاعتماد على الرّئيس لإبقاء الأمر طيّ الكتمان. لكنّني كنت أعلم أيضًا أنّ الرّئيس لا يزال بحاجة إليّ، لأنّ جميع المبادرات الرّئيسة الّتي كنت مسؤولًا عنها لم يكن

من السّهل تسليمها إلى شخصٍ آخر. أردت أن أطمئنه أنّ بإمكانه الاعتماد عليّ، وأنّني لن أتغاضى عن أيّ شيء.

لقد نمت قوّة الرّئاسة بشكلٍ كبير خلال الفترة الّتي قضيتها في واشنطن، وتزايدت معها التوقّعات العامّة لما يمكن للرّئيس وما ينبغي أن يحقّقه. إنّ خطورة القضايا الّتي كان يواجهها بشكلٍ أسبوعيّ ساحقة؛ فكلّ ما يصل إلى مكتب الرّئيس يكون بالغ الأهمّيّة ومستعجلًا، وكلّ شيء ما عدا الجراد أصاب مكتب هذا الرّئيس الشّابّ – منذ يومه الأوّل في العمل. أدّى باراك أوباما اليمين الدّستوريّة وسط أسوأ أزمة ماليّة عالميّة منذ أربعة أجيال. كان الوضع رهيبًا لدرجة أنّ الفريق الاقتصاديّ بأكمله كان يجتمع في المكتب البيضاوي لمدّة ساعة كلّ يوم للتّخطيط حول كيفيّة التّعامل مع الأزمة الّتي لا تنتهي. أخبرنا كبير اقتصاديّي الرّئيس بعد فترة وجيزة من تولّينا المنصب، أنّه «بغضّ النّظر عمّا سنفعله، سنستمرّ في خسارة مئات الآلاف من الوظائف شهريًا لمدّة ستّة أشهر على الأقلّ». كانت البنوك الكبرى تنهار. كان الاقتصاد ينزلق إلى الهاوية، والأمريكيّون يفقدون منازلهم ورعايتهم الصّحيّة ومدّخرات حياتهم. كانوا يفقدون الأمل. أدّى تناقص عائدات الضّرائب إلى الضّغط على السّلطة الفيدراليّة وسلطة الولايات والسّلطة المحلّيّة. كانت المدن على وشك الإفلاس، وأجبرت على تسريح الكثير من المدرّسين وضبّاط الشّرطة لدرجة أنّ الركائز الأمريكيّة للتّعليم والسّلامة العامّة أصبحت متزعزعة. كما ورث الرّئيس أوباما الحروب السّاخنة في العراق وأفغانستان، ولم يكن هناك استراتيجيّة واضحة للنّصر في أيّ منهما. كانت الحروب تكلّفنا ما يقرب من خمسة عشر مليار دولار شهريًا في وقتٍ لم يكن بوسعنا تحمّلها.

حتّى باراك أوباما، بالرّغم من موهبته وقدراته، لم يكن بإمكانه فعل كلّ شيء. مثل جميع الرّؤساء المعاصرين، كان مضطرًا إلى تفويض أجزاء كبيرة من الأعمال التّنفيذيّة إلى أمناء حكومته، والمتخصّصين في الأمن

القوميّ، ورئيس أركانه، ونائبه. لكنّ هذا يتطلّب الثّقة. وكان من الواضح منذ البداية لكلّ من يعرفه أنّ الرّئيس أوباما لا يضع ثقته في الآخرين بسهولة. قال عنه أحد الموظّفين: إنّه «يسافر خفيفًا». كان صعود أوباما غير المرجّح في السّياسة - حيث كان مشرّعًا غير معروف في الولاية من الجانب الجنوبيّ من شيكاغو في العام 2003 ورئيسًا للولايات المتّحدّة بعد خمس سنوات - مبنيًا جزئيًا على حقيقة أنّه يسافر خفيفًا. فلا يبدو أنّ باراك أوباما ينتمي إلى أحد باستثناء ميشيل وبناته - لا إلى المتبرّعين بالحملات، أو قادة العمّال، أو مجموعات الحقوق المدنيّة، أو حتّى الأصدقاء. أعتقد أنّ النّاخبين أدركوا بحدْسهم أنّه لن يسمح للدّيون السّياسيّة أو الهويّة العرقيّة أو الارتباط الشّخصيّ أو العاطفة، أن تؤثّر على حكمه في أيّ قرارٍ مهمّ. لقد اعتقدوا حقًا أنّه سيسمّي الأشياء كما يراها.

كان للرّئيس ميزة أخرى تتمثّل في الاكتفاء الذّاتيّ شبه المطلق؛ على عكس معظم الأشخاص الّذين أعرفهم، بدا إحساسه بقيمته مستقلًّا تمامًا عمّا يعتقده الآخرون عنه. نادرًا ما كانت تزعجه الإهانات والانتقادات غير العادلة الّتي رأيته يتحمّلها. كانت هناك أوقات شعرت فيها بالغضب الشّديد من الطّريقة الّتي يقلّل النّاس فيها احترامهم له - هو الرّئيس، في المكتب البيضاوي نفسه - لدرجة أنّني كنت على استعداد للهجوم عليهم. كان باراك يعرف متى أكون غاضبًا نيابة عنه وكان يطلب منّي أحيانًا أن أهدأ. كان يقول: «يا جو، عليك أن ترضى بالسّيّئ مع الحسن». كنت أعلم أنّ بامكانه الدّفاع عن نفسه بشكلٍ جيّد، عندما يُدفع للقيام بذلك، وعادة ما أدع الأمر يمرّ، ولكن كانت هناك أوقات لم أستطع فيها أن أضبط نفسي. صحت مرّة في زميلة من الدّيمقراطيّين السّابقين في مجلس الشّيوخ، «لا تتحدّثي عن الرّئيس بهذه الطّريقة»، حيث قالت: إنّها لا تحبّه بالرّغم من أنّها تتّفق معه. قلت لها: «لا تتحدّثي عن صديقي بهذه الطّريقة، وإلّا ستكون بيننا مشكلة».

هـذا لا يعنـي أنّنـي لـم أشـعر بالإحباط من الرّئيـس في بعض الأحيان. لم يعطني أبدًا سببًا للشّكّ في حكمه الاستراتيجيّ خلال ثماني سنوات من المراقبـة عـن كثـب. ونـادرًا مـا كانـت هناك فروقات ظاهرة بيننـا فيما يتعلّق بالسّياسـة. لكن في بعض الأحيان كنت أعتقد أنّه يُسـاق عمدًا إلى الخطأ. فأقول له: «ثق فقط بحدْسك، سيّدي الرّئيس». فيما يتعلّق بالقرارات الرّئيسة الّتي كان لا بدّ من اتّخاذها بسرعة، فقد تعلّمت على مرّ السّنين، أنّ الرّئيس لـن يحصـل أبـدًا علـى أكثر من 70 بالمائة مـن المعلومات المطلوبة. لذلك بمجـرّد مراجعـة الخبراء والإحصائيّات والبيانات والاسـتخبارات، يجب أن تكون مستعدًّا للاعتماد على حدْسك.

كانت هناك أوقات لم يكن فيها بعضنا راضيًا عن بعض، ولكن عندما كان يستاء منّي كنت أسمع عن ذلك على انفراد، وليس في النّشرة المسائيّة. في النّهاية، كنت أقدّر صراحته معي. وفي المرّات القليلة الّتي كنت أسـتاء منه حقًّا، كنت أصرّح عن غضبي بشكلٍ مباشر. بدون أيّ مواربة. ولكن هذه هي الطّريقة الّتي يُعامل بها الأصدقاء بعضهم بعضًا. إنّهم يتسـاوون. أعتقد أنّ تلك الفرص قد عمّقت بالفعل علاقتنا.

شـعرت أنّه عاملني بمسـاواة بقدر ما يمكن لرئيس أن يعامل به نائبه. لـم يعطنـي أمـرًا قـطّ. كان يقول للموظّفيـن: «أنا لا أحتفظ بجدول جو، ولا يحتفـظ جـو بجدولـي». الأهـمّ بالنّسـبة لي، أنّه احترم الطّلـب الوحيد الّذي طلبتـه منـه قبـل أن أقبـل عرضـه بأن أكون نائب رئيس. وقيل إنّ أوباما مازح فريق حملته بأنّه قال لي: «أريد نصيحتك يا جو. ولكن أريدها خلال عشـر دقائق فحسب، وليس ستين دقيقة». لكنّه حافظ على شقّه من الاتّفاق، حتّى النّهاية. كان يدعوني لأكون آخر شخص في الاجتماع، لتقديم المشورة قبل اتّخاذ أيّ قرار مهمّ.

لقد قدّمت ما استطعت من النّصيحة والحكمة، لكنّني حاولت أيضًا أن

أقدّم القليل من التّشجيع. هموم الرّئاسة تثقل كاهل أيّ شخص في ذلك المنصب، وكانت هناك أوقات شعر فيها باراك بالإحباط. حيث يصبح أكثر هدوءًا، وأكثر تأمّلًا، وأكثر انطواءًا، ويبدو بعيدًا. عندما أراه يبدأ في الانطواء على هذا النّحو. كنت دائمًا أُشير إلى رغبتي في البقاء بعد اجتماعنا التّالي في المكتب البيضاوي. كنت أنتظر حتّى يخرج الجميع ويغلق الباب خلفهم. وعندما نصبح نحن الاثنين فقط، أقول: «سيّدي الرّئيس، لا يمكن للبلد أن تكون أبدًا أكثر تفاؤلًا من رئيسها. لا تصنع لي «الأمل». يجب أن تخرج إلى النّاس وتكون أنت «الأمل».

لقد أمضينا الكثير من الوقت معًا، حتّى أنّنا طوّرنا إشارات خفيّة ودعابات خاصّة لتخفيف ضغوط المكتب. أحيانًا كان يصرخ بصوت عالٍ: لماذا يفعل السّيناتور «س» هذا؟ ولماذا يفعل عضو الكونغرس «ص» ذلك؟ لقد كان ذلك بلا مبرّر، أو لا لزوم له، أو غير مهذّب إطلاقًا. لماذا؟ فأخبرته عن عمّي إد فينيجان، الّذي كان يمتلك إجابةً لهذا النّوع من المواقف، لم تكن محدّدة تمامًا ولكنها مُرضية دائمًا. كان العمّ إد يقول: «أتعلم يا جوي، ليس هناك اعتبار للحمير». وأصبحت جملة العمّ إد جزءًا أساسيًّا من الرّموز بيننا، أصبحت نكتة خاصّة. في إحدى المرّات، زار رئيس دولة أجنبيّة البيت الأبيض، وكان أوّل شيء نطق به تقريبًا عندما دخل إلى المكتب البيضاوي: «يقولون إنّني قويّ، باراك، وأنت ضعيف. أقول لهم، لا، لا. أنت قويّ أيضًا». تبادلنا النّظرات فحسب، والتفت الرّئيس إليّ، كما هو الحال دائمًا، ورفع حاجبه وقال: «العم إد».

لقد سلّمني الرّئيس الكثير من الوظائف المحدّدة منذ البداية ولم يراقبني. في اجتماع لفريق أوباما للسّياسة الخارجيّة والأمن القوميّ بعد أسابيع قليلة من أدائنا اليمين، عندما قال مسؤولو السّياسة الخارجيّة للرّئيس إنّهم مستعدّون لتقديم خطّة للحفاظ على التزامات حملة الرّئيس بشأن

العراق، التفت الرّئيس إلى المجموعة وقال: «جو سيتولّى العراق. فهو يعرفه. إنّه يعرف اللّاعبين». كما جعلني عمدة أوّل تشريع حاسم لدينا، الّذي جرى سنّه بعد أقلّ من شهر من تولّينا المنصب: قانون الانتعاش وإعادة الاستثمار الأمريكي لعام 2009. كلّفني أيضًا الحصول على الأصوات الّتي نحتاجها في الكونغرس، ثمّ ترك الأمر لي للتّأكّد من أنّ مبلغ الـ 787 مليار دولار المخصّص ضمن حزمة التّحفيز قد أنفق بسرعة، وأنفق بشكلٍ جيّد، متجنّبًا الهدر والاحتيال الّذي يرافق دائمًا قوانين الأشغال العامّة الكبيرة. عندما تعطّلت مفاوضات الميزانيّة بين الرّئيس ورئيس مجلس النّوّاب الجمهوريّ – أو بين زعماء الكونغرس – بشكلٍ لا يمكن إصلاحه، أرسلني الرّئيس إلى الكابيتول هيل للتّفاوض على اتّفاق مع زملائي السّابقين وللتّأكّد من حصولنا على الأصوات اللّازمة لتمريره. عندما بدأ فلاديمير بوتين حملته لزعزعة استقرار أوكرانيا، كلّفني الرّئيس بملفّ أوكرانيا. عندما اندلعت الأزمة بعد أن بدأ الأطفال غير المصحوبين بذويهم من «المثلّث الشمالي» في أمريكا الوسطى بالتّدفّق عبر حدودنا، التفت إليّ وقال: «جو، عليك إصلاح هذا الأمر».

في مرحلة ما بعد فترة وجيزة، طلب منّي الرّئيس تولّي مهمّة إصلاح علاقاتنا المتذبذبة عبر الأمريكتين بالكامل – المثلّث الشّمالي والبرازيل ومنطقة البحر الكاريبي وكلّ الجوار. قال الرّئيس مازحًا: «جو، يمكنك القيام بذلك، أنت تجيد تكوين صداقات جديدة. وهي تقع في المنطقة الزّمنيّة نفسها». لم أشر إلى أنّ معظمها لم يكن في المنطقة الزّمنيّة نفسها. لقد قبلت للتّوّ المهمّة الجديدة. وكان يعلم أنّني لن أخذله.

لم يقل لي الرّئيس ذلك بنفسه، مباشرة، ولكن أثناء حديثٍ طويل ونحن نتّجه إلى حدث في شيكاغو قرب نهاية ولايتنا الأولى، قالت لي ميشيل أوباما: «إنّه يثق بك يا جو».

الثّقة كانت متبادلة، وأصبحت تدريجيًا أكثر من مجرّد ثقة مهنيّة. شعرت أنّ بامكاني الاعتماد عليه أيضًا. كان باراك أوّل شخص من خارج عائلتي يعرف بمرض بو. في العام 2013، تصادف أن شاركنا أنا والرّئيس بحدثٍ سياسيّ معًا في سكرانتون، بنسلفانيا، المدينة الّتي ولدت فيها، في اليوم التّالي لعودتي من زيارتنا الأولى المروّعة إلى مركز ام دي أندرسون للسّرطان في هيوستن. وقد اجتذب التّجمّع الآلاف، ممّا أتاح للرّئيس الفرصة ليقول لي أشياء لم يكن ليتمكّن من نطقها على انفراد. قال للجمهور: «اليوم هو يوم خاصّ بالنّسبة لي وجو، لأنّه قبل خمس سنوات، في مثل هذا اليوم، 23 آب (أغسطس) 2008، أعلنت في سبرينغفيلد، بولاية إلينوي، مسقط رأسي، أنّ جو بايدن سيكون رفيقي في الانتخابات. وكان ذلك، سياسيًّا، أفضل قرار اتّخذته على الإطلاق، لأنّني أحبّ هذا الرّجل...

«لذا أريدكم فقط أن تعرفوا جميعًا أنّني محظوظ لأنّ لديّ جو - ليس فقط بصفته رفيقًا في الانتخابات، ولكنّ الأهمّ من ذلك، بصفته صديقًا. ونحن نحبّ عائلته».

في السّتّة عشر شهرًا منذ ذلك الأسبوع الّذي حصلنا فيه على التّشخيص، كنت حريصًا على عدم الكشف عن وضع بو الحقيقيّ الميؤوس منه لأيّ شخص خارج الأسرة - ولا حتّى للرّئيس. كنت ألمّح لباراك بأنّ بو كان يكافح، لكنّه لم يضغط أبدًا لمعرفة التّفاصيل. وأنا لم أتطرّق كثيرًا إلى الموضوع. ولكن في منتصف العام 2014، عندما كان احتباس الكلام لدى بو يزداد سوءًا، وشعر بالقلق من أنّ مرضه قد يؤثّر في النّهاية على قدرته المعرفيّة. وبمعرفتنا لبو، شعرت أنا وهانت بالقلق من أنّه قد يشعر بأنّه ملزم بشرف المهنة بالاستقالة قبل انتهاء ولايته كمدّعٍ عام. كان راتبه يمثّل الدّخل الوحيد الّذي كان يحصل عليه في ذلك الوقت. أخبرت الرّئيس عن هذا الأمر في إحدى وجبات الغداء الخاصّة بنا.

فسألني: «ماذا ستفعل؟».

قلت: «في الحقيقة، ليس لديه الكثير من المال، ولكنّ وضعنا جيّد. بإمكاننا أنا وجيل الحصول على رهنٍ عقاريّ ثانٍ على منزلنا في ويلمنجتون عند الضّرورة. سنكون بخير».

قال باراك بقوّة أدهشتني. كنت أراه يزداد انفعالًا. ثمّ نهض من كرسيّه ومشى خلفي ووضع يديه على كتفي: «سأعطيك المال. لديّ ما يكفي. يمكنك أن تعيده لي في أيّ وقت «.

أمضينا الجزء الأوّل من غدائنا في 5 كانون الثّاني (يناير) 2015، نستعرض بعض المبادرات الكبيرة الّتي كنت أعمل عليها في ذلك الوقت: العراق وأوكرانيا وأمريكا الوسطى، والّتي أصبحت ثلاثة من أولويّات سياستنا الخارجيّة الأكثر إلحاحًا. وكان الرّئيس قد أعلن مؤخّرًا عن استراتيجيّته الشّاملة الطّويلة المدى لمكافحة الإرهاب من أجل تقويض داعش وتدميرها في نهاية المطاف في العراق وسوريا وفي جميع أنحاء الشّرق الأوسط. كنت أعمل مع رئيس الوزراء الجديد في العراق لدعم حكومته الائتلافيّة، وتزويده بالموارد الّتي يحتاجها لدحر بعض مكاسب داعش الأخيرة في ذلك البلد؛ وكنت أحاول إقناع الرّئيس التّركيّ ورئيس وزرائه بأن يصبحا أكثر فعاليّة في الحرب ضدّ داعش في سوريا. كان موظّفو مكتبي قد بدأوا بالتّحضير لرحلتي في أوائل شباط (فبراير) لحضور مؤتمر ميونيخ الأمنيّ السنويّ، حيث كنت بحاجة إلى الضّغط على حلفائنا في النّاتو لتقديم المزيد من الدّعم لأوكرانيا في صراعها ضدّ بوتين. بعد ذلك بأسابيع قليلة توجّهت إلى غواتيمالا لحضور قمّة لمدّة يومين مع زعماء دول المثلّث الشّماليّ. كانت مهمّتي هناك تتلخّص بإقناعهم باتّخاذ الخيارات السّياسيّة الصّعبة الّتي من شأنها إقناع الكونغرس الأمريكيّ بتمويل تحالفه من أجل الازدهار.

مع انتهاء الغداء، كانت المناقشة تجول، كما هو الحال دائمًا، حول المزيد من الموضوعات الشّخصيّة. ظلّ باراك منشغلًا بمسألة ترشّحي للرّئاسة. كان يزن الأمر بعناية وكان ضدّه – لعدّة أسباب. من ناحية، أدرك الرّئيس شهيّة وسائل الإعلام المتزايدة للدّراما السّياسيّة على حساب السّياسة الحقيقيّة. في اللّحظة الّتي سأعلن فيها عن نيّتي للتّرشّح، يعرف كلانا أنّ التّغطيّة في الجناح الغربيّ [للبيت الأبيض] ستتحوّل من جدول أعماله إلى فرصي بالفوز. وأعتقد أيضًا أنّه خلص إلى أنّ هيلاري كلينتون كانت شبه متأكّدة من ترشيحها، وهو أمر جيّد برأيه. كان يعدّها امرأة ذكيّة فعلًا، وجاهزة فعليًّا، ومدعومة بماكينة انتخابيّة هائلة قضى آل كلينتون الأربعين عامًا الماضية في هندستها. كان الرّئيس شبيهًا بـ «سليمان» عندما ضغط عليه الصحفيون للاختيار بيني وبين هيلاري. قال: «كلّ من هيلاري وجو سيشكّلان رئيسين بارزين ويمتلكان الصّفات اللّازمة ليكونا رئيسين بارزين. و لديهما نقاط قوّة مختلفة لكنّ كلاهما سيكون رائعًا». لكنّني كنت أعرف أنّ عددًا من موظّفي الرّئيس السّابقين، وحتّى عدد قليل من الموظّفين الحاليّين، كانوا يرجّحون كفّة كلينتون.

في كانون الثّاني (يناير) 2015، كان الرئيس مقتنعًا بأنّني لا أستطيع التّغلّب على هيلاري، وكان قلقًا من أن تؤدّي معركة أوّليّة طويلة إلى انقسام الحزب وترك المرشّح الدّيمقراطيّ ضعيفًا في الانتخابات العامّة. أكثر من أيّ شيء آخر، لم يكن يريد أن يرى جمهوريًا في البيت الأبيض في العام 2017. لقد فهمته، ولم أختلف معه أبدًا. كان هذا حول إرث باراك، وجزءٌ كبيرٌ من هذا الإرث لم يُصقل بعد. لم أعتقد أنّ من الممكن لإدارة جديدة للحزب الجمهوريّ أن تتراجع عن برنامج باراك للرّعاية الصّحيّة التّاريخيّ، أو قانون العنف ضدّ المرأة، أو المكاسب الّتي حقّقها مجتمع المثليّين. لكنّ كلانا كان يعرف أنّ الجمهوريّ إذا فاز بالرّئاسة، فيمكنه حقًّا كشف إرث

باراك في السّياسة الخارجيّة. لا أحد منّا يريد ذلك. أعتقد أنّ الرّئيس كان قلقًا أيضًا من أنّني إذا ترشّحت وخسرت، فسيؤدّي ذلك إلى تقليص إرثي السّياسيّ. وأخيرًا، أعتقد أنّه تساءل عن مدى قدرتي على القيام بعملي كنائب رئيس إضافة إلى التّرشّح أثناء التّعامل مع معركة بو مع سرطان الدّماغ.

عندما طرح باراك الموضوع على الغداء في ذلك اليوم، فعل ذلك بلمسة ناعمة. قال لي: «لو كان بإمكاني تعيين أيّ شخص ليكون رئيسًا للسّنوات الثّماني المقبلة، فستكون أنت، جو». «لدينا القيم نفسها. الرّؤيّة نفسها. الأهداف نفسها. لديك الحقّ في اتّخاذ قرار بناءً على ما تشعر به حيال السّباق الرّئاسيّ».

أخبرته أنّه ليست لديّ رغبة في العيش في البيت الأبيض بعد أن شاهدته يفعل ذلك على مدى السّنوات السّتّ الماضية. قال الرّئيس: «إنّه الشّيء الأكثر تقييدًا في العالم»، لكنّه لم يتوقّف للخوض أكثر في الأمر. كان قد بدأ تقريبًا يتخيّل مستقبله. أخبرني أنّ إجازته في عيد الميلاد سمحت له لأوّل مرّة بتصوّر ما يمكن أن تكون عليه السّنوات الخمس والعشرون القادمة. قال: «أعتقد أنّني أستطيع أن أفعل أكثر ممّا كنت قادرًا على القيام به كرئيس». قال: إنه فهم كيف أراد أن يقضي بقيّة حياته. «جو، هل ركّزت على ذلك؟ كيف تريد أن تقضي بقيّة حياتك؟»

كيف تريد أن تقضي بقيّة حياتك؟ كان من الصّعب عليّ الإجابة في ذلك اليوم. كنت أتمنّى لو كان بإمكاني القول: «بالتّأكيد، يمكنني أن أبتعد أيضًا، وأن أكون راضيًا وسعيدًا». لكنّ الأمر لم يكن بهذه البساطة بالنّسبة لي. جزء من ذلك كان كبريائي: إذا قرّرت عدم التّرشّح، يجب أن أكون قادرًا على النّظر في المرآة وأنا أعلم أنّ ذلك لم يكن بسبب خوفي من الخسارة أو الخوف من تولّي المهمّة. لا أتحمّل العيش إذا ابتعدت بهذا الشّكل. ثمّ إنّ مسألة التّرشّح للرّئاسة كانت متشابكة أيضًا، مع بو، والهدف، والأمل. إنّ

التّخلي عن السّباق الرّئاسيّ سيكون مثل القول إنّنا نتخلّى عن بو. ستذكّرني جيل قائلة: «لا يمكننا التّخلّي عن الأمل يا جو. لا يمكننا أن نفقد الأمل». إنّ مجرد احتمال خوض حملة رئاسيّة، وهو ما أراده بو، سيعطينا الهدف والأمل – أي وسيلة لتحدّي المصير.

كيف تريد أن تقضي بقيّة حياتك؟ كان باراك أوباما صديقي، لكنّني وجدت نفسي غير قادر على الوثوق به تمامًا. شرحت له هذا القدر الّذي أعرفه: كان لديّ خياران. كان بإمكاني قضاء عشر سنوات جيّدة مع عائلتي، ووضع أسس الأمن الماليّ لها، وقضاء المزيد من الوقت معها. أو، يمكنني قضاء عشر سنوات في محاولة للمساعدة في تغيير البلاد والعالم نحو الأفضل. قلت له: «إذا كان الثّاني في متناول اليد، أعتقد أن هذه هي الطّريقة الّتي يجب أن أقضي بها بقيّة حياتي».

الفصل الخامس

أن أبقى منشغلا

كنت أعرف منذ يوم الإثنين أنّه سيكون أسبوعًا صعبًا – من النّواحي جميعها، في اليوم التّالي، 3 شباط (فبراير) 2015، كان عيد ميلاد بو السّادس والأربعين. لا يعني ذلك أنّه كان يريدني أن أجعل من هذا اليوم حدثًا كبيرًا. بل كان يتوقّع منّي الاستمرار في أداء وظيفتي، والقيام بذلك بشكلٍ جيّد، بينما كان يصارع من أجل حياته. كان جهد بو، الشّرس ولكن الهادئ، ملهمًا. لقد تجاوز بالفعل المهلة الزّمنيّة من اثني عشر إلى أربعة عشر شهرًا المتوقّعة للبقاء على قيد الحياة لشخصٍ مصاب بورم أرومي دبقيّ متعدّد الأشكال. ولم تُظهِر صور السّكانر الأخيرة أيّ دليلٍ واضح على أنّ الخلايا السّرطانيّة القليلة الّتي لم يتمكّن الدّكتور صوايا من إزالتها قد بدأت في التّكاثر. إنّ مجرّد صمود بو بقوّة، وتصميمه على فعل ما كان عليه فعله للنّجاة، أعطى الأمل للعائلة بأكملها. منذ البداية، في أواخر صيف 2013، اختار بو أكثر المسارات شراسة الّتي يمكن لطبيب الأورام أن يرسمها. عندما أوصى الدّكتور يونغ بأن يتحمّل بو ثلاثة أضعاف كمّيّة الدّواء الكيميائيّ القياسيّ، المسمّى تيمودار، أثناء مشاركته أيضًا في أوّل تجربة ميدانيّة لعلاج دوائيّ تجريبيّ مصمّم لتعزيز تأثير تيمودار، قال بو: «لنقم بذلك». حذّر الدّكتور يونغ من أنّه بالرّغم من وجود أدلّة في الدّراسات الّتي أجريت على الحيوانات على أنّ الدّواء فعّال، لم تكن هناك دراسات بشريّة تدعمه. وقد تكون هناك

أيضًا آثارٌ جانبيّة غير مريحة. قال بو: «إذا كان هناك طفح جلديّ، فسأرتدي أكمامًا طويلة وقبّعة بيسبول. سأكون بخير».

في نيسان (أبريل) 2014، عندما بدأ بو يواجه صعوبات في الكلام بعد حوالي ثمانية أشهر من علاجه، لم يتمكّن الأطباء من التأكّد من فحوصات السكانر ما إذا كانت الصعوبات ناجمة عن نموّ ورم جديد أو عن الآثار المتأخّرة لتعرّضه للإشعاع لمدّة ستّة أسابيع. بعد حصوله على إذن خاصّ من شركة الأدوية، سأل الدّكتور يونغ بو عمّا إذا كان بإمكانه أن يبدأ بتناول دواء جرى اختباره بشكلٍ جيّد، والّذي قد يقلّص التّورّم ويغلق الأوعية الدّمويّة المتسرّبة حول سرير الورم. قال بو: «لنقم بذلك». أعطي بو الدّواء الجديد عن طريق الوريد، وقد تكون الإبرة الكبيرة مؤلمة بشكلٍ لا يصدّق، لكنّه لم يشتكِ أبدًا. عرفت جيل ذلك، فذهبت معه إلى الإجراء الأسبوعيّ في فيلادلفيا، وتأكّدت من حصوله على الممرّضة الألطف، والأكثر خبرةً في الحقن الوريديّ.

بعد بضعة أشهر، في صيف العام 2014، ذهب بو واشترى زورقًا سريعًا جديدًا باهظ الثّمن كي يتمكّن من اصطحاب ناتالي وهانتر في جولات طويلة، وصيد الأسماك في نهر سسكويهانا أو خليج تشيسابيك. أحبّ بو أن يكون على الماء – الرّذاذ يتناثر على وجهه، وصنّارة الصيد في يده – على الرّغم من أنّه كان حريصًا على التّصرّف في أمواله على مرّ السّنين. لم أقل له شيئًا أو لأيّ شخصٍ آخر، ولكنّني وجيل تساءلنا عمّا إذا كان بو قد بدأ يتقبّل فكرة عدم توفّر الكثير من الوقت أمامه. لماذا ننتظر غدًا قد لا يأتي؟ لكن كان من السّهل جدًّا القضاء على هذا القلق كلّما رأيته. فهو لا يزال يبدو بحالٍ جيدة. كان لا يزال يمارس الرّياضة. وكنّا جميعًا نعتقد، كما هو، أنّه إذا تمكّن من الصّمود لفترةٍ كافية، فقد يتغلّب العلم على مرضه. كان هناك الكثير من المجريات في الميدان. قلنا لأنفسنا: قد يظهر دواء غير

مسبوق، أو حتى علاج شافٍ.

تمالك بو نفسه طوال ذلك الصّيف، حتّى آب (أغسطس) 2014، أي بعد عامٍ تمامًا من التّشخيص، عندما فقد فجأة قوّته، وبدأ يشعر بالخدر في ذراعه اليمنى وساقه اليمنى. لم يشكُ. لم يهلع. سأل طبيب الأورام: «ماذا بعد؟». «كيف نحارب هذا؟» اقترح الدّكتور يونغ دواءً أكثر فاعليّة، له آثار جانبيّة محتملة بما في ذلك الغثيان والتّعب وتقرّحات الفمّ وتقلّص الشّهيّة. كما أنّ العقار سيزيد من خطر إصابته بالعدوى وفقر الدّم وحتى أمراض الدّم الأكثر خطورة. قال بو: «لا بأس يا دكتور، لنفعل ذلك». كنت أعلم أنّه لا بدّ وأن يكون محبطًا بحلول ذلك الوقت. لم تكن لديه سيطرة حقيقيّة على ما يفعله المرض أو العلاج بجسده؛ لا سيطرة حقيقيّة على وظيفة دمه؛ لا سيطرة حقيقيّة على شكل فحوصات السّكانر الّتي يجريها كلّ شهرين؛ لا سيطرة حقيقيّة على متى وكيف يمكن أن يبدأ الورم في النّموّ مرّة أخرى. لقد فعل كلّ ما يمكن أن يسيطر عليه. استمرّ في أداء وظيفته بصفته مدّعٍ عام لولاية ديلاوير، وكان يقوم بذلك بشكلٍ جيّد. حصل مكتبه على تسوية بقيمة خمسة وأربعين مليون دولار من بنك أوف أمريكا لسوء سلوك البنك قبل وأثناء وبعد الأزمة الماليّة لعام 2008، وبذلك وصل إجماليّ أرباح الدّولة ومواطنيها من البنوك إلى 180 مليون دولار؛ كما أقنع ثلاثة وأربعين من المدّعين العامّين الآخرين في الولاية بالانضمام إليه في الضّغط من أجل الحصول على أموال فدراليّة لتقديم الدّعم لضحايا استغلال الأطفال في المواد الإباحيّة. قامت «وحدة مكافحة المتحرّشين بالأطفال» الّتي أنشأها بو وأشرف عليها باعتقال وإدانة أكثر من مائتي معتدٍ على الأطفال، وأنقذت 129 طفلًا من أوضاع مؤذية بحلول ذلك الوقت. قال: «كان تركيزي منذ البداية على حماية الفئات الأكثر ضعفًا بيننا، ولا يوجد أحد أكثر ضعفًا من أطفالنا».

واستمرّ بو أيضًا في العودة إلى المنزل ليلًا ليكون مع هالي وناتالي

وهانتر. قال للممرّضة المتخصصة في هيوستن، إيفا لو لي: «أنا أقرأ لأولادي كلّ ليلة. أنا بحاجة إلى وقت لكي أقرأ لأولادي». وكانت المرّة الأولى الّتي التقيا فيها. أصرّ على الصّعود إلى قمة درب جبليّ جميل في رحلتنا العائليّة إلى تيتون، على الرّغم من أنّ ساقه الضّعيفة جعلت من ذلك صراعًا حقيقيًا. رفض بو أن يثقل كاهل أيّ شخص غير شقيقه هانتر، بشأن رهبته الفعليّة، ولا حتّى والدته أو أنا.

إذًا، غدًا يكون عيد ميلاده السّادس والأربعين، 3 شباط (فبراير) 2015، لكنّه لم يرغب باحتفالٍ كبير. وإلى جانب ذلك، ذكّر بو جيل أنّ هذه السّنة هي سنة هانتر. عيد ميلاد هانت يصادف في اليوم التّالي لعيد ميلاد بو، وكان الاثنان يتناوبان دائمًا على اختيار الطّبق الرّئيسيّ لعيدي ميلادهما. ويقول هانت: «فطيرة الدّجاج، أليس كذلك يا أمي؟ معدّة في المنزل».

كان جدول أعمالي ممتلئًا في ذلك الأسبوع، كما هو الحال كلّ أسبوع تقريبًا منذ تشخيص بو. لقد خطّطت لأن يكون الأمر كذلك. عندما عدت إلى واشنطن بعد أن علمنا بإصابة بو بسرطان الدّماغ، استدعيت رئيس الموظّفين لديّ، ستيف ريتشيتي، إلى مكتبي للتّحدّث. كان ستيف يعلم أنّ العائلة بأكملها ذهبت برفقة بو إلى ام دي أندرسون، وكان يعلم أنّنا عدنا بأخبار سيّئة. لكنّه لم يكن يعلم كم كان الأمر سيّئًا. قلت لستيف، بينما استقرّ كلانا على كرسيّينا في مكتبي في الجناح الغربي: «سأخبرك فقط أنّ الوضع خطير جدًّا، وستكون فترة في غاية الصّعوبة. الطّريقة الوحيدة الّتي سأتخطّى بها هذا الأمر، هي بإبقائي منشغلًا فحسب. إملأ جدول أعمالي. حاول أن تستمرّ بكلّ شيء نقوم به عادة. ضعه أمامي، واجعلني أعمل».

ستيف رجل بسيط يسهل التّعامل معه، أثبت استعداده لفعل أيّ شيء أطلبه تقريبًا، لكن يمكنني القول بالطّريقة الّتي كان ينظر بها إليّ أنّ هذا

الطّلب يتعارض مع غرائزه الإنسانيّة الطّبيعيّة. أوضحت له: «انظر، ستيف، سيكون هذا صعبًا عليك أيضًا، لكنّني أناشدك أن تفعل هذا من أجلي. أعرف ما هو الأفضل لأنّني، للأسف، عشت هذا الوضع من قبل. الطّريقة الوحيدة الّتي نجوت بها، الطّريقة الوحيدة الّتي تجاوزت بها المحنة، كانت من خلال البقاء منشغلًا وإبقاء تركيز ذهني على وظيفتي، عندما يكون ذلك ممكنًا».

قال ستيف إنّه سيفعل ما طلبته منه، وكان عند وعده. في الأشهر الثّمانية عشر التّالية، حصل عدّة مرات أن سحبت جيل ستيف جانبًا للتّحدّث معه. كانت تقول له: «جو يجهد نفسه. إنّه مرهق. إنّه لا ينام. سوف يقتله ذلك». لقد وُضع ستيف في موقف صعب. كان يشاطر جيل الرّأيّ. فقد كانت هناك أوقات اعتقد فيها أنّ جدول أعمالي وصل إلى حدّ قاسٍ، لكنّه كان يخضع لأوامر صارمة من رئيسه. لقد توصّل ستيف أيضًا إلى الاعتقاد بأنّ جزءًا من إصراري على مواكبة متطلّبات وظيفتي إنّما هي الرّغبة في أن أثبت لبو وهانت وآشلي أنّني بخير. أنّني ما زلت قادرًا على التّعامل مع أيّ شيء، وكلّ ما يُطلب منّي.

كان ستيف يقول لجيل، بطريقة دبلوماسيّة: «سأكون سعيدًا لفعل أيّ شيء يسمح لي هو بفعله». وبعد ذلك يتآمر الاثنان ليجعلانني أرتاح لبعض الوقت. كنت أصغي إليهما عندما يرفعون القضيّة إلي فأتحلّل من بعض المناسبات أو الاجتماعات القليلة – قبل أن أعود مباشرة إلى أيّام العمل الّتي تستغرق خمس عشرة أو ستّ عشرة ساعة. ثمّ تتّصل جيل بستيف مرّة أخرى وتقول: «هذا يجب أن يتوقّف»، وكان ستيف يقول إنّه موافق، وأحيانًا عندما نكون في المنزل بمفردنا، كانت جيل تقول الشّيء نفسه لي– «عليك أن تتوقّف، جو. سوف تنهار وستمرض. أنا قلقة عليك حقًّا»– ولكنّني لم أكن أوافقها الرّأي بسرعة.

من وجهة نظري، كان ستيف وجيل يبالغون في قلقهم أكثر من اللّزوم.

عندما نظرت إلى جدول أعمالي للأسبوع الأوّل من شهر شباط (فبراير) 2015، لاحظت أنّ هناك الكثير من الأعمال، وبعضها مهمّ حقًا - ولكن كلّها كانت ممكنة.

حتّى أنّ جدولي ليوم الاثنين كان يبدو خفيفًا نوعًا مّا - سلسلة من الاجتماعات في البيت الأبيض وتناول الغداء مع الرّئيس. لكن كان لديّ سفر إلى الخارج في غضون ثلاثة أيّام، وكانت هناك الكثير من الأعمال غير المكتملة الّتي أردت دفعها إلى الأمام قبل مغادرتي البلاد. لذا فإنّ يوم الاثنين هو أفضل فرصة لي للتّركيز على العمل الجادّ الّذي أحتاج إلى القيام به مع الكونغرس. الأوّل على القائمة هو الحفاظ على علاقاتنا مع الحزب المعارض. تواصلت مع زعيم الأغلبيّة الجديد في مجلس النّوّاب للجمهوريّين لدعوته إلى مأدبة إفطار في المرصد البحريّ، حيث يمكن أن نجلس نحن الاثنين على انفراد ونتحدّث عن الجوانب الّتي قد نجد فيها أرضيّة مشتركة للتّعاون بشأن الميزانيّة، أو الإنفاق على البنية التّحتيّة، أو تشريعات الهجرة. كنت قد بذلت جهدًا كبيرًا لتطوير العلاقة مع زعيم الأغلبيّة إريك كانتور، ولكن الآن بعد أن خسر إريك مقعده، كان عليّ أن أبدأ من جديد مع كيفن مكارثي.

كان لديّ بعض المتابعة لصالح وزير الطّاقة، إرنست مونيز، الّذي طلب منّي أن أتولّى زمام المبادرة في دفع خطّة مشروع بقيمة 15 مليار دولار لإعادة بناء البنية التّحتيّة للطّاقة في البلاد. كان هذا إصلاحًا عاجلًا ومطلوبًا للغاية. فانقطاع التّيار الكهربائيّ النّاجم عن العواصف، خاصّة على طول الشّواطئ، يكلّف الأمريكيّين مليارات الدّولارات سنويًا، لأنّ شبكة الكهرباء تحتاج إلى التّحديث. إذ لا يزال هناك عدد غير مبرّر من أنابيب المياه في البلاد مصنوعًا من الخشب. وكانت خطوط الغاز تتسرّب في جميع أنحاء البلاد.. لا عجب في ذلك! حيث يعود تمديد الكثير منها في الأرض إلى عهد

الرّئيس أيزنهاور. كانت كميّات خطيرة من غاز الميثان تتسرّب إلى الغلاف الجـوّيّ فـي كلّ مرحلـة مـن مراحل سلسـلة إمداد الغـاز الطّبيعيّ. ووظيفتي تقضـي بتسـويق الخطّـة للأعضـاء الرّئيسـين فـي مجلـس النّـوّاب ومجلـس الشّـيوخ ، وكنت آمل في الحصول على دعمٍ حقيقيّ من الحزبين. لم يكن إصلاح خطوط إمداد الغاز، على سبيل المثال، مجرّد إجراء وقائيّ ضروريّ للسّلامة؛ بل إنّه سيحسّن الكفاءة في صناعة النّفط والغاز ويخلق فرص عمل. لذلك اتّصلت بـجيم انهوفي، عضو مجلس الشّـيوخ الجمهوريّ من إحدى الولايات المنتجة للنّفط، لإقناعه بأنّه إذا خصّص الكونغرس أموالًا للتّنقيب عن أجزاء الأنابيب الفاشـلة والموصلات السّـيّئة واسـتبدالها، فسيكون ذلك بمثابة فوز لمنتجي النّفط والغاز كما للجماعات البيئيّة.

ثـم أجريـت مكالمـة مـع عضو فـي الكونغرس من منطقة شـمال مدينة نيويـورك مباشـرة، لمعرفـة مـا إذا كان بإمكانـه تخفيـف معارضتـه للاتّفـاق النّوويّ الّذي كان وزير الخارجيّة جون كيري يتفاوض بشـأنه مع إيران. ثمّ اتّصلت بالسّـيناتور توم كاربر، من ولايتي، للتّواصل معه بشـأن صفقة إيران وبخصوص المثلّث الشّماليّ، ولإطلاعه على آخر المستجدّات بشأن الجهود المبذولـة لتخصيـص الأموال لفيلق المهندسـين العسـكريّين ليقوموا بتعميق قنـاة نهـر ديلاويـر. بعد ذلك أجريت اتّصالات بأربعة مشـرّعين آخرين كانوا يدفعون بمشروع نهر ديلاوير.

حتّـى إنّنـي تمكّنـت مـن حشـر محادثـة هاتفيّـة قصيرة فـي جدولي مع رئيس جامعة ديلاوير، الّذي أرادني أن أفكّر في إنشـاء نوع من مركز بايدن للسّياسات في جامعتي بعد أن أترك منصبي بعامين. وهذا جعلني أفكّر بما سـأفعله في غضون عامين، ما أثار مرة أخرى مسـألة التّرشّـح للرّئاسـة. لقد كسبت بعض الوقت للتّوّ بالإعلان في أحد البرامج الصّباحيّة أنّني لن أتّخذ قرارًا حتّى أواخر الصّيف أو أوائل الخريف، وكنت أتوقّع صدور مذكّرة عن

السّباق الرّئاسي من مايك دونيلون، كبير الاستراتيجيّين السّياسيّين وصديقي العزيز، في وقتٍ قريب.

كنت أعرف بالفعل أنّ مايك يؤمن بشدّة بضرورة ترشّحي، وكان يبرّر امكانيّة فوزي بشكلٍ جدّي. لكنّنا كنّا نتحدّث بشكلٍ متقطّع عن انتخابات العام 2016 منذ ما يقرب العامين حتّى الآن، وأنا متأكّد من أنّ مايك كان قلقًا بشأن المشروع بأكمله. لم يضغط أبدًا، لأنّه رجل لطيف ومراعٍ، وكان يعلم أنّ بو لم يكن على ما يرام – رغم أنّني كنت حذرًا في الطّريقة الّتي تحدّثت بها عن ذلك. لو اعترفت لمايك أو أيّ شخصٍ آخر في ذلك الوقت أنّ مرض بو قد يجعل من المستحيل عليّ أن أترشّح، لَعلِمَ أنّ بو في ورطة حقيقيّة. ولم يكن بو يريد لأيّ شخص من خارج العائلة أن يعرف، ولا حتّى الأصدقاء المقرّبين. لذلك طلبت ببساطة من كلّ من مايك وستيف القيام بكلّ ما في وسعهما لوضعي في موضع يسمح لي بتنظيم حملة جادّة، إذا قررت التّرشّح. تولّى مايك هذه المهمّة بصفته خبيرًا سياسيًا وصديقًا. إنّه شديد الانتباه ومتبصّر، وقد كان إلى جانبي لأكثر من عشرين عامًا، لذلك فهِمَ دون أن أقول ذلك: إنّ الحفاظ على إمكانية التّرشّح قائمة، يمثّل أمرًا مهمًا لروحي المعنويّة. لقد كان يعلم أنّ وجود هذا الهدف مرئيًا، وحتّى لو كان في أفقٍ بعيد إلى أبعد حدّ وربّما بعيد المنال، سيساعدني على تجاوز النّهار.

أثار الرّئيس أوباما موضوع السّباق الرّئاسيّ 2016 مرّة أخرى خلال غدائنا الخاصّ في ذلك اليوم، بمجرّد أن اكتفى بالحديث الجادّ حول السّياسة. كان يعلم أنّني أتعرّض للضّغط من قبل عددٍ من الأشخاص للدّخول في السّباق، وكان قد سمع عن حركة «مشروع بايدن»، المكمّلة بملصقات كبيرة : «أنا مرشّح مع بايدن». كان الرّئيس يناشدني الحذر. لقد أرادني أن أضمن عدم السّماح لهذه التّرثرة بأن تطغى. لم يكن يريدني أن أبدو متقلّبًا في حال قرّرت عدم التّرشّح. قال: «يهمّني جدًّا حماية إرثك السّياسيّ. أنا حقًّا أعني ذلك».

أكّدت له أنّني لم أفعل أيّ شيء لتعزيز هذا الجهد؛ وأنّ مايك دونيلون على وشك تسليمي مذكّرة حول كيفيّة التّرشّح، إذا ما كنت سأترشّح بالفعل، لكنني كنت بعيدًا عن القرار. قال: إنّ عليّ أن آخذ وقتي وأستوعب حقًّا مذكرّة مايك. عليّ أن أتناول القرار بشكلٍ منهجيّ - أن أدخل جميع أرقام الاستطلاع والمتغيّرات السّياسيّة وأطلب المشورة من خارج فريقي. اقترح أن أتحدّث إلى مسؤول الاستطلاع لديه، وكبير الاستراتيجيّين وأسمح لهما بقراءة ورقة مايك. قال: إنّ بامكاني الوثوق بهما لجهة إبقاء الأمر سرًّا. قال الرّئيس: «إنّهم أفضل خبراء الأرقام في البلاد. ستأخذهما هيلاري في دقيقة إذا استطاعت». أعتقد أنه لم يكن يعلم أنّ أحدهما على الأقلّ كان قد شرع في مساعدة هيلاري. ثمّ قال باراك إنّه سيكون سعيدًا بقراءة المذكّرة أيضًا وإعطائي تقييمه. وأضاف واعدًا: «سأكون صريحًا معك».

بعد يومين وأنا أتناول الإفطار في المرصد البحريّ مع هيلاري كلينتون - اجتماع بناءً لطلبها. لم تكن قد أعلنت بعد عن ترشّحها أو حتّى صرّحت ما إذا كانت ستعلن، لكنّها قامت بالفعل بتجميع بنية لحملة كبيرة، وبدأت في تصيّد بعضًا من الموظّفين لديّ، لذلك راح أقرب مستشاريها يشجّعونها لأسابيع على التّواصل معي والتّعامل بلطف. اعتقد مسؤولو حملة كلينتون أنّ الاجتماع يستحقّ كلّ هذا العناء، على الرّغم من أنّهم كانوا متأكّدين من أنّ ما ستكشفه لي سوف يتسرّب. أعتقد أنها كانت أعقل من ذلك.

وصلت هيلاري في السّاعة الثّامنة من صباح ذلك الأربعاء وجلسنا إلى طاولة الطّعام في المكتبة الصّغيرة، خلف غرفة الاستقبال الرّئيسة مباشرة. اعتدت أنا وهي على عقد اجتماعاتٍ منتظمة في تلك الغرفة عندما كانت وزيرةً للخارجيّة، وتأتي لتناول الإفطار للحصول على رأيي حول وضعها مع الرّئيس. كان باراك رئيسًا تصعب قراءته، خاصّة بالنّسبة للأشخاص الّذين لم

يقضوا الكثير من الوقت معه، لذلك أعتقد أنّها استخدمتني لتهمس لأوباما. لكنّ بات لهيلاري أجندة جديدة تمامًا في صبيحة ذلك اليوم من شهر شباط (فبراير)، وقد انتقلت إليها مباشرة. بدأت بإخباري كم أنّني نائبٌ جيّد للرّئيس، وكم قدّمت للبلاد خلال مسيرتي المهنيّة، وكيف أنّني اكتسبت الحقّ في التّرشّح للرّئاسة. ثمّ سألتني بشكلٍ مباشر عمّا إذا كنت سأنتهز الفرصة؟ لم أشعر أنّ بامكاني أن أخبرها الحقيقة بشأن بو. كان كلّ ما قلته: «لست في وضع يسمح لي باتّخاذ قرار الآن، وأعتقد أنّني سأنتظر». وأكّدت لها أنّني إذا دخلت السّباق للفوز بترشيح الحزب الدّيمقراطيّ، فسوف أترشّح بهدف التّرشّح، وليس ضدّها. وسيكون ترشيحي لأنّني اعتقد أنّني أفضل مرشّح في الوقت الحاليّ. قلت لها: ولكن إذا ترشّحت، فلن أشنّ حملة سلبيّة. بدورها أكّدت الشّيء نفسه. وأضافت: «رغم أنّ بعض مؤيّدينا قد يخرجون عن السّيطرة في بعض الأحيان، ولكنّ هذا لا يعني أنّه أنا».

أخبرتني هيلاري أنّها فكّرت مليًا في الأمر لفترة طويلة، وقرّرت السّعي للحصول على ترشيح الحزب. قالت: «أكنّ لك الكثير من الاحترام ولكلّ ما فعلته، وأردت فقط أن أخبرك شخصيًا». أخبرتني أنّها ليست مستعدّة للإعلان على الفور، وستكون ممتنّة إذا التزمت الصّمت. وهذا ما فعلته. لم أخبر أحدًا.

عندما أوصلتها إلى الباب الأماميّ في طريقها نحو الخارج، كنت متأكّدًا تمامًا من أنّ هيلاري لم تحصل على كلّ ما جاءت من أجله في ذلك الصّباح. أعتقد أنّها كانت تأمل أن تسمعني أقول: إنّني سأنسحب. وإنّني لن أسعى للحصول على ترشيح الحزب. لكنّني لم أستطع القيام بذلك بعد. رافقتها إلى الباب، وعانقتها بحرارة، قبل أن أودّعها.

شعرت بقليل من الحزن على هيلاري عندما شاهدتها تنزل الدّرج في ذلك الصّباح. كانت مصمّمة كما هي دائمًا، وواثقة من قدرتها على القيام

بالمهمّة. كما أنّها كانت تتقدّم عليّ وعلى كلّ مرشّح ديمقراطيّ محتمل آخر في استطلاعات الرّأي المبكرة جدًا. يعتقد المحلّلون السّياسيّون الحكيمون أنّها كانت على الأرجح في طريقها إلى تحقيق نصرٍ تاريخيّ – أوّل امرأة تصل إلى البيت الأبيض. لكنّها لم تُظهر الكثير من البهجة إزاء احتماليّة ترشّحها، ربّما أخطأت في قراءتها تمامًا ذلك الصّباح، ولكنّها بدت لي كشخص مدفوعٍ بقوى ليست من صنعها بالكامل. ولم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّها فهمت مدى وحشيّة الحملة بالنّسبة لها. ما كانت على وشك القيام به يتطلّب شجاعة حقيقيّة.

شعرت بالرّاحة عندما كنت في الجوّ في صباح اليوم التّالي، محلّقًا شرقًا فوق المحيط الأطلسيّ، مع شروق الشّمس، متوجّهًا نحو أعمال جادّة يترتّب عليها تداعيات. إضافة إلى ذلك، كان معي حفيدتي البالغة من العمر ستة عشر عامًا، فينيغان بايدن، طوال الرّحلة بأكملها. لقد تأكّدت من أنّ المحطّة الأخيرة في أوروبّا، على الطّريق مباشرة من اجتماعي الرّسميّ الأخير، ستكون فعليًّا مجرّد وقت خاصّ لي ولفينيغان. كانت نيابة الرّئاسة على مستوى آمال جيل في أن تكون مغامرة جديدة لجميع أفراد الأسرة. كان أحد الامتيازات العظيمة للمنصب هو القدرة على اصطحاب أحفادي الأكبر سنًّا حول العالم. لقد كانت تجربة تعليميّة رائعة بالنّسبة لهم، ولم تكن عبئًا عليّ أو على طاقمي. زار أحدهم على الأقلّ كلّ قارّة باستثناء القارّة القطبيّة الجنوبيّة. شاهدت أحفادي الصّغار، ناتالي وهانتر، وهما يطفوان على سطح البحر الميّت، ويلتقيان بملك الأردن، ويزوران الإمارات العربيّة المتّحدة والخليج العربيّ. شاهدت حفيدتي الكبرى، نعومي، وهي تجرّب لغة الماندرين الّتي تعلّمتها في الجامعة خلال عشاءٍ رسميّ في الصّين؛ رأيت أختها الصّغرى، مايسي، تلتقي بأصدقاء جدد في مصر وكينيا وتنزانيا

وسيراليون، ثمّ تلعب كرة القدم المصغّرة في الملعب حيث كانت جنوب إفريقيا تستضيف نهائيّات كأس العالم؛ شاهدت فينيغان وهي تقيّم الوجود العسكريّ لكوريا الشّماليّة من مكان إقامتنا عبر المنطقة المجرّدة من السّلاح، تقديرًا منها أنّ الموضوع سيشكّل ورقة مدرسيّة رائعة.

في وقتٍ لاحق، قالت لي وهي تشير إلى الخريطة: «لديهم كل هذه الأسلحة الثقيلة، مثل المدافع الكبيرة، أليس كذلك، يا جدّي؟»

قلت: « نعم».

قالت مشيرة إلى الخريطة مرة أخرى: «هل تدرك أنّ الكوريّين الشّماليّين يمكنهم القضاء على مائة وعشرين ألف شخص في سيول، وربّما أكثر من ذلك بكثير، إذا أطلقوا كامل مدفعيّتهم؟ المدفعيّة هنا في هذه المنطقة».

كانت فينيغان أكثر أحفادي إلحاحًا. اتّصلت بي ذات صباح في أوائل العام 2011، في منتصف فترة الفصل الدّراسيّ الأوّل تقريبًا، بمجرّد أن وصل الخبر إلى الصّحف أنّني سأقوم برحلتي الأولى إلى موسكو بصفتي نائبًا للرّئيس. كانت في الثّانية عشرة من عمرها. قالت فينيغان: «جدّي، هل يمكنني الذّهاب معك إلى روسيا؟»

ذكّرتها قائلًا: «عزيزتي، لديكِ مدرسة».

وأوضحت: «جدّي، إذا تحدّثتَ مع أبي، وقلت للمعلّمة إنّني سوف أتعلّم الكثير في هذه الرّحلة أكثر ممّا أتعلّمه في المدرسة، فسيقولان نعم. وتذكّر يا جدّي. أوروبا الشّرقيّة وروسيا هي أرضي».

كانت بنات هانتر تشبهن إلى حدّ ما القوى العظمى في أواخر القرن التّاسع عشر. فقد رسمن مجالات نفوذهنّ الخاصّة في جميع أنحاء العالم. قالت فينيغان: «تذكّر أنّ نعومي هي الصّين والشّرق الأقصى. مايسي هي أفريقيا. و أنا أوروبا».

انتهى بها الأمر بالحصول على إذن للقيام بالرّحلة، مع بعض الدّعم

منّي، وظلّت بجانبي طوال الوقت. توقّفنا أولًا في هلسنكي، حيث التقت فينيغان برئيسة فنلندا ورئيسة وزرائها- وكلاهما امرأتان. في رحلة بالطّائرة إلى موسكو بعد ذلك، التفت شخص من طاقم العمل إلى فينيغان وقال: «أليس من الرّائع مقابلة امرأتين تديران ذلك البلد؟»

أجابت فينيغان: «هل تعرف ما الأروع؟ أنّ ما يقرب من نصف أعضاء البرلمان من النّساء».

في تلك الرّحلة، لم يكن هناك سوى عددٍ قليل من الأماكن الّتي لم يُسمح فيها لفينيغان بمرافقتي. كان عليها أن تنتظر بصبر في غرفة الانتظار في مكتب فلاديمير بوتين الخاصّ في موسكو عندما كنت مجتمعًا مع الزّعيم الروسيّ. كان بوتين ينتظر فترة ولايته كرئيسٍ لوزراء روسيا بينما كان ربيبه، دميتري ميدفيديف، يشغل منصب نائب مؤقّت في الرّئاسة. كان الرّئيس أوباما يعمل بجدّ لتقوية علاقتنا مع الحكومة الرّوسيّة. وقد أقنعت إدارتنا ميدفيديف (ما يعني فعليًّا بوتين) بالتّوقيع على معاهدة جديدة رئيسة دعت إلى تخفيضٍ ثنائيّ هائل للأسلحة النّوويّة، لكنّ العلاقة كانت تظهر بالفعل توتّرات جديدة. كنت في موسكو لأثبت أنّ روسيا ليس لديها سبب للخوف من إعادة نشر منصّات الإطلاق لدرع الدّفاع الصّاروخيّ في أوروبّا، والّتي كانت مصمّمة لاعتراض الهجمات من إيران. لم يكن بوتين سعيدًا بأن يعاد وضع قاذفات الصّواريخ في بلدان قريبة جدًا من حدوده، مثل بولندا ورومانيا، وظلّ يؤكّد أنّ الصّواريخ الاعتراضيّة كانت تستهدف الصّواريخ الرّوسيّة. لقد أرسل بالفعل ميدفيديف إلى الخارج ليهدّد بالابتعاد عن جميع معاهدات الأسلحة النّوويّة، القديمة والجديدة، ممّا سيعيد العالم إلى حربٍ باردة جديدة. كنت هناك لشرح التّغييرات المخطّط لها على النّظام، ولتقديم صورة كاملة وشفّافة حول النّشر والتّشغيل، وللتّأكيد لبوتين أنّها لم تُصمّم- ولن تتدخّل- في الدّفاعات الاستراتيجيّة لروسيا.

لـم أكـن متأكّـدًا ممّـا كان بانتظـاري. قال الرّئيس جـورج دبليو بوش مقولتـه الشّـهيرة: إنّـه نظـر فـي عينـيّ بوتيـن و «أحسّ بروحـه». أردت أن أرى بنفسـي. وفـي حيـن شـجّعتني رغبة بوتين علـى التّوقيع على معاهدة الأسلحة النّوويّة، كنت أعتقد أنّ الزّعيم الرّوسيّ أثبت أنّه لا يستحقّ ثقتنا فـي كلّ الحـالات الأخـرى تقريبًـا. ولم يُبدّد اجتماعنا في ذلك اليوم تلك الفكـرة. كان الاجتمـاع طويـلًا وخلافيًّـا. كان بوتيـن هادئًـا طوال الوقت، لكنّـه كان يجـادل مـن البدايـة إلـى النّهايّـة. شـرحت أنّـه مـا دامـت إيران تشـكّل تهديـدًا نوويًّـا، فـإنّ حماية الولايات المتّحـدة وحلفائها في أوروبا يصبّ في مصلحتنا الحيويّة. لقد غيّر الموضوع، واشـتكى من أنّ الإدارة السّـابقة كذبـت عليـه وهاجمـت علنًـا سـجلّه في مجال حقوق الإنسـان. سحبت الخرائط لأوضّح له المسار المقترح للصّواريخ المعترضة، لأؤكّد لـه أنّ نظـام دفاعنـا الصّاروخـيّ لم يكـن موجّهًا إلى صواريخه الباليسـتيّة العابرة للقارات. اختلف بشدّة ودعا مستشاريه العسكريّين لدعمه. استمرّ الاجتماع لسـاعات وتناول نقاط الخلاف الأخرى. شـرحت لبوتين، على سـبيل المثال، أنّنا في حين كنّا نعارض بشـدّة الاحتلال الروسـي لأجزاء مـن جورجيـا، فنحـن لم نشـجّع الرّئيـس الجورجي ميخائيل ساكاشـفيلي على إثارة المشاكل. قلت: «أتحدّث إلى ساكاشفيلي بانتظام عبر الهاتف، وأحثّـه علـى عـدم القيـام بأعمال اسـتفزازيّة، تمامًا كمـا أحثّك على إعادة السّيادة إلـى جورجيـا». أجاب بوتيـن: «أوه، نحن نعرف بالضّبط ما تقوله للسيّد ساكاشفيلي على الهاتف».

لم نقترب أبدًا من اتّفاق متبادل مُرضٍ حول الدّرع الصاروخيّ. أخبرت بوتين أخيرًا أنّنا سـنبقيه على اطّلاع، لكنّنا سـنمضي قدمًا في إعادة الانتشـار المخطّط لها. لم يكن سعيدًا. مع اقتراب نهاية الاجتماع، طلب منّي بوتين إلقـاء نظـرة علـى مكتبه. كانت المفروشـات متقنة ومثيـرة للإعجاب. قلت،

محدّقًا في السّقف العالي: «إنّه لأمر مدهش ما ستفعله الرّأسماليّة، أليس كذلك؟ رائع».

عندما عدت بنظري إلى الأسفل، كنت أواجهه وجهًا لوجه. فقلت له مبتسمًا: «السيّد رئيس الوزراء، إنّني أنظر في عينيك. لا أعتقد أنّ لديك روح.»

نظر إليّ لبرهة وابتسم مجدّدًا. وقال: «نحن نفهم بعضنا بعضًا».

وفعلًا فهمنا.

بعيدًا فوق المحيط الأطلسي بعد ظهر ذلك الخميس، بعد أربع سنوات، كنّا نطير بسرعة تزيد عن ستمائة ميل في السّاعة، جلست في مقصورتي الصّغيرة أتصفّح كتب الإحاطة الاستخباراتيّة الموجزة وأتحدّث مع موظّفي السّياسة الخارجيّة الموثوقين حول ما نحتاج إلى تحقيقه بالضّبط في هذه الرّحلة. كانت طائرة الرّئاسة الثّانية ستهبط في ذلك المساء في بروكسل، حيث سأعقد اجتماعات مقرّرة مع كبار قادة الاتّحاد الأوروبيّ واجتماعات فرديّة مع رئيس وزراء بلجيكا في اليوم التّالي. ولكن كان هذا مجرد استعدادٍ للعمل المهمّ في مؤتمر ميونيخ للأمن في نهاية ذلك الأسبوع. كان المؤتمر الأمنيّ أشبه بالعودة إلى نقطة البداية ومواجهة تصفية حساب جديدة مع فلاديمير بوتين، الّذي أصبح مرّة أخرى رئيسًا للاتّحاد الرّوسيّ- ويتصرّف بشكلٍ سيّء. كنت قد حضرت مؤتمر ميونيخ للأمن في العام 2009، بعد ثلاثة أسابيع فقط من تولّينا المنصب، لإلقاء خطابٍ يعرض أهداف الرّئيس أوباما الرّئيسة في السّياسة الخارجيّة للجمهور العالميّ. جزءٌ من هذا الخطاب كان موجّهًا لبوتين.

يحتاج الزّعيم الروسيّ إلى سماع التزام الرّئيس بأمن أوروبا، فضلًا عن رغبته في أن تكون روسيا شريكًا في هذا الجهد. قلت: إنّ إدارتنا الجديدة تدعم «زيادة تعزيز الدّفاع الأوروبيّ، وزيادة دور الاتّحاد الأوروبيّ في الحفاظ على السّلام والأمن، وشراكة أقوى بين النّاتو والاتّحاد الأوروبيّ

بشكل أساس، وتعاون أعمق مع الدّول خارج الحلف الّتي تشاركنا أهدافنا ومبادئنا المشتركة. وترفض الولايات المتّحدة فكرة أنّ مكاسب النّاتو هي خسارة لروسيا، أو أنّ قوّة روسيا هي ضعف للنّاتو...

«لقد حان الوقت – كما يقول الرّئيس أوباما – حان الوقت للضّغط على زرّ إعادة الضّبط وإعادة النّظر في العديد من المجالات حيث يمكننا العمل جنبًا إلى جنب مع روسيا... يمكن للولايات المتّحدة وروسيا أن تختلفا وتستمرّا في العمل معًا حيث مصالحنا تتطابق. وهي تتطابق في أماكن كثيرة». لقد أوضحت موقف الرّئيس بشكلٍ كامل. كنّا منفتحين على التّعاون، ولكن كانت هناك قواعد أساسيّة.

أكّدت للمؤتمرين بأنّنا «لن نعترف بأيّ دولة لديها مجال نفوذ»، وأدرك الجميع في تلك القاعة أنّني قصدت أنّ الولايات المتّحدة وحلفائها في النّاتو لن يسمحوا لروسيا بإجبار الجمهوريّات السّوفياتيّة السّابقة على العودة إلى مدارها ضد إرادتها. «سيظلّ رأينا هو أنّ الدّول ذات السّيادة لها الحقّ في اتّخاذ قراراتها واختيار تحالفاتها الخاصّة».

كانت إدارتنا تسعى إلى تعزيز النّظام الدّوليّ اللّيبراليّ الّذي كان قائمًا منذ أربعين عامًا وتوسيعه: أوروبا حرّة وكاملة وفي سلام، مع وجود حدود آمنة ومتّفق عليها لكلّ دولة مستقلّة.

بحلول فبراير 2015، بينما كنت أتّجه نحو ميونيخ، أشار فلاديمير بوتين إلى أنّه لم يعد سعيدًا بالالتزام بالقواعد الّتي قبلها القادة السّوفيات كجزء من اتفاقيّة هلسنكي التّاريخيّة بعيدة الأثر في العام 1975. كان على استعداد لاختبار مدى تصميم أوروبا على مبدأ حرمة الحدود، وكان يفعل ذلك دون عقاب في أوكرانيا. كان هدفي الرّئيس في ميونيخ هو الاستمرار في تشجيع حلفائنا الأوروبيّين على الوقوف معنا، للتأكّد من أنّ بوتين يفهم أنّ روسيا ستدفع ثمنًا للتّنمّر على جارٍ أضعف.

كان الشّعب الأوكرانيّ يتأرجح في سلسلة من الأحداث المثيرة والمروّعة في بعض الأحيان خلال العام السّابق، شعرت وكأنّني معه في ذلك. لقد تطوّرت المظاهرات الشّعبيّة، التي بدأت في إحدى ساحات كييف في أواخر العام 2013، عندما نكث الرّئيس فيكتور يانوكوفيتش وعده بالانضمام إلى الاتّحاد الأوروبيّ، من اندلاع تلقائيّ إلى حركةٍ سياسيّة حقيقيّة – تعامل معها الرّئيس يانوكوفيتش بشكلٍ سيّء. كنت أعرف يانوكوفيتش وعملت معه منذ العام 2009، وأدركت أنّه في موقفٍ صعب. بينما تصاعد الضّغط الشّعبيّ على يانوكوفيتش للوفاء بتعهّده بخصوص الاتّحاد الأوروبيّ، كان من الواضح أنّ بوتين يشدّد الخناق عليه لمقاومة الحركة وربط البلاد بشكلٍ أوثق بروسيا. لم يتعامل يانوكوفيتش مع الموقف بشكلٍ جيّد. قاوم ثورة الكرامة الدّيمقراطيّة في ميدان نيزاليزنوستي بقوّة متزايدة، وأطلق شرطة مكافحة الشّغب في شوارع كييف لتعطيل المتظاهرين وإصابتهم وقتلهم في النّهاية. وجد المتظاهرون في الميدان أنفسهم في منطقة حرب، حيث عانوا من حصارٍ وحشيّ استمر ثلاثة أشهر في عزّ الشّتاء. رفضوا التّراجع، حتّى في مواجهة الموت، وحوّلوا السّاحة، الّتي انطلق منها الاحتجاج، إلى معسكرٍ مسلّح. استولى المتظاهرون على المباني الإداريّة وأقاموا حواجز حتّى يتمكّنوا من إقامة مراكز للقيادة وقاعات للطّعام ومراكز لإغاثة الأشخاص الّذين تعرّضوا للضّرب، وأريقت دماؤهم على أيدي رجال شرطة يانوكوفيتش بالزيّ الرسميّ، وبلطجيّته باللّباس المدنيّ. نمت حشود المتظاهرين إلى أكثر من خمسين ألفًا وظلّت تنمو. وبحلول منتصف شباط (فبراير) 2014، كانوا يتّجهون نحو مبنى البرلمان.

لقد أجريت آخر مكالمة من المكالمات الكثيرة العاجلة مع يانوكوفيتش في أواخر شباط (فبراير) 2014، عندما كان قنّاصوه يغتالون مواطنين أوكرانيّين بالعشرات، وكانت لدينا تقارير موثوقة تفيد بأنّه كان يفكّر في حملة قمع أكثر

شراسة. كنت أنبّهه منذ شهور لضرورة ممارسة ضبط النّفس في التّعامل مع مواطنيه، لكن في هذه اللّيلة، بعد ثلاثة أشهر من المظاهرات، كنت أخبره أنّ الأمر قد انتهى. حان الوقت كي يسحب مسلحيه ويبتعد. لقد ذكّرته بأنّ مؤيّديه الحقيقيّين الوحيدين هم رعاته السّياسيّون وموظّفوه في الكرملين، ويجب ألّا يتوقّع من أصدقائه الرّوس إنقاذه من هذه الكارثة. قلت: إنّ الشّعب الأوكرانيّ قد فقد ثقته بيانوكوفيتش، وسيحاكمه التّاريخ بقسوة إذا استمرّ في قتلهم. فرّ الرّئيس المشين من أوكرانيا في اليوم التّاليّ – بفضل شجاعة المتظاهرين وتصميمهم – وانتهى المطاف بالحكومة أن وصلت مؤقّتًا إلى يد وطنيّ شاب يدعى أرسيني ياتسينيوك.

أعقب الابتهاج في أوكرانيا أخبار سيّئة بعد بضعة أيّام. استاء فلاديمير بوتين لأنّه فقد دميته في كييف، فأرسل على الفور قوّةً عبر الحدود وضمّ إقليم القرم الأوكرانيّ. أدان الغرب هذا الضّمّ ولكنّه لم يحرّك ساكنًا. وواصل بوتين تحرّكه. فهدّد ولايات أخرى في شرق أوكرانيا خلال الأشهر السّتّة التالية وأرسل وحدات الدّبابات الروسيّة عبر الحدود لقتل الأوكرانيّين الّذين يقاومون. حتّى اتّفاقية مينسك لوقف إطلاق النّار الّتي وقّعها في أيلول (سبتمبر) 2014، لم تفعل شيئًا يذكر لعرقلة تقدّمه. حيث قُتل ما يقرب من ألف شخص في الشّهرين التّاليين لدخول وقف إطلاق النّار حيّز التّنفيذ. ارتفع عدد الأوكرانيّين المشرّدين داخليًا إلى خمسمائة ألف، وكذلك عدد اللّاجئين الأوكرانيّين. في بداية شباط (فبراير) 2015، بينما كنت في طريق عودتي إلى أوروبا، كان الانفصاليّون المدعومون من بوتين يشنّون هجومًا على الجنود الأوكرانيّين المسيطرين على دبالتسيف، وهو طريق استراتيجيّ وتقاطع للسّكك الحديديّة على بعد خمسين ميلًا من الحدود الرّوسيّة. وكان بوتين يبذل كلّ ما في وسعه لزعزعة استقرار الاقتصاد الأوكرانيّ وفرض انهيار الحكومة المنتخبة حديثًا في كييف.

كنت الرجل الأساس الّذي يمثّل إدارتنا بشأن الأزمة، وهذا بالضّبط الموقع حيث أردت أن أكون. كان هناك أكاديميّون في الأخبار يقولون إنّ أوكرانيا ستشكّل حتمًا هزيمة للغرب، وستكون عبئًا غير مرحّب به على كاهلي إذا ترشّحت لمنصب الرّئاسة في العام 2016. قال باحثٌ رئاسيّ من بنسلفانيا لأحد المراسلين: «إنّه مرتبط بسياسة أوكرانيا. لذا فقد يكون في وضعٍ خطر». لم أهتمّ كثيرًا. كان هناك مبدأ هام على المحكّ: يجب على الدّول الكبرى ألّا تعتدي على الدّول الأصغر، خاصّة بعد أن تكون قد قطعت وعدًا بألّا تفعل. وما جعل الهجوم على أوكرانيا يثير السّخط بشكلٍ خاص هو أنّ بوتين انتهك قاعدة دوليّة راسخة منذ فترة طويلة، فضلًا عن التّوصّل إلى اتّفاقٍ صريح. وكانت أوكرانيا قد تخلّت عن برنامجها للأسلحة النّوويّة قبل سنوات – مقابل ضمان من الولايات المتّحدة والمملكة المتّحدة وأيضًا من روسيا باحترام حدودها وسيادتها. وقد أوفت دولتان من الدّول الثلاثة الكبرى بهذا الوعد.

هبطنا في ميونيخ الّتي يكتنفها الضّباب ليلة الجمعة، 6 شباط (فبراير) 2015، وبينما ركبت أنا وفينيغان في الموكب باتّجاه فندق واستن جراند في الشّوارع المظلمة المضاءة بالأصفر والمغطاة بالثّلوج، فكّرت في ما يجب فعله خلال زيارتي القصيرة للمدينة. كنت أشقّ الطّريق من خلال ثقب الإبرة الضّيّق جدًا خلال العام الماضي في أزمة أوكرانيا. كان الرّئيس أوباما متعاطفًا كلّ التّعاطف مع أوكرانيا، لكنّه لن يسمح لهذا الصّراع الإقليميّ بالتّصاعد إلى حربٍ ساخنة مع روسيا. درس باراك تاريخ العالم الحديث، وكان ثاقب البصر. لقد كان دائمًا حذرًا من ارتكاب الخطأ التّاريخيّ المتمثّل بالسّماح لنار المشاحنات الصّغيرة أن تستعرّ دون قصد حتّى تصبح حرائق مرعبة خارج سيطرة أحد. وكان يدرك تمامًا أنّ أكبر الأخطاء غير القسريّة

الّتـي ارتكبتهـا الولايـات المتّحدة بعد الحـرب العالميّة الثّانية لم تكن نتيجة الكثير من ضبط النّفس، بل كانت نتيجة القليل جدًا منه. كان يحذّرني أحيانًا من المبالغة في الوعود للحكومة الأوكرانيّة الجديدة: «جو، نحن لن نرسل إليهم ايربورن 82 (القوّات الخاصّة المحمولة جوًّا)، عليهم أن يفهموا ذلك». اتّفقت أنا والرّئيس على أنّ بامكاننا، بل علينا إقناع حلفائنا الأوروبيّين بدعم العقوبات الاقتصاديّة الجدّيّة ضدّ روسـيا وتوسـيع نطاقها. ولكنّ العقوبات الاقتصاديّـة كانـت فـي حدود ما قد تذهب إليه الولايات المتّحدة وحلفاؤها في أوروبا.

كان الرّئيس أوباما دائمًا على وعيٍ بمخاوف الدّول الأربع الكبرى في أوروبـا – بريطانيـا وألمانيـا وفرنسـا وإيطاليا – الّتـي كان على اتصال بقادتها باسـتمرار. كانـت العضـو البـارز فـي الرّباعيّـة، المستشـارة الألمانيّة أنجيلا ميركل، قد أعربت عن قلقها بشأن «المواجهة [في أوكرانيا] الّتي قد تخرج عن نطاق السّيطرة». كانت هي والآخرون أكثر قلقًا بشأن ردّ الفعل السّياسيّ العنيـف الّـذي قـد يواجهونـه فـي الدّاخل عندمـا تبدأ العقوبـات الاقتصاديّة والحصار على روسـيا في إلحاق الضّرر بأوسـاطهم التّجاريّة. ولم يكن أيّ منهم متحمّسًا لإنفاق رأسماله السّياسيّ لإنقاذ ديمقراطيّة ناشئة أظهر قادتها ميلًا للفسـاد واسـتغلالًا للمناصب وسـلوكًا مدمّرًا للذّات. ربما تأثّرت في تفكيري من خلال اتّصالاتي المتكرّرة مع قادة حلفائنا الأحدث في أوروبا – فـي بولنـدا ورومانيـا ودول البلطيـق والبلقان. بدت خطوة بوتين في أوكرانيا وكأنّها طائر الكناري في منجم الفحم بالنّسبة لهم. كانوا خائفين من أنّه إذا لـم يقـف الغـرب بحـزم هناك، فقد يبدأ بوتين في اقتطاع أجزاء من أراضيهم بالقرب من الحدود الرّوسيّة. أو أكثر من ذلك.

اقتربت السّاعة من العاشرة ليلًا عندما استقرّينا أنا وفينيغان وطاقم العمل أخيرًا في غرفنا في فندق واستن، لكنني لم أجد نفسي مستعدًا للنّوم. نظرت

إلى كتب الإحاطة الاستخباراتيّة الموجزة مرّة أخرى وبدأت في التّخطيط للأيّام القليلة التّالية. كنت سألقي كلمة في مؤتمر ميونيخ بعد ظهر يوم السّبت وكان لديّ أكثر من ستّة اجتماعات رسميّة مقرّرة في نهاية هذا الأسبوع. والأهمّ من ذلك هي المحادثات الثّلاثيّة قبل ظهر يوم السّبت مباشرة مع الرّئيس الأوكرانيّ بترو بوروشينكو والمستشارة ميركل. كانت ميركل والرّئيس الفرنسيّ فرانسوا هولاند في خضمّ مفاوضات متوتّرة مع بوتين حول تحديد وتنفيذ نسخة جديدة ومحسّنة من اتفاقيّة مينسك الهشّة لوقف إطلاق النّار. كان لدى ميركل مكالمة هاتفيّة مع بوتين من المقرّر أن تجري في اليوم التّالي، لذلك أردت أن أكون هناك إلى جانب بوروشنكو في اجتماعنا الثّلاثيّ لضمان إدراك ميركل أنّ الولايات المتّحدة لا تزال مستعدّة للوقوف بجانبه بقوّة، ومع حدود دولته. لكن قبل أيّ شيء، أردت التّأكّد من أن أكون حاضرًا أثناء خطاب ميركل في المؤتمر الأمنيّ. لذلك كان هذا هو أوّل بند على جدول أعمالي العام- بعد أقلّ من عشر ساعات.

بدت المستشارة قويّة في خطابها صباح اليوم التّالي، وقالت: إنّ أوكرانيا «ترى كلًا من وحدة أراضيها وسيادتها موضع تجاهل. ويجري انتهاك القانون الدّوليّ». لكنّها لم تكن قويّة بما يكفي كما كنت أتمنّى؛ وقد أضعف بيانها استخدام صيغة المجهول. كما إنّني شعرت بخيبة أمل عندما رفضت رفضًا قاطعًا، بعد خطابها، التّفكير في تقديم أيّ أسلحة حقيقيّة للجيش الأوكرانيّ الأضعف. وقالت: «لا يمكن تحقيق التّقدّم الّذي تحتاجه أوكرانيا بمزيد من الأسلحة». بدت وكأنّها تحظى بتعاطف الحشد في هذه النّقطة.

غادرت حدث ميركل، وأخبرت موظفيّ بأنّه يتعيّن علينا مراجعة خطابي. يجب أن تكون كلمتي مباشرة وتصريحيّة قدر الإمكان. كان لدينا أقلّ من أربع ساعات لإصلاح الخطاب، وكان عليّ أن أعقد الاجتماع مع ميركل وبوروشنكو أولًا. أصدرت تعليماتي لفريقي للبدء في إلغاء استخدام

اللّغة القانونيّة في الخطاب. أردت منهم أن يتأكّدوا تمامًا من أنّه لا يمكن تفويت المعنى الصّريح، وأخبرتهم بأنّني سأعود للمساعدة في إعادة الكتابة بأسرع ما يمكن.

لم تكن قاعة الاجتماع مع الرّئيس بوروشنكو والمستشارة ميركل فخمة. جلسنا إلى طاولة صغيرة نسبيًا في زاوية قاعة مؤتمرات، ممّا يعني أنّه حديث حميميّ. بدا بوروشنكو مرتاحًا لوجودي. كان يعلم أنّني ملتزم بنجاح أوكرانيا لمصلحتها وأيضًا كدليلٍ لروسيا على التّصميم الأوروبيّ. اعتقدت أنّ نتيجة الأزمة الأوكرانيّة ستحدّد المسار لأوروبا الوسطى والشّرقيّة لعقود، للخير أو للشّرّ. كنت قاسيًا مع بوروشنكو منذ انتخابه قبل تسعة أشهر. لقد أوضحت له أنّه لا يستطيع إعطاء أوروبا أيّ ذريعة للتّخلّي عن نظام العقوبات ضدّ روسيا. كان عليه أن يواصل محاربة عناصر الفساد الّتي هي جزءٌ لا يتجزّأ من الثّقافة السياسيّة للحكم السّوفياتيّ وما بعد السّوفياتيّ في أوكرانيا- سواء في الحزب المنافس لياتسينيوك أو في حزب بوروشنكو نفسه. لكنّ الرّئيس الأوكرانيّ يعلم أيضًا أنّني تورّطت من أجله للحصول على حزم مساعدات من صندوق النّقد الدّوليّ وضمانات قروض من الولايات المتّحدة. لقد كنت أضغط بشدّة في اجتماعات لجنة رؤساء مجلس الأمن القومي لتوفير التّدريب لجيشه، وقد تمكّنت بالفعل من الحصول على معدّات غير قاتلة مثل الرّادارات الخاصّة الّتي يحتاجها الجيش الأوكرانيّ لتحديد موقع قذائف الهاون الرّوسيّة. لا يمكن لبوروشنكو أن يفوته شعوري الخاصّ بالإلحاح فيما يتعلّق بمستقبل أوكرانيا.

كان بوروشنكو يعرف أنّه في موقعٍ أقوى بكثير بالنّسبة لميركل أيضًا. وكانت علاقتها مع بوتين قد توتّرت بسبب أفعاله في أوكرانيا في الأشهر الأخيرة. وقد أكدّت المستشارة لبوروشينكو، في اجتماعنا في ذلك اليوم، أنّ بوتين هو اللّاعب السيّئ هنا، ولكنّها مع ذلك ضغطت عليه، كما علينا نحن،

لإيجاد نوع من «المخرج» لبوتين. كانت تبحث عن تنازلات من الرّئيس الأوكرانيّ يمكنها نقلها إلى بوتين في اليوم التّالي. وأعربت عن اعتقادها بأنّ الزّعيم الروسيّ بحاجة إلى أن يكون قادرًا على الابتعاد، وتحقيق بعض النّصر. لم تحدّد ما هو، ولكنّها ظلّت تطلب من بوروشنكو أن يجد شيئًا يمكن وضعه على طاولة المفاوضات. كان المصطلح الّذي استخدمته لوصف ما يحتاجه بوتين هو مخرج «لحفظ ماء الوجه».

أومأت برأسي نحو بوروشنكو قائلًا: «لا يمكننا إلقاء اللّوم على الضّحيّة هنا». أشرت إلى أنّ بوتين لم يفِ بأيّ من التزاماته بموجب اتفاقيّة مينسك الأصليّة، وكان يتعيّن محاسبة بوتين على هذا الفشل. بوسع الزّعيم الأوكرانيّ أن يعرض منح المزيد من الحكم الذّاتيّ المحليّ للمناطق المختلفة، أو أن يسمح للرّوسيّة بأن تكون لغة رسميّة متكافئة في أقصى شرق الأقاليم، أو أن يسحب مدفعيّته الثّقيلة من الخطوط الأماميّة، لكن ما يجب أن يأتي أولا هو تحرّك من بوتين. ما يجب أن يأتي أوّلًا هو سحب بوتين دبّاباته وجنوده وإعادة بوتين السّيطرة على الحدود إلى أوكرانيا. يجب أن تأتي استعادة الحدود الأوكرانيّة قبل أن يسلّم الرّئيس بوروشنكو بأيّ شيء. بدت ميركل محبطة منّي عندما انتهى الاجتماع.

وجدت أنّه لم يتبق لي سوى القليل من الوقت لإعادة كتابة خطابي – ساعة واحدة أثناء تناول الغداء ونصف ساعة أخرى بعد ذلك. كان من المقرّر أن أصعد إلى المنصّة في السّاعة الثّالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، وفي السّاعة الثّالثة وخمس دقائق كنت لا أزال أُملي مقاطع أعيدت صياغتها إلى كاتب خطاباتي. سعت روسيا لإخفاء رجالها الخضر الصّغار والدّبابات المتعدّدة التّي قدّمتها للانفصاليّين. لكنّنا قدّمنا لكم جميعًا دليلًا لا يقبل الجدل على وجودهم. لقد رأيتم الصّور. بحلول السّاعة الثّالثة وعشر دقائق كان ضغط الدّم الجماعي لفريقي يرتفع بالفعل إلى المنطقة الحمراء، وأنا لا أزال أُملي

العبارات. لكن كان عليّ أن أقولها بشكلٍ صحيح. ليس هدف الولايات المتّحدة الأمريكيّة انهيار أو إضعاف الاقتصاد الرّوسيّ. هذا ليس هدفنا. ولكن يتعيّن على الرّئيس بوتين أن يتّخذ خيارًا بسيطًا وصارمًا: الخروج من أوكرانيا أو مواجهة العزلة المستمرّة والتّكاليف الاقتصاديّة المتزايدة في الدّاخل. ما قيمة خمس عشرة دقيقة تأخير بالنّسبة للمخطّط الكبير؟ ما قيمة عشرين دقيقة؟ خمسة وعشرين؟

بدأت، متأخّرًا عن الموعد المحدّد بثلاثين دقيقة، وقلت: «سيداتي سادتي، كما قال الرّئيس في وقتٍ سابقٍ اليوم، لقد وقفت هنا قبل ستّ سنوات، وفي أوّل خطابٍ رئيس للسّياسة الخارجيّة لإدارتنا، تحدّثت عن «إعادة الضّبط». استمرّ الخطاب ثمانٍ وعشرين دقيقة فقط. كنت صريحًا وكنت مباشرًا. قلت: «أمريكا وأوروبا يجري اختبارهما. يتعيّن على الرّئيس بوتين أن يفهم أنّ تركيزنا قد تغيّر، كما تغيّر تركيزه. لقد انتقلنا من إعادة ضبط هذه العلاقة المهمّة إلى إعادة تأكيد المبادئ الأساسيّة الرّاسخة الّتي ترتكز عليها الحريّة والاستقرار في أوروبا. وسأقولها مرّة أخرى: لا حدود منتهكة، ولا مناطق نفوذ، والحقّ السّياديّ لكلّ دولةٍ في اختيار تحالفاتها. مهما كرّرت ذلك لا يكفي، لأنّنا بحاجة إلى أن نظلّ حازمين وموحّدين في دعمنا لأوكرانيا، كما قالت المستشارة هذا الصّباح. ما يحدث هناك سيكون له صدىً خارج أوكرانيا. إنه يهمّ الجميع – ليس فقط في أوروبا، بل في جميع أنحاء العالم – كلّ من قد يكون عرضة للعدوان».

اقتربت قدر المستطاع من إخبار حلفائنا في النّاتو أنّ واجبنا الأخلاقيّ يستدعي توفير الأسلحة لأوكرانيا. لقد أظهر الأوكرانيّون شجاعة حقيقيّة، وعلى الرّغم من أنّ احتمال إيقاف أيّ عدوان عسكريّ روسيّ حازم ضئيل جدًا، ولكنّني أعتقد أنّهم يستحقّون امتلاك القدرة لمحاولة الدّفاع عن أنفسهم. «لقد وعد الرّئيس بوتين مرّاتٍ عديدة بالسّلام ولكنّه أرسل

دبابات وقوّات وأسلحة. لذلك سنستمر في تزويد أوكرانيا بالمساعدة الأمنيّة، ليس لتشجيع الحرب ولكن للسّماح لأوكرانيا بالدّفاع عن نفسها. اسمحوا لي أن أكون واضحًا: نحن لا نعتقد أنّ هناك حلًّا عسكريًّا في أوكرانيا. ولكن اسمحوا لي أن أكون واضحًا بالقدر نفسه: نحن لا نعتقد أنّ لروسيا الحقّ في فعل ما تفعله. نحن نعتقد أنّ علينا أن نحاول الوصول إلى سلامٍ مشرّف. لكنّنا نعتقد أيضًا أنّ الشّعب الأوكرانيّ له الحقّ بالدّفاع عن نفسه».

توقّفت لبرهةٍ قصيرة، كي أدع التّصفيق يعلق في ذهن جميع صانعي السّياسات في القاعة. كنت آمل أن يكون التّصفيق مساويًا للعزم.

عندما انتهى الخطاب، شعرت أنّني أنجزت ما كنت قد عزمت عليه، خاصّة بعد أن أخبرني جون ماكين، الّذي كان يرأس وفد الكونغرس الأمريكيّ في ميونيخ، أنّه يعتقد أنّه أفضل خطاب سمعني ألقيه. كان دعمه مهمًّا بالنّسبة لي شخصيًا، ومهمًّا مؤسّسيًا. فالكونغرس يسيطر على الخزانة. إذا احتجنا إلى إرسال أسلحة إلى أوكرانيا، فسيتعيّن على الكونغرس تخصيص الأموال للقيام بذلك. ويبدو أنّ هناك دعمًا متزايدًا من الحزبين. حتّى السّناتور تيد كروز، الّذي نادرًا ما يوافق على أيّ شيء أقوله، اتّفق معي بشأن تقديم الدّعم للمقاتلين الأوكرانيّين المحاصرين. كما فعلت السّناتور في الحزب الجمهوريّ ليندسي جراهام. قالت ليندسي جراهام للصّحفيّين في ميونيخ «إنّ المستشارة ميركل لا يمكنها أن ترى كيف أنّ تسليح الأشخاص المستعدّين للقتال والموت من أجل حرّيّتهم سيجعل الأمور أفضل. ولكنّني أرى ذلك».

تساقطت الثّلوج في ميونيخ في وقتٍ مبكر من صباح يوم الأحد، ولم ترتفع حرارة الجوّ أبدًا فوق درجة التّجمّد، لذلك كان الثّلج يتكسّر تحت

أقدامنا عندما اقتربنا أنا وحفيدتي فينيغان، بعد ظهر ذلك اليوم، من بوابة الدّخول بالقرب من برج حراسة يلوح في الأفق. كان هناك رجل يبلغ من العمر خمسة وتسعين عامًا عند البوّابة، جالسًا على كرسيّه المتحرّك، في انتظار التّرحيب بنا. كنت قد أمضيت الجزء الأوّل من ذلك اليوم في طمأنة قادة عدد قليل من حلفائنا في أوروبا الشّرقيّة، وتقديم المشورة لرئيس الجبل الأسود حول كيفيّة تحسين فرص بلاده في الحصول على دعوة للانضمام إلى النّاتو، ومحاولة إقناع زعيم الحكومة الإقليميّة الكرديّة في العراق بمساعدة الرّئيس العراقيّ الجديد، حيدر العبادي في جهوده لإخراج داعش من بلادهم. كان العبادي في ميونيخ يبحث عن المساعدة من جميع الجهات، وقضيت معه ساعة كاملة لتقديم بعض التّشجيع الّذي كان بأمسّ الحاجة إليه. كان محبطًا إلى حدّ ما، ولسبب وجيه. عندما انتقل المؤتمر من موضوع أوكرانيا إلى داعش في نهاية اليوم الأوّل، علّق أحد المراسلين قائلًا: «القاعة فارغة. لا يوجد حشد للعبادي. هذه ليست علامة جيّدة». وعدته بأنّني ما زلت إلى جانبه وسوف أستمرّ في ذلك.

بحلول ظهر ذلك اليوم الأحد، كانت واجباتي الرّسميّة لهذا الأسبوع ورائي أخيرًا، لكنّ واجبي كجدّ لم يكن كذلك. وأنا لا أتعامل مع وظيفتي كجدّ على نحوٍ أقلّ جديّة ممّا أفعل بصفتي نائب رئيس. كانت المحطّة الأخيرة في ألمانيا هي جولة إرشاديّة لي ولفينيغان في معسكر اعتقال يعود إلى حقبة الحرب العالميّة الثّانية في داخاو، وهي رحلة ميدانيّة أصبحت تقليدًا آخر لعائلة بايدن. كان هذا مكانًا شعرت أنّ جميع أولادي وأحفادي بحاجة إلى تجربته. كنت قد اصطحبت بو وهانتر وآشلي في رحلاتٍ منفصلة إلى داخاو عندما كانوا في سنّ المراهقة، وكانت فينيغان في السنّ المناسب.

كان إصراري على اصطحاب أطفالي وأحفادي لرؤية داخاو له علاقة بوالدي، الّذي اعتاد التّحدّث عن أهوال الهولوكوست على مائدة العشاء

عندما كنت طفلًا. لم تكن النّقاشات طويلة قطّ، ولم يعظنا ولم يلق أيّ خطاباتٍ كبيرة حول محاولة هتلر إبادة اليهود في ألمانيا، لكنّه نقل إلينا الحكمة الحقيقيّة. كان أبي يذكّرنا بأنّ حملة بهذا الحجم لا يمكن أن تُشنّ سرًّا. كانت فكرة أنّ الشّعب الألمانيّ لم يكن يعرف أنّ ذلك يحدث تتحدّى المنطق. إن البشر قادرون على القسوة بشكلٍ لا يصدّق، أراد والدنا لي ولأختي وإخوتي أن نعي ذلك، وبالخطورة نفسها، أن يجعلنا نرى، أنّ البشر قادرون أيضًا على النّظر في الاتّجاه الآخر والبقاء صامتين عندما تحدث أشياء مروّعة من حولهم.

كان الرّجل على الكرسيّ المتحرّك، ماكس مانهايمر، سجينًا في داخاو ومعسكرات اعتقال أخرى عندما كان شابًا. لقد نجا هو وشقيقه، لكنّ زوجته ووالديه وأخواته وشقيق آخر قُتلوا جميعًا. أردت أن تسمع فينيغان قصّته الشّخصيّة. لقد أعطيتها أيضًا بعض موادّ للقراءة استعدادًا للرّحلة. كان داخاو أوّل معسكر اعتقالٍ جرى تشغيله من قبل النّازيّين عام 1933. وكان السّجناء الأوائل هناك من المعارضين السّياسيّين لهتلر – الشّيوعيّون الألمان والاشتراكيّون الدّيمقراطيّون والنّقابيّون. ثمّ أضيف إليهم شهود يهوه، والغجر، والمثليّون، وغيرهم من الأشخاص الّذين اعتبرهم النّازيّون «غير مرغوب بهم» – في أواخر الثّلاثينات بدأ النّازيّون يملؤون المعسكر باليهود. وقد خضع ما يقرب من ثلاثين ألف سجين للتّعذيب حتّى الموت أو قتلوا في داخاو بين العام 1940 و 1945. لا أحد يستطيع أن يقول على وجه اليقين عدد الّذين قتلوا في داخاو في السّنوات الّتي سبقت ذلك. لقد خصّصت فينيغان مقالًا تضمّن القصيدة التّالية لمارتن نيمولر، وهو قسّ بروتستانتي أُلقي به في معسكر اعتقال ألمانيّ في نهاية الحرب.

في البدء جاؤوا من أجل الاشتراكيّين، فلم أتكلّم–
لأنّني لم أكن اشتراكيًّا.

ثمّ جاؤوا من أجل النّقابيين، ولم أتكلّم-
لأنّني لم أكن نقابيًا.
ثمّ جاؤوا من أجل اليهود، ولم أتكلّم-
لأنّني لم أكن يهوديًّا.
ثم جاءوا من أجلي -
ولم يبق أحد ليتكلّم عني.

اصطحبنا مرشدٌ سياحيّ أنا وفينيغان والسّيد مانهايمر في أرجاء المخيّم. كان المسار نفسه الّذي كنت قد سلكته مع والد فينيغان، هانتر، قبل ثلاثين عامًا، لكنّه كان مختلفًا. بدا وكأنّ الأمور قد أعيد ترتيبها لجعل الزّائرين أقلّ انزعاجًا. لقد خفّفوا الحواف القاسية على مرّ السّنين، كما كان ينبغي أن أتوقّع من سطر في أدبيّات موقع داخاو، الّذي جاء فيه، «بما أنّ كلّ موسم له سحره الخاصّ في ألمانيا، يمكنك أيضًا التّخطيط لزيارة المعسكر وفقًا لتفضيلاتك الخاصّة». كانت الأسرّة في أماكن المعيشة في داخاو لا تزال موجودة، لذا يمكنك أن ترى كيف حشد النّازيّون عشرات الآلاف من الأشخاص في المخيّم. تذكّرت رؤية أسماء محفورة في الإطارات الخشبيّة للأسرّة في زيارات سابقة، لكنّها بدت الآن نظيفة وملمّعة.

في البداية بدا المرشد متردّدًا في اصطحابي أنا وفينيغان إلى غرفة الغاز الشّهيرة في المعسكر، لكنّني أصررت. كنت أفكّر في المرّة الأولى الّتي ذهبت فيها إلى هناك، مع بو، كيف دخلنا ذلك المبنى وشرحوا لنا أنّ حراس السّجن يخبرون ضحاياهم أنّهم ذاهبون إلى الحمّامات ويطلبون منهم خلع أحذيتهم وملابسهم وأسنانهم الاصطناعيّة. ثمّ قادنا المرشدون إلى الغرفة نفسها وقاموا بغلق الباب خلفنا بضجيجٍ مخيف. هناك مرشدون سياحيّون في داخاو اليوم يصرّون على أنّ السّجناء لم يتعرّضوا للغاز هناك أبدًا، أو أنّه

استخدم لمرّاتٍ قليلة فقط. لكنّني أردت أن ترى فينيجان كلّ ذلك، وأردتها أن ترى الأفران الّتي يحرق فيها الحرّاس الضّحايا بعد إطلاق النّار عليهم أو شنقهم أو تجويعهم حتّى الموت، أو قتلهم كجزء من التّجارب الطّبّيّة أو بالغاز. كان ماكس مانهايمر شاهدًا حيًا. لقد أُجبر على تحميل جثث الضّحايا الّذين لقوا حتفهم في معسكرات العمل القريبة في عربات، ثمّ نقلها إلى الأفران في داخاو لحرقها.

رأت فينيغان وسمعت كلّ شيء، ثمّ عدنا إلى الخارج ونظرنا عبر السّياج إلى صفوف من منازل الطّبقة الوسطى ذات الأسقف القرميديّة على بعد شوارع قليلة فقط. لا بدّ وأن يكون الأشخاص الّذين عاشوا في تلك المنازل في ثلاثينيّات وأربعينيّات القرن الماضي على علم بما كان يحدث داخل معسكر الاعتقال هذا، أردتها أن تفهم ذلك. كانوا قريبين بدرجة كافية ليشمّوا رائحة اللّحم البشريّ المحترق. كيف لهم ألّا يعرفوا؟

الشّيء الّذي أردت أن تشعر به فينيغان هو الصدمة العميقة نفسها الّتي حرّكت الكثير من مسيرتي المهنيّة في الحياة العامّة. بينما كنّا نسير عائدين عبر البوّابة إلى زماننا، قلت لفينيغان: «انظري، يا عزيزتي. يمكن أن يحدث ذلك مرّة أخرى. هذا يحدث في أجزاء أخرى من العالم الآن. وعليك أن ترفعي صوتك. لا يمكنك البقاء صامتة. الصّمت تواطؤ».

الفصل السّادس

لا بدّ أن تكون أنت

في تلك اللّيلة، بدت السماء مظلمة بشكلٍ غير عاديّ وتنذر بشؤمٍ متزايد. كنّا نحن الخمسة في مكتبة بيتي الهادئ نطلّ من خلال النّوافذ الكبيرة، ونشاهد طبقات السّحب وهي تتكثّف وتندفع نحو الأسفل. كان الضّغط الجوّيّ يرتفع بحدّة. ودرجة الحرارة قد انخفضت بالفعل إلى أقلّ من خمس عشرة درجة [فارنهايت] وتتّجه نحو أقلّ من عشرة. كان بإمكاننا تتبّع ندف الثّلج وهي تتطاير أحيانًا أثناء سقوطها عبر هالة الأضواء الخارجيّة للمرصد البحريّ. لكنّ المزاج السّائد في الغرفة ليلة الخميس تلك، في 19 شباط (فبراير) 2015، كان متفائلًا بإصرار. انضمّ مايك دونيلون وستيف ريتشيتي إلى بو، وهانتر وأنا لمناقشة مذكّرة مايك الجديدة المكوّنة من 22 صفحة حول السّباق الرئاسيّ للعام 2016. وكان قد سلّمها إلينا قبل تسعة أيام، لذلك أتيحت لنا الفرصة لاستيعابها بالتّفصيل. إنّ رسالة مايك لا تحتمل التّأويل: بات السّباق الرّئاسيّ متّجهًا نحوي!

عرضت مذكّرة مايك الحجج بأسلوبٍ نثريّ مباشر وغير منمّق. فأشارت إلى أنّ الاقتصاد في تصاعد منذ أوائل العام 2015، وبدأ أخيرًا في التّخلّص من الآثار الأخيرة للرّكود الكئيب طويل الأمد الّذي أعقب انهيار النّظام الماليّ، ورأى أنّي استحقّ عن جدارة المطالبة ببعض الاعتراف بالفضل. من تحفيز قانون الانتعاش، إلى استقرار البنوك، إلى إنقاذ صناعة السّيّارات،

إلى العديد من الميزانيّات المعقّدة والصّفقات الضّريبيّة الّتي تفاوضت بشأنها مع الجمهوريّين في الكونغرس. كنت شريكًا مهمًّا في تشكيل وتنفيذ الخطّة الّتي ساعدت الرّئيس أوباما على أخذ البلاد من الأزمة إلى الانتعاش إلى بدايات النهضة. تساءل مايك من هو أفضل منّي لإنهاء المهمّة؟

وفي الوقت نفسه، اقتنع مايك بأنّ استعادة الطّبقة الوسطى الأمريكيّة الّتي هزمت بشدّة ستكون محوريّة في حملة العام 2016. حتّى الجمهوريّون كانوا يتحدّثون عن ذلك. وأظهر تحليل مايك أنّه لا يوجد في الميدان في أيّ من الحزبين من هو أكثر ارتباطًا منّي بالطّبقة الوسطى. فقد أشار مايك إلى أنّ مخاوف الطّبقة الوسطى كانت محوريّة في مسيرتي المهنيّة الّتي امتدّت لخمسة وأربعين عامًا في المناصب العامّة. وأعرب عن اعتقاده بأنّ أحدًا لم يتحدّث بمزيدٍ من التّفهّم والتّعاطف حول ما عانته الطّبقة الوسطى في السّنوات الأخيرة، أو بمزيدٍ من النّفوذ حول ضرورة إعادة صياغة العقد الّذي كانت البلاد قد قطعته منذ فترة طويلة مع الأسر الشّريفة والكادحة، أو بمزيد من المصداقيّة حول الفرص العديدة الّتي كان من المفترض توفيرها.

لقد سئم جمهور النّاخبين من حزم المرشّحين الدّقيقين جدًّا والمختارين بعناية. لم تعد سمعتي كـ «ماكينة للهفوات» تبدو وكأنّها نقطة ضعف. يمكن للجمهور أن يرى أنّني أتحدّث من القلب وأعني ما أقوله. كتب مايك: «الأصالة مهمّة». وإذا كان النّاخبون يتوقون إلى الأصالة، فأنت على رأس اللّائحة.

كانت لي مسيرة مهنيّة طويلة وواسعة النّطاق في السّياسة الخارجيّة، وقد التقيت تقريبًا بكلّ زعيمٍ عالميّ. رأى مايك أنّ النّاخبين يعتقدون أنّني أعرف التّحدّيات الّتي ستواجهها البلاد في المستقبل القريب، ولديّ استراتيجيّة حقيقيّة بخصوص أين وكيف نستخدم قوّتنا المذهلة لتحقيق أكبر قدرٍ من التّأثير.

أضف إلى أنّه قد يُنظر أخيرًا إلى انزعاجي الطّويل الأمد (والأسطوريّ لدى بعض الأوساط المانحة) من جمع مبالغ ضخمة من المال لإدارة حملة انتخابيّة، على أنّه نقطة قوّة – حتّى أثناء الحملات الّتي جمع فيها مبالغ ضخمة لانتخابات 2008 و 2012. كان النّاخبون غير مرتاحين بشكلٍ متزايد بشأن الطّريقة الّتي سمح بها قرار المحكمة العليا الخاصّة بالمواطنين المتّحدين، بل وشجّع، على الإنفاق غير المحدود للحملات الانتخابيّة من قبل حفنة من أصحاب المليارات الّذين بدا أنّهم يفرضون توجّهاتهم في مسائل سياسيّة. كتب مايك: «يجب أن لا يكون هذا المنصب لشخص يعتبر نفسه أكثر مصداقيّة وشفافيّة من غيره، ولكن منصبًا يشغله شخص يعرف ما هو الخطأ في النّظام، ومن كان جزءًا منه، ويمكنه أن يراه عندما يخرج عن نطاق السّيطرة .... كان مشروع قانون دعم التّمويل العامّ أحد مشاريعك الأولى (إن لم يكن الأوّل) بصفتك سناتور شابّ، ولديك تاريخ طويل في هذه القضيّة».

أمضينا نحن الخمسة – ولداي وأقرب موظّفيْن لديّ – بضع ساعات في استعراض نقاط مايك الرّئيسة، وكذلك الجزء الأخير، حول كيفيّة المضيّ قدمًا من هنا. وضعت مذكّرته جدول أعمالٍ محدّدًا للغاية للشّهرين المقبلين: كنت قد ألقيت للتوّ خطابًا الأسبوع الماضي في ولاية أيوا حول خطّتي لتوسيع نطاق الانتعاش الاقتصاديّ ليشمل جميع الأمريكيّين، واعتقد مايك أنّه ينبغي عليّ البناء على ذلك بخطاب في مجلة نيو هامبشاير عن أحلام الطّبقة الوسطى؛ ثمّ خطاب في واشنطن يحدّد أهداف السّياسة الخارجيّة في ظلّ رئاسة بايدن. ثمّ خطاب في نيويورك يتحدّى وول ستريت، وكبار رجال الأعمال للنّظر إلى أبعد من النّتائج الفصليّة والمكافآت الشّخصيّة، والبدء بالوفاء بمسؤوليّاتهم تجاه عمّالهم.

وعلينا أيضًا البدء في تحديد الموظّفين الرّئيسين وتوظيفهم، والبدء ببناء

هيكل للحملة الانتخابيّة في الولايات الأساسيّة وذات التّجمّعات المبكرة. ارتـأى مايـك أن لا أنتظـر الصّيـف أو الخريـف، بل عليّ أن أعلن ترشـيحي في نيسان (أبريل). كل ذلك بدا معقولًا، ربّما باستثناء جزء الإعلان. لكنّني أردت أيضًا أن أتأكّد من أنّنا لن نجدول أيّ شيء يتعارض مع الاستعدادات لرحلتي إلى المثلّث الشّـماليّ في نهاية الأسـبوع الأخير من شـباط (فبراير) وحتـى آذار (مـارس). كنـت أعـوّل آمالًا كبيـرة على هذه الرّحلة، وكان عليّ أن أكون مستعدًا.

اتّجهت عيناي صوب بو أثناء حديثنا. انتهت فترة ولايته كمدّعٍ عامّ قبل ستّة أسابيع، لذلك لم تعد المخاوف المتعلّقة بالعمل تضغط عليه، ولم يكن الوقـت قـد تأخّـر في المسـاء، لكنّه كان متعبًـا بالفعل. كان نحيلًا جدًا، وبدا وجهه شاحبًا. استطعت أن أرى الخطوط العريضة لدعامة السّاق من خلال سـرواله. لأكثر من عشـرين عامًا، في أيّ اجتماع حول أيّ حملة سياسـيّة، كنت أطلب المشورة من بو. كان الشّخص الآخر الوحيد في الغرفة في تلك اللّيلة الّذي ترشّح لمنصب انتخابيّ وفاز. كانت نصيحة بو هي النّصيحة الّتي كنـت سـأقدّرها أكثـر فـي تلك اللّحظة. لكن فـي تلك اللّيلة بقي في الغالب جالسًـا يراقب. كان بو يفقد القدرة على تذكّر المزيد والمزيد من الأسـماء الصّحيحة مؤخّرًا، وبدا أقلّ استعدادًا لمقاومة ذلك. أخبرتني آشلي أنّ بو لم يعـد يدعوهـا إلـى غرفـة علاج النّطق، لأنّ تدهوره بات يزعجه حقًّا. لم يقل بو أيّ شيء تقريبًا في ليلة شباط (فبراير) الباردة في واشنطن. طفق يهمس بشيء لأخيه بدلاً من ذلك، ويتحدّث هانتر نيابة عنه.

خطر لي عندما شاهدت بو وهانتر أنّ كلّ شخص في تلك الغرفة كان يمثّـل إلـى حـدّ مّـا. سـواء كنّا مقتنعين حقًّا بحجج مايـك أم لا، كان اعتبارًا ثانويًا في تلك اللّيلة. بدا الأمر كما لو كنّا جميعًا نحافظ على تمثيليّة معقّدة ومطلوبة. عرفها سـتيف ومايك كما عرفناها أنا وأولادي. لقد فهمنا جميعًا

مدى رغبة بو لي في التّرشّـح للرّئاسـة. كنّا نعلم جميعًا، أكثر من أيّ شـيء آخر، أنّ بو لا يريد أن يكون السّـبب في عدم ترشّـحي. يريد أن يكون إلى جانبي. يمكنه التّعامل مع الأمر. لقد حاول بو طمأنتنا، ورحنا نحاول طمأنته. إذًا، ماذا علينا نحن الخمسة أن نفعل تلك اللّيلة سوى أن نخلي أذهاننا من أيّ شيء آخر، ونتحدّث عن الخطوات التّالية؟ من المقرّر أن ألقي خطابين في نيو هامبشـاير خلال سـتّة أيّام. يجب أن نتأكّد من أنّ التّركيز وقع على أحلام الطّبقة الوسطى.

بدأ الثّلج يتساقط بحلول الوقت الّذي شارف فيه الاجتماع على نهايته. تخلّـف هانتـر عـن البقيّة عندمـا نهض الجميع مكتفين بهذا القدر من اللّيل. قال «هل يمكننا التّحدّث يا أبي؟».

«بالتأكيد عزيزي».

لذلك بعد أن خرج مايك وسـتيف إلى سيّارتيهما، وغادر بو مع فريق الأمـن الخـاصّ الّـذي سـيوصله إلـى المنزل، صعدنا أنا وهانـت إلى الطّابق العلويّ، إلى ركننا العائليّ الخاصّ في الطّابق الثّاني. استطعت أن أرى مدى حاجتـه للتّحـدّث. فالتّدهـور السّـريع لأخيـه الأكبر يمزّقه حقًـا. كان الاثنان متوجّهيـن إلـى ام دي أندرسـون فـي هيوسـتن فـي الأسـبوع التّالـي لإجراء فحوصات بو المنتظمة، ومع اقتراب الموعد، أصبح كلاهما أكثر قلقًا بشأن ما ستكشـفه الصّور الجديدة. وفيما أظهر هانتر توتّره. كان بو لا يزال يبدو هادئًا جدًا وخاليًا من المشاعر لكلّ من يراه. «الأمور بخير. الأمور بخير». لقد كان أشبه بالبطّة في البركة الّتي يضرب بها المثل – والّتي تتزحلق بسهولة فوق سـطح الماء، وتجدّف بضراوة في الأسـفل. باسـتثناء أنّ هانتر في الواقع هو المسيّر الخفيّ لشقيقه والمرهق جدًّا. لقد راقبت ولديّ معًا – وكانا دائمًا معًا. من الوقت الّذي أمضياه في المستشفى بعد الحادث عندما كانا صبية صغارًا، إلى الوقت الذي سـاعد فيه هانت في اسـتراتيجيّة ترشّـح بو الأول لمنصب

مـدّعٍ عـام. خمسـة وأربعـون عامًا حتّى الآن. كنت أعـرف الدّيناميكيّة. كلّما كافح بو للحفاظ على مشاعره تحت السّيطرة، كلّما عدّها هانت مسؤوليّته. بدا الأمر كما لو أنّ بو يبوح بمشاعره عبر هانتر.

قـال هانتـر، عندمـا أصبحنـا وحدنا أخيرًا: «لا أسـتطيع تحمّل خوف بو الّذي أعرف أنّه يشعر به، يا أبي».

قلـت لـه: «هـذا أكثـر ما يزعجني يـا عزيزي». «إنّه الشّـيء الّذي يبقيني مستيقظًا في اللّيل».

قـال هانتـر إنّ ليلـة مثـل هـذه اللّيلة، التّخطيط لسـباق العام 2016، هي هبة من السّماء. فهو مقتنعٌ بأنّ الأسرة بأكملها بحاجة إلى هذا الهدف، هذا المنفذ. ثمّ أخبرني هانتر أنّ أكثر ما يقلق بو هو أن نستسلم إذا حدث الأسوأ. قال إنّ علينا أن لا ندع ذلك يحدث. أخبرني هانتر أنّه في نهاية العام 2012، مباشرةً بعد إعادة انتخابي أنا وباراك، تحدّث هو وبو عن المستقبل. توقّعوا أنّ بـو سـيفوز بسـباقه لمنصـب الحاكـم فـي العام 2016؛ وبعد ذلك، سـواء وصلت أنا إلى البيت الأبيض أم لا، فسوف تتاح له فرصة التّرشّح للرّئاسة.

قـال هانتـر، وكنـت أعـرف أنّه يتحدّث عن كليهمـا: «ولكنّ الآن، لا بدّ أن تكون أنت، يا أبي».

فـي صبـاح اليـوم التّالـي، أجريـت مكالمتي الثّانية خـلال ثلاثة أيّام مع الرّئيس بوروشنكو. كان يشعر بأنّه منبوذ. أبرمت ميركل وهولاند اتّفاقًا جديدًا لوقف إطلاق النّار مع بوتين– مينسـك 2– وذلك بعد أن وافق بوروشـنكو علـى حاجـة بوتيـن إلـى «حفظ ماء وجهه». وعلى مضض وافق بوروشـنكو على السّماح لروسيا بالسّيطرة على أجزاء من الحدود الأوكرانيّة لحين إجراء انتخابات جديدة في عددٍ قليلٍ من الأقاليم. وماذا أخذ بوروشنكو بالمقابل؟ بدا واضحًا من البداية أنّ مينسك 2 لن تكون أفضل من مينسك1، فقد قتل

الانفصاليّون الأوكرانيّون بدعمٍ روسيّ ما لا يقلّ عن ثمانية وعشرين مدنيًا وجنديًّا أوكرانيًا في السّاعات الّتي سبقت بدء سريان وقف إطلاق النّار، وزادوا من هجومهم على مركز النّقل في دبالتسيف في الأيّام الّتي تلت ذلك. لم يبد أنّ الرّوس كانوا يسحبون الكثير من مدفعيّتهم الثّقيلة، وأفادت التقارير من هناك بأنّهم سيّروا ستّين دبّابة أخرى حتّى الحدود الأوكرانيّة. لم يكن هناك الكثير ممّا يمكنني القيام به أكثر من التّعاطف وإبلاغه أنّنا ما زلنا معه. فقد أدنت علنًا انتهاكات بوتين الصّارخة الجديدة لوقف إطلاق النّار، وأخبرت بوروشنكو أنّني سأحاول الحصول على مراقبين حقيقيّين لتسجيل نتائج الانسحاب المتّفق عليه للدّبّابات الرّوسيّة والمدفعيّة الثّقيلة. وذكّرت الرّئيس بوروشنكو بأنّه، سواء أكان ذلك عادلًا أم لا، لا يمكنه إعطاء حلفائه الأوروبيّين أيّ ذريعة للتخلّي عنه. أخبرته أنّ على جيشه أن يبقى، كزوجة قيصر، فوق الشّبهات على طول الحدود. عليه الامتناع عن القيام بأيّ تصرّف يسمح لبوتين بالادّعاء بأنّ الانفصاليّين المدعومين من روسيا قد جرى استفزازهم. وأنّ عليه هو ورئيس الوزراء ياتسينيوك، إذا أرادا من صندوق النّقد الدّوليّ الاستمرار في إصدار الشّيكات الّتي هم بأمسّ الحاجة إليها، مواصلة العمل معًا لتمرير تشريعات مكافحة الفساد والإصلاح. كما أخبرته أنّني سأفعل ما بوسعي لمساعدته على تلبية احتياجاته العسكريّة الملحّة – مثل الأسلحة المضادّة للدّبّابات. قلت الكلام نفسه لياتسينيوك ذلك الصّباح، ولكن في مكالمة منفصلة. فما زال الرّجلان يرفضان البقاء معًا في الغرفة نفسها.

أنهيت المكالمة، وجمعت موظّفي الأمن القوميّ، وبدأنا في دراسة السّيناريوهات لفرض عقوبات اقتصاديّة إضافيّة على بوتين وعملائه في أوكرانيا، وتزويد الجيش الأوكرانيّ بالمزيد من المعدّات والتّدريب الأفضل. وإذا استطاع الأوكرانيّون جعل روسيا تدفع ثمنًا حقيقيًا للتّوغّل – كإعادة

الجنـود الـرّوس إلـى ديارهـم في أكياس الجثـث – فقد يعيد بوتين النّظر في الحكمة من مواصلة هجماته.

كان يومًا صعبًا، ذلك الّذي سافرت فيه إلى نيو هامبشاير، الأربعاء، 25 شباط (فبراير)، لأؤدّي معزوفة الانتعاش الاقتصاديّ الّذي قاده أوباما، وكيف احتجنا إلى القيام بالمزيد لتوسيع نطاقه إلى الطّبقة الوسطى. استيقظت وأنا أشعر بخدشٍ في حلقي، وبحلول الوقت الّذي بدأت فيه الخطاب الأوّل في ذلـك اليـوم فـي مركـز رودمـان بجامعة نيو هامبشـاير، كنت أجد صعوبة في قمع السّعال. وشعرت أنّ حالتي تزداد سوءًا كلّ دقيقة، لكنّني كنت مصمّمًا علـى وضـع ركيـزة. قلت: «عندما لا تعمل حكومتنا، لا يتضرّر السّياسـيّون، بل الشّعب الأمريكيّ. إنّهم الأمريكيّون العاديّون الكادحون الّذين يستيقظون كلّ يـوم، ويذهبـون إلـى العمـل، ويدفعون الضّرائب، ويسـدّدون فواتيرهم، ويعتنون بأسرهم»، ثمّ سعلت بصوتٍ عال. «عفوًا، لديّ نزلة برد – ويعتنون بمجتمعاتهم، هم الّذين يتأذّون – الطّبقة الوسطى. واسمحوا لي أن أخبركم أمرًا: لدى الطّبقة الوسـطى ما يكفي من الهموم للتّغلّب عليها، ولا تنقصها الحاجـة إلـى التّغلّـب على السّياسـيّين المعطّلين والحكومـة المختلّة». هذه الرّسالة كان لها بالغ الأثر. كانت مهمّة. فالقضيّة الأساسيّة للعام 2016 هي التّحدّيـات الحقيقيّـة الّتـي واجهتهـا الطّبقة الوسـطى الأمريكيّة: «كلّ ما علينا فعله هو منح الطّبقة الوسطى فرصةً للنّضال. إنّها ليست مبالغة. عندما تكون الطّبقة الوسطى بخير، يكون الجميع بخير. عندما ينمو الاقتصاد، تجد الطّبقة العاملة والفقراء وسـيلة للنّهوض. لم يحصل أبدًا على الإطلاق، في تاريخ أمريكا، أن خذل النّاس العاديّون بلدهم، عندما أعطوا فرصةً للنّضال، أبدًا. أبدًا. أبدًا».

ألقيـت فـي ذلـك اليـوم خطابيـن حول الموضوع، مع جلسـات أسـئلة

وأجوبة طويلة، وكنت متأكّدًا من أنّني تمكّنت من إنشاء رابط مع الأشخاص في تلك القاعات. أرادوا من يخاطب أحلام الطّبقة الوسطى. شخصًا يفهم كم كانت الأمور صعبة. شخصًا يعطيهم الأمل في أنّ أحلامهم لم تمت. كان النّاس على استعداد لسماع هذه الرّسالة، وكنت متأكّدًا من قدرتي على إيصالها.

بحلول الوقت الّذي صعدت فيه إلى الطّائرة الرّئاسيّة الثّانية في رحلة العودة إلى واشنطن، حيث كان لديّ اجتماع للتّحضير لرحلتي إلى أمريكا الوسطى، كنت أشعر بالإرهاق. وأعاني من الحمّى في الوقت نفسه. وأصبح بإمكاني سماع صوت صفير في رئتي اليسرى في كلّ مرّة آخذ فيها نفسًا عميقًا. ذهبت إلى مقصورتي الخاصّة واستلقيت على الأريكة. جاء دوك أوكونور قبل الإقلاع، وفحصني مطوّلًا، وأعطاني موسينكس ومضادّات حيويّة.

سحبت نفسي من الفراش في صباح اليوم التّالي، وذهبت إلى المكتب، لكن مع مرور النّهار، شعرت أنّ حالتي تزداد سوءًا. لم يكن وضعي يتحسّن، حتّى مع المضادّات الحيويّة. جاء الدّكتور أوكونور للاطمئنان عليّ وبدا قلقًا. كانت هذه هي المرّة الثّانية الّتي أمرض فيها خلال السّنوات السّتّ الّتي عالجني فيها. كان سعالي جافًا ولكنّه متواصل، والحمّى تزداد- ربّما لأنّني أصبت بالتهابٍ رئويّ في الجهة اليسرى. أعطاني دوك ثلاثة مضادّات حيويّة وحقنة بالوريد لإعادة بعض السّوائل إلى جسمي. ثمّ جاء إلى مكان الإقامة في اليوم التّالي وأعلن أنّ تحسّني طفيف جدًا، أو شبه معدوم. وأخبرني دوك أنّني مريض إلى درجة توجب عليّ إعادة النّظر في الرّحلة القادمة إلى أمريكا الوسطى. كان من المقرّر أن أسافر إلى أوروغواي في اليوم التّالي، السّبت، 28 شباط (فبراير)، وأقضي يومين في أوروغواي بمناسبة تنصيب الرّئيس الجديد، ثمّ يومين في مدينة غواتيمالا لإجراء مفاوضات رئيسة مع رؤساء

دول المثلّث الشّمالي. أخبرت دوك أن ينسى فكرة بقائي. فالرّحلة مهمّة جدًا. ويمكنني الحصول على قسط من النّوم والتّعافي على متن الطّائرة، ويمكنه البقاء بجانبي لمراقبتي. لكن يتوجّب عليّ القيام بهذه الرّحلة.

قال دوك: «سيّدي، أنا أفهم أنّ إلغاء رحلة دوليّة هو أمر كبير. أفهم ذلك. إنّه ليس مادّة إعلاميّة جيّدة. إنّه محرج. ولكن هل تعلم ما هو محرج كذلك وليس مادّة إعلاميّة جيّدة؟ أن تنهار أمام الكاميرا. أنت تذكر العشاء الرّسميّ في اليابان عندما تقيّأ جورج بوش على الطّاولة، أليس كذلك؟ إذا كان هذا هو فيديو اليوتيوب الّذي تريده، فامضِ قدمًا».

«هذه الرّحلة مهمّة، دوك».

«أعلم أنّ هذا مهمّ يا سيّدي، لكنّك مصاب بالتهابٍ رئويّ. والآن تبدو في حالةٍ يرثى لها. لا يمكنني أن أجعلك تبدو بحالةٍ أفضل». استمرّ في الكلام، ولم تكن لديّ القوّة لإيقافه. «لم أنصح أبدًا بإلغاء الرّحلة، أنت تعرف ذلك. ولكن عليك أن تتحمّل العواقب الآن، وإلّا فلن تتحسّن صحّتك. هذا سيّئ». لم أوافق على الخطّة. خرج دوك وعاد مع ستيف، الّذي وافق على أنّ عليّ إلغاء الرّحلة. لم أوافق. خرج دوك وعاد مع ستيف وجيل. ووافقت أخيرًا – جزئيًا. لن أسافر إلى أوروغواي في اليوم التّالي، لكنّني سأسافر إلى مدينة غواتيمالا للجزء الثّاني من الرحلة، والّذي يشكّل الجزء الحاسم، بعد أن أكون قد أمضيت يومين للرّاحة والشّفاء.

بقيت في المرصد البحريّ في نهاية ذلك الأسبوع، أفعل ما يمكنني فعله، لكنّني لم أشعر بتحسّن كبير. أجريت مكالمة مع الرّئيس المنتخب تاباري فاسكيز لأعتذر عن عدم حضوري مراسم تنصيبه في مونتيفيديو، وأجريت مكالمة مع الرّئيس بوروشنكو، الّذي أرادني أن أعرف أنّه بعد مرور أسبوعين على اتفاقيّة وقف إطلاق النّار الجديدة، لم يوقف الرّوس بعد القصف عبر الحدود إلى أوكرانيا. وما زال الجنود والمدنيّون الأوكرانيّون

يُقتلون. ولم يجد المراقبون الدّوليّون أيّ دليل على أنّ روسيا كانت تزيل مدفعيّتها الثّقيلة من الخطوط الأماميّة، كما وافق بوتين على القيام به. طلبت من بوروشنكو أن يبقى قويًا، وسأستمر في فعل ما بوسعي للمساعدة. كما هنّأته على قانون مكافحة الفساد الذي ستقرّه حكومته الجديدة الأسبوع المقبل، والّذي سيجلب من صندوق النّقد الدّوليّ الأموال الضّروريّة لتحقيق الاستقرار في الاقتصاد الأوكرانيّ وحمايته من خيانة بوتين المستمرّة.

كنت أنا وجيل في الطّابق العلويّ في الرّكن الخاصّ عندما تلقّينا أوّل اتّصال من هيوستن يتضمّن تحديثًا لحالة بو. بدت نتائج السّكانر الجديدة سيّئة، ولكن بالطّريقة الّتي سمعتها بها، لم يكن بوسع الأطبّاء التّأكّد ممّا إذا كانوا يرون نموًا جديدًا للورم أو مزيدًا من النّخر، وهو ما يشكّل دليلًا على تدمير الخلايا السّرطانيّة. قالوا إنّهم سيتّصلون بمجرّد حصولهم على معلومات أكثر تفصيلًا. أغلقت الخطّ وأخذت نفسًا عميقًا. قلت لنفسي: ليكن نخرًا. أرجوك يا الله ليكن نخرًا. اتّصلوا بنا مع التّقرير في وقتٍ لاحقٍ من تلك اللّيلة. الأخبار لا يمكن أن تكون أسوأ. كان هذا كلّه نموًا جديدًا للورم. فالخلايا السّرطانيّة في دماغ بو تتكاثر بسرعة وفي أماكن جديدة. غاص قلبي. إنّها اللّحظة التي خشيناها منذ اليوم الّذي أزال فيه الدّكتور صوايا الورم الأصليّ.

ربطني هانت بمكالمة جماعيّة منفصلة في نهاية ذلك الأسبوع، حتّى يتسنّى لنا نحن الثّلاثة – بو وهانت وأنا – التّحدّث مع الدّكتور يونغ والدّكتور صوايا. شرح الأطبّاء التّركيبة المقلقة للنّموّ الجديد. هناك كتلة كبيرة أمام المكان الّذي أزال منه الدّكتور صوايا الورم الأصليّ. أبدى صوايا استعداده لاجراء عمليّةٍ جراحيّة وإزالته في أقرب وقتٍ ممكن. ولكن كان هناك أيضًا نموّ خلف الورم الأصليّ، والّذي لن يتمكّن الدّكتور صوايا من إزالته بأمان.

أخبرنا الدّكتور يونغ أنّ هناك خيارات أخرى للعلاج ولا يزال هناك

باعث للأمل. ارتأى هانتر أنّ بإمكانهم ربّما تجربة العلاج المناعيّ التّجريبيّ الجديد الواعد الّذي تحدّثنا عنه قبل بضعة أشهر. فقد أعدّ الفريق الطّبّيّ في ام دي أندرسون بو للعلاج قبل شهر من ذلك، عن طريق سحب دمه وجمع بعض الخلايا التّائيّة – خلايا الدّم البيضاء الّتي تحدّد العناصر الغريبة الضّارّة في الجسم وتدمّرها. تقوم فكرة هذا العلاج المناعيّ الجديد على تحديد البروتين الفريد في الخلايا السّرطانيّة الذي يحفّز النّموّ وهندسة الخلايا التّائيّة الطّبيعيّة للمريض لمهاجمة هذا البروتين الفريد فقط. من النّاحية النّظريّة، ستلتهم الخلايا التّائيّة الخلايا السّرطانيّة وتترك جميع خلايا الدّماغ السّليمة القريبة دون مساس. لكن اتّضح أنّهم لم يتمكّنوا من إنجاح ذلك. فقد أثبتت خلايا بو السّرطانيّة أنّها شيطانيّة للغاية. لم يكن الأطباء قادرين على تحديد وعزل البروتين الفريد لدى بو الّذي كان يحفّز النّموّ.

أكّد لنا الدّكتور يونغ أنّ هناك علاجًا آخر محتملًا، على الرّغم من أنّه خارج عن المألوف أكثر من أيّ شيء حاولوه حتّى الآن. حيث سيقوم الدّكتور صوايا بإزالة العقدة السّرطانيّة الأماميّة جراحيًا، وبعد بضعة أيام، يقوم أخصائيّ آخر في أندرسون بحقن الورم الجديد الّذي ينمو في الخلف بفيروس حيّ مصمّم خصيصًا. كان الغرض من الحقن هو تنشيط جهاز المناعة لدى بو والسّماح له بمهاجمة الخلايا السّرطانيّة. لقد حقّقوا بالفعل نجاحًا استثنائيًّا مع عددٍ قليل من المرضى الخمسة والعشرين الّذين تلقّوا حقنة الفيروس الحيّ. كما أوضح الدّكتور يونغ أنّهم يريدون أيضًا تجربة شيء آخر معًا – علاج مناعيّ منفصل مصمّم لزيادة الضّغط العضويّ على الورم. سيكون بو أوّل شخص يتلقّى هذا المزيج على الإطلاق، وكان الخطر هائلًا. كان هناك احتمال أن يبالغ جهاز المناعة لدى بو ويبدأ في التهام خلايا الدّماغ السّليمة أيضًا. سأل هانتر معظم الأسئلة في ذلك اليوم، لأنّه كان يعرف عمّا يتحدّث الدّكتور، ويمكنه التّحدّث نيابةً عن بو. لقد تهت قليلًا

وأنا جالس هناك أستمع إلى المصطلحات الطّبّيّة بينما كان المطر المتجمّد يضرب نوافذ المرصد. كنت لا أزال أشعر بالضعف، فيما رأسي يسبح في كل هـذا الحديـث عـن البروتينات والأجسـام المضادّة ومولّدات المضادّات والفيروسات المعاد هندستها. لم أكن متأكدًا من المسار الصّحيح، لكنّ بو حسم الأمر. كلّه جيّد. لنقم بذلك. كلّه جيّد. كلّه جيّد.

وأوضـح الأطبّـاء أنّ الجراحـة يجـب أن تنتظـر ثلاثة أو أربعة أسـابيع، لإتاحة الوقت لجسمه كي يصبح خاليًا من أدوية العلاج الكيميائيّ الّتي كان بـو يأخذهـا الآن، حتّـى يتمكّـن مـن الشّـفاء بعد جراحة دماغيّـة أخرى. قرّر الأطبّاء إجراء الحقنة الأولى من العلاج المناعيّ - المسمّى بالجسم المضادّ لـ (بي دي-1) في أسرع وقتٍ ممكن. أراد الدّكتور يونغ إجراء العمليّة في منتصف الأسبوع المقبل، يوم الأربعاء، 4 آذار (مارس).

عندما أغلقت الهاتف، حدّقنا أنا وجيل بعضنا في بعض، واحتضنّا بعضنا البعض. في تلك اللّحظة، حتّى بين ذراعيها، أعتقد أنّني فقدت الأمل. كنت مصمّمًا على عدم الانهيار أمام جيل، لأنّني أعرف أنّ ذلك سـيخيفها حقًا. فدخلت إلى غرفة النّوم، وأمسكت بالمسبحة وبدأت أصلّي، دون أن أعرف مـا أطلبـه، لكـنّ الصـلاة البسـيطة هدّأتني. من الواجب علـيّ أن أكون قويًّا. وأن أحافظ على شعوري بالأمل. المعركة الحقيقيّة تجري الآن. نجا بو من الجولات الأولى والمتوسّـطة، لكنّ الجولة الحاسـمة اقتربت بسـرعة، وبات علينا جميعًا أن نتأهّب. هذه الجولة تحديدًا هي مسألة حياة أو موت.

عرفت أنّ هانت سوف يذهب إلى هيوستن ليكون مع شقيقه عند تلقّي الحقنـة الأولـى مـن الأجسـام المضادّة لـ (بـي دي-1)، ولكنّني قضيت تلك اللّيلـة يـوم الأحـد أتحاور مع نفسـي، حول مـا عليّ فعله بعد ذلك. فالخطّة الرّسميّة بالنّسبة لي في تلك اللّحظة تقتضي الصّعود على متن الطّائرة والقيام

بالرّحلة إلى غواتيمالا في صباح اليوم التّالي، الاثنين 2 آذار(مارس). لكنّني أردت بشدّة أن أبقى في المنزل وأكون مع بو. ما أردت فعله حقًا هو الذّهاب إليه لاحتضانه. ووثقت أنّني لو اتّصلت بباراك في البيت الأبيض في تلك اللّيلة، وأخبرته بسبب إلغائي رحلتي، فسوف يقول: «اذهب، جو. خذ الوقت الّذي تحتاجه». لكنّني كنت أعلم أيضًا أنّه لن يحدث شيء مع بو أثناء وجودي خارج البلاد، وسيستدعي إلغاء رحلتي المزيد من لفت النّظر حول ظروفه. وفي الجانب الآخر، سأعود صباح الأربعاء قبل أوّل حقنة مضادّة لـ (بي دي-1).

علمت أيضًا أنّ بو سيصاب بخيبة أمل إذا ألغيت الرّحلة، خاصّةً إذا كان ذلك بسببه. كان لديّ التزام - واجب، كما يسمّيه بو - تجاه البلاد، ومع ذلك، لا بد لي من الاعتراف، أنّه لو كان في البيت الأبيض في تلك اللّيلة رجلٌ مختلفٌ - شخصٌ أشكّ في سياساته وطباعه - لربّما أجريت هذه المكالمة. ربّما كنت تركت وظيفتي لبعض الوقت، لكنّني شعرت بالتزامٍ تجاه باراك، الّذي هو صديقي. لقد وضع الرّئيس ثقته وإيمانه بي، واعتمد عليّ. كما أنّ لديه ما يكفي للقلق بشأنه بالفعل دون إضافتي إلى قائمته.

ركبت أنا وجيل المروحيّة البحريّة في السّاعة التّاسعة والأربعين دقيقة من صباح اليوم التّالي، وتوجّهنا إلى قاعدة أندروز الجوّيّة، واستقلّينا طائرة الرّئاسة الثّانية في رحلة إلى مدينة غواتيمالا. لم أكن قد نمت بشكلٍ جيّد وكنت لا أزال أتناول عقار موسينكس والمضادّات الحيويّة، ومن الصّعب عليّ التنفّس بعمق دون أن أشعر بوخز حادّ في رئتي اليسرى، لكنّني كنت واثقًا من أنّني أفعل الشّيء الصّحيح. استقرّيت في مقصورتي وبدأت في قراءة كتب الإحاطة الاستخباراتيّة الموجزة.

ربّما كنت ضمن الأقلّيّة حتّى في محيط البيت الأبيض، ولكنّني اعتقدت حقًا في ذلك الوقت أنّ أمريكا الوسطى لديها الإمكانيّات الأكبر بالنّسبة

لإدارتنا من حيث العوامل الّتي تغيّر قواعد اللّعبة لأمننا القوميّ على المدى الطّويل. كما يحدث كثيرًا، فقد نشأت الفرصة من أزمة، عندما بدأ آلاف الأطفال من المثلّث الشّماليّ – غواتيمالا وهندوراس والسلفادور – بالظّهور على حدودنا الجنوبيّة في صيف العام 2014. وقد تصدّر تدفّق الأطفال غير المصحوبين بذويهم العناوين الرّئيسة، واستحوذ كذلك على مخيّلة الشّعب الأمريكيّ. ما الّذي يدفع الكثير من الأهل إلى وضع أطفالهم في حافلة وإرسالهم إلى أمريكا بمفردهم؟ ما الّذي يتخيّله الأهل على أنّه أفضل بديل ممكن؟ إلى أيّ مدى ساءت الأمور بهؤلاء الآباء حتّى يعرّضوا حياة أطفالهم إلى الخطر؟

عندما التفت إليّ باراك وقال: جو، عليك أن تفعل شيئًا حيال هذا الموضوع، كنت سعيدًا لأنّه اختارني. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتّى أدركت أنّ لدينا فرصة حقيقيّة لتغيير مسار التّاريخ قليلًا. في الواقع، من بين جميع مناطق الأزمات حول العالم، كنت أرى أنّ أمريكا الوسطى لديها الفرصة الأفضل. مع بقاء عامين فقط في المنصب، لم يكن لدينا متّسع من الوقت لإيجاد الحلول في معظم الأماكن. أفضل ما يمكننا فعله في الشّرق الأوسط هو الحفاظ على المسار، والبدء في بناء الآليّات بين حلفائنا لبدء الحملة الطّويلة لتعطيل وتدمير داعش والجماعات الإرهابيّة الأخرى. كان الاستقرار الحقيقيّ في بلدان مثل العراق وليبيا وسوريا بعيد المنال. في أوروبا الشّرقيّة، كلّ ما يمكننا فعله هو الاستمرار في بناء توافق في الآراء لفضح وعزل بوتين وروسيا. وربّما يمكننا البدء في وضع أساس معيّن لإحراز تقدّم حقيقيّ مع الصّين. لكنّني أصبحت مقتنعًا أنّ لدينا فرصة جيّدة حقًّا، إذا تصرّفنا بذكاء، وكان لدينا الكثير من الشّجاعة وبعضًا من الحظّ، لوضع علاقاتنا في أمريكا اللّاتينيّة على مسارٍ جديد مليء بالأمل تمامًا – مسار يمكنه تحويل المنطقة، من الاعتقاد السّائد لدى سكّانها على نطاقٍ

واسع بأنّ الولايات المتّحدة تمثّل الدّولة المتنمّرة في القارّة، والّتي تملي سياستها على البلدان الأصغر، إلى إدراك أنّ بإمكاننا أن نكون شركاء حقيقيّين في تحسين تلك البلدان.

كنت أردّد هذا الكلام حتى قبل أزمة الأطفال غير المصحوبين بذويهم في العام 2014. لقد وضعت لأوّل مرّة بعض الأسس التّوجيهيّة لمشاركة الولايات المتّحدة في أمريكا اللّاتينيّة في أيار (مايو) 2013، في خطابٍ ألقيته في قاعةٍ مخصّصة للوقوف فقط لدى وزارة الخارجيّة، أمام حشدٍ يتضمّن عشرات الدّبلوماسيّين والمسؤولين الحكوميّين الآخرين من جميع أنحاء أمريكا اللّاتينيّة. قلت: «في المنطقة، لا يزال ينظر إلينا الكثيرون على أنّنا غير آبهين أو مستبدّين أو كليهما، لكنّني سأجيب بأنّنا لسنا كذلك الآن. ولا يزال الكثيرون في بلدي يتطلّعون جنوبًا إلى المنطقة الّتي يبلغ عدد سكانها 600 مليون نسمة، ويشاهدون في الغالب جيوبًا من الفقر والصّراع. ولكنّكم لستم كذلك الآن. لا تعدّ أيّ من هذه الصّور النّمطيّة دقيقة. وأنا أعتقد أنّها لم تعد كذلك منذ بعض الوقت».

«إنّ التغييرات الجارية تمنحنا جميعًا فرصةً للنّظر إلى نصف الكرة الأرضيّة بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا. أعتقد أنّ علينا التّحدّث عن نصف الكرة الأرضيّة كطبقةٍ وسطى، آمنة وديمقراطيّة. من كندا إلى تشيلي وفي كلّ بقعةٍ بينهما».

كانت أمريكا الوسطى حلقة وصل مهمّة لضمان تحقيق ذلك. وبناءً لحدْسي، بعد أن عملت عن كثب مع رؤساء غواتيمالا وهندوراس والسّلفادور خلال الأشهر التّسعة الماضيّة، فهم يعتقدون أنّني أعني ذلك حقًّا. وأنّه كان ممكنًا.

قال صديقي القديم تيب أونيل، المتحدّث باسم مجلس النّوّاب الأكثر حيويّة ونجاحًا في القرن العشرين، «كلّ السّياسة محلّيّة». لقد كنت متواجدًا

[في العمل السّياسيّ] لفترةٍ طويلة بما يكفي لأفترض قدرتي على تحسين هذا البيان. أعتقد أنّ السّياسة كلّها شخصيّة، لأنّ السّياسة تعتمد في الأساس على الثّقة، وما لم تتمكّن من إقامة علاقة شخصيّة، فمن الصّعب للغاية بناء الثّقة. هذا صحيح بشكلٍ خاصّ في السّياسة الخارجيّة، لأنّ النّاس من بلدان مختلفة غالبًا لا يعرف بعضهم سوى القليل عن بعض، ولديهم القليل من التّاريخ والخبرة المشتركة. لقد قضيت ساعات لا تحصى في محاولة بناء الثّقة عبر هذه الانقسامات، واتّبعت دائمًا نصيحة والدي: لا تملِ على أحد ما هي اهتماماته. كن صريحًا ومنفتحًا معه بشأن اهتماماتك. وحاول أن تضع نفسك مكانه. حاول أن تفهم آماله وحدوده، ولا تصرّ أبدًا على أن يفعل شيئًا تعرف أنّه لا يستطيع فعله. إنّ الأمر يتعلّق فقط ببذل الجهد لبناء علاقة شخصيّة.

أصبح رئيس غواتيمالا أوتو بيريز مولينا، وخوان أورلاندو هيرنانديز رئيس هندوراس، وسلفادور سانشيز سيرين رئيس السلفادور أصدقائي في الأشهر التّسعة الماضية. أظنّ أنّهم وثقوا بي. أخبرت الزّعيم الشّيوعيّ القديم من السّلفادور، الرّئيس سانشيز سيرين: «إذا انتهى بي الأمر إلى الغابة، فأنا أريد أن أكون معك». وكنت أنا جهة الاتّصال بهم. كانوا يعلمون أنّني أتحدّث باسم الرّئيس. كنت صديقهم المقرّب. وكنت أعلم أنّه إذا ظهر بديل جديد فجأة لقمّة آذار (مارس) 2015، فهناك احتمال أن يعاني المشروع برمّته من انتكاسة خطيرة. وهذا احتمال لم أكن مستعدًّا للمخاطرة فيه.

وصلت إلى مدينة غواتيمالا مع تقدمة حقيقيّة بين يديّ – إمكانيّة تقديم حزمة مساعدات جديدة كبيرة للمثلّث الشّماليّ. لقد قمت بتجميع حزمة من شأنها أن تهتمّ ليس فقط بالشّواغل الأمنيّة للبلدان الثّلاثة، ولكن أيضًا بقضايا الحوكمة. لقد عملت مع وزارة الخارجيّة والموظّفين التّابعين لي، وبدعم من

الجمهوريّين والدّيمقراطيّين في مجلسيّ النّوّاب والشّيوخ، تمكنّا من تطوير حزمة مساعدات مماثلة لخطّة كولومبيا، والّتي ساعدت في جعل كولومبيا تقف على قدميها. تجاوزت حزمة المليار دولار للمثلّث الشّمالي أيّ شيء رأوه أو توقّعوه من الولايات المتّحدة. يمكن للمنطقة دائمًا الاعتماد على الكونغرس الّذي يسيطر عليه الجمهوريّون لتقديم ربع مليار دولار لحظر المخدّرات، لكنّ حجم ونطاق حزمة المساعدة هذه كان شيئًا جديدًا تمامًا. تضمّن طلب الميزانيّة أموالًا للشّرطة والأمن، بالتّأكيد، لأنّ هذه البلدان قد تصدّرت العالم في معدّلات القتل، لكنّ طلب إدارتنا وازن بين الأمن والمساعدة على أساس الدّرس الرّئيس المستفاد من خطّة كولومبيا: لا تعدّ عمليّات إنفاذ القانون العالية الكثافة حلًا طويل الأمد بدون قضاءٍ قويّ ومؤسّسات حكوميّة قويّة.

كما تضمّن طلب الميزانية، الّذي رفع إلى الكونغرس في كانون الثاني (يناير)، تمويل أندية الفتيان والفتيات للمساعدة في منع الشّباب المعرّضين للخطر من الانضمام إلى العصابات؛ تقديم الدّعم لمساعدة الوكالات الحكوميّة في تحصيل الضّرائب بشكلٍ أكثر فعاليّة وضمان إدارة هذه العائدات الضّريبيّة بشكلٍ عادلٍ وشفّاف؛ والاستثمار في تكامل الطّاقة الإقليميّ لخفض تكاليف الطّاقة المرتفعة بشكلٍ لا يصدّق. اعتقدت أنّ جزء الطّاقة هو المفتاح. يمكن أن يؤدّي خفض تكاليف الطّاقة بالنّسبة للمواطن العاديّ في المثلّث الشّمالي إلى تقليص عدم المساواة، وتعزيز النّموّ الاقتصاديّ، وحتّى المساعدة في خفض مستويات العنف.

كانت هذه إشارة إلى تغييرات أساسيّة في علاقتنا مع نصف الكرة الأرضيّة بأكملها. إنّها خامس رحلة رئيسة لي في أقلّ من عامين. في غضون ذلك، كان الرّئيس أوباما على وشك تطبيع العلاقات الدّبلوماسيّة مع كوبا، الأمر الذي جعل من الصّعب على الغوغائيّين التّحريض على الإمبرياليّة

الأمريكيّة. وعندما وقف شخص ما في الإدارة وقال: «ليس الأمر ما يمكننا فعله من أجلكم، بل ما يمكننا فعله معًا»، بدأت أمريكا اللّاتينيّة بالاقتناع. وقد تحدّثت بالفعل مع أصدقائي في مجلس الشّيوخ، من كلا الحزبين، وعرفت ما هو ممكن. لذا يمكنني أن أنظر في عين كلّ من رؤساء المثلّث الشّماليّ، وأخبرهم أنّ المسار يبدو رهانًا رابحًا. قد لا نحصل على المليار بالكامل، لكنّنا قد نقترب من ذلك.

بحلول الوقت الّذي ذهبت فيه إلى الاجتماع الحاسم للرّحلة – أنا وزعماء المثلّث الشّماليّ فقط – أعتقد أنهم أدركوا أنّني كنت جادًا في مساعدتهم. لكنّني أخبرتهم أنّ عليهم أن يكونوا جادّين في مساعدتي لهم. فأنا سأضغط على مجلس الشيوخ لتمرير طلب الميزانيّة، ولكن هناك أشياء يتعيّن عليهم القيام بها لطمأنة الجهات المختصّة في الكونغرس الأمريكي. قلت لهم أوّلًا: «يعتقد جميع من أصادفهم أنّكم فاسدون. ثانيًا، يعتقدون أنكم لا تلتزمون بوعدكم جيّدًا. ثالثًا، إنّ نظامكم الضّريبيّ ومخطّطاتكم التّنظيميّة فاسدة. وإنّكم لا تجمعون أيّ ضرائب تقريبًا من الأثرياء، بينما تثقلون كاهل الفقراء والطّبقة الوسطى الهزيلة. لذلك، عليكم الالتزام بإجراء بعض التّغييرات».

كان كلّ منهم يعلم من محادثاتنا السّابقة أنّني أتوقّع منهم قطع بعض الوعود السّياسيّة الصّعبة، وكان على كلّ منهم معالجة شبكات التّهريب وتصحيح المعلومات الخاطئة حول نظام الهجرة الأمريكيّ لوقف تدفّق المهاجرين عبر حدودنا الجنوبيّة. كما كان على كلّ منهم أن يلتزم التزامًا جادًّا بتحقيق نوع الحكم الّذي يخدم جميع مواطنيه، وعليه كذلك أن يضاهي حزمة مساعداتنا، وأكثر بكثير من دولارٍ مقابل دولار. لقد شجّعتهم حقًّا على تطوير خطّةٍ جادّة والبدء بتحقيق النّتائج. إذا فعلوا ذلك، فقد أكّدت لهم: سوف نلبّي أنا والرّئيس أوباما إرادتهم السّياسيّة خطوةً بخطوة. لكن إذا لم

يتمكّنوا من التّقدّم خطوة إلى الأمام، فلن نتقدّم. أخبرتهم أنّه إذا كان ما أطلبه صعبًا جدًّا عليهم، فإنّني أفهم. ليس هناك أيّ مشكلة. أفهم ذلك. لكن إذا قالوا: نعم، فسأذهب إلى الكابيتول هيل وأقدّم التزاماتٍ شخصيّة، مخاطرًا بمصداقيّتي حول استعدادهم لمعالجة الإصلاحات الدّاخليّة. سأقدّم تأكيدي للكونغرس بأنّ الأمور ستكون مختلفة هنا. قلت: «إذا لم تفوا بوعودكم، سأكون أنا من يلاحقكم».

كان من المقرّر عقد الاجتماع الخاصّ مع الرّؤساء الثّلاثة لمدّة خمس عشرة أو عشرين دقيقة، لكنّه استمرّ أكثر من ساعة. وخرجنا بهدفٍ حقيقيّ. أمضينا نحن الأربعة السّاعات العديدة التّالية في صياغة بيان غير منمّق بعنوان «بيان مشترك لرؤساء السّلفادور وغواتيمالا وهندوراس ونائب رئيس الولايات المتّحدة الأمريكيّة بشأن خطّة التّحالف من أجل ازدهار المثلّث الشّماليّ». لم نشأ أنا ومولينا وهيرنانديز وسانشيز سيرين إضاعة الوقت، فاتّبعنا نهجًا غير تقليديّ في التّفاوض بشكلٍ مباشر، بينما كان موظّفونا يتدافعون ذهابًا وإيابًا وراءنا للاتّفاق على لغة محدّدة.

كانت العمليّة مرهقة، لكنّنا خرجنا بوثيقةٍ لا يستهان بها. تضمّنت أكثر من ثلاثين التزامًا جادًا ومحدّدًا من رؤساء المثلّث الشّماليّ تعهّدوا فيها باستخدام الأموال والخبرة الّتي سنقدّمها للتّأكّد من أنّ حكوماتهم ستستجيب بالفعل لاحتياجات مواطنيهم. كما أنّ هناك التزامات محدّدة لتوفير الوصول إلى التّعليم الجيّد للمحرومين؛ وتمكين المرأة؛ وتحسين الرّعاية الصّحيّة وبرامج التّغذية والسّلامة العامّة؛ وإصلاح النّظام القضائيّ من أعلى إلى أسفل - من أقسام الشّرطة إلى المحاكم إلى نظام السّجون. تضمّنت أيضًا تعهّدات لتعزيز العدالة في النّظام الضّريبيّ وكذلك الكفاءة والفعاليّة في تحصيل الضّرائب، وخطط مفصّلة لتوفير الفرص الاقتصاديّة والطّاقة بأسعار معقولة. على أن توفّر حكومة الولايات المتّحدة خبراء من

وزارات العدل والخزانة والجمارك والطّاقة لدينا لمساعدة قادة غواتيمالا وهندوراس والسّلفادور على إنشاء آليّات حكم لم تكن موجودة بعد. لقد كنت مؤمنًا حقًا بأنّ هذه الجهود يمكن أن تضع الدّول الثّلاث على طريق الاستقرار السّياسيّ، وتوفّر لها نوعًا من التّوسّع الاقتصاديّ الواسع الّذي يستفيد منه الجميع.

وقّعنا نحن الأربعة – الرّؤساء مولينا وهيرناندیز وسانشيز سيرين وأنا – على الوثيقة ونشرناها للجمهور. كان هذا هو المنتج الحاسم للرّحلة، مطبوعًا. يمكنني تقديم البيان إلى أعضاء الكونغرس كدليلٍ على الجديّة من جانب قادة المثلّث الشّماليّ، وإثباتًا للمساءلة الّتي قمنا بتضمينها في الاتّفاقيّة. كانت خطّتي هي أن أوضّح تمامًا للكونغرس أنّني لن أسمح لوزارة الخارجيّة بالإفراج عن الأموال، ما لم يجرِ تنفيذ التزامات واضحة وملموسة – مثل تعيين وتدريب أعداد محدّدة من المعلّمين ورجال الشّرطة في الأحياء المعرّضة للخطر على وجه الخصوص، أو إصابة الأهداف في زيادة العائدات الضّريبيّة من أغنى مواطنيها. سوف أعد بأنّنا لن نكتب شيكًا لأيّ برنامج لحين تحقيق الهدف من ذلك البرنامج. سوف أضع مصداقيّتي على المحكّ في قاعات الكونغرس، حيث كان الأعضاء يعلمون أنّني لم أخلّ يومًا بأيّ التزام.

أجريت حديثًا مطوّلًا وصريحًا مع الموظفين الرّئيسين في المقصورة الأساسيّة للطّائرة الرّئاسيّة الثّانية في طريق العودة. قلت لهم إنّ هناك الكثير من العوائق الّتي تقف في طريق نجاح هذه الخطّة بالفعل، لكنّني تأثّرت حقًا بأنّ رؤساء المثلّث الشّماليّ الثّلاثة بدوا على استعداد للارتقاء إلى مستوى الأزمة الحاليّة. أخبرت الموظّفين أنّهم قاموا بعملٍ رائع، وأنّ هناك الكثير للقيام به عندما نصل إلى بلدنا، سيكون علينا أن نبدأ في الضّغط على

الكونغرس من أجل الاعتمادات الماليّة، وعلينا أن نستخلص التزامات أكثر تفصيلًا من قادة المثلّث الشّماليّ. كما سنحتاج إلى مواءمة مساعدتنا بحيث ندعم كلًّا من الاحتياجات القصيرة الأجل – مثل معالجة العنف وانعدام الفرص في المجتمعات الأكثر ضعفًا – بينما نعمل أيضًا بصبر مع البلدان الثّلاثة على الإصلاحات الهيكليّة وتعزيز الحوكمة الّتي يمكن أن تؤدّي إلى تحقيق ازدهارٍ حقيقيّ هناك.

كان الوقت يقترب من منتصف ليل الثّلاثاء والحرارة لا تزال أقلّ من درجة التّجمّد في واشنطن عندما وصلت أنا وجيل إلى المرصد البحريّ. لقد عانيت من صعوبة النّوم في تلك اللّيلة، جرّاء التّفكير في أوّل حقنة للجسم المضاد لـ (بي دي–1) لبو، والّتي كانت مقرّرة في اليوم التّالي. كان بو لا يزال في ذهني في صباح اليوم التّالي، في المكتب، حيث كنت أطلع الرّئيس على ما أنجزناه في غواتيمالا. قضيت الكثير من اليوم بعد ذلك في مكتبي الخاصّ، في انتظار مكالمة من هيوستن حول عمليّة بو. كنت متعبًا وقلقًا وعاتبًا قليلًا على القدر. لماذا يحدث هذا لابني؟ إنّه لا يستحقّ ذلك. ألقيت نظرة خاطفة على جدول أعمالي لبقيّة الأسبوع وشعرت بالارتياح لرؤية أنّه لا يبدو مرهقًا جدًّا. شعرت أخيرًا وكأنّ لديّ متنفسًا للتّركيز على بو. ثمّ جاءت المكالمة من حيدر العبادي. لم يكن رجلًا سريع الانفعال، لكن من الواضح أنّه كان وسط أزمةٍ خطيرة. قال رئيس الوزراء العراقيّ الجديد: «جو، أنا بحاجة لمساعدتكم».

الفصل السّابع

المخاطر المحسوبة

كان رئيس الوزراء العبادي بحاجة إلى مساعدة عسكريّة جادّة في المعركة الجديدة من أجل تكريت، كما أخبرني عبر الهاتف في ذلك اليوم، 4 آذار (مارس) 2015، وكان بحاجة إليها على عجل. فقد كان العبادي في خطر من فقدان السّيطرة على معركة محوريّة ضدّ الورم الخبيث الجديد للإرهاب المتنامي في الشّرق الأوسط، الدّولة الإسلاميّة في العراق والشّام، أو داعش. كان طلبه كبيرًا، وتترتّب عليه تداعيات لكلّ من العراق والولايات المتّحدة. وإلى جانب التّداعيات العالميّة، كانت هذه قضيّة ذات أهميّة شخصيّة كبيرة بالنّسبة لي. من المؤكّد أن غالبيّة الأمريكيّين قد سئموا من ضغوطنا المكلفة الّتي استمرّت اثني عشر عامًا في العراق، وقد علت أصوات الكثيرين بشكلٍ مزعج. لا يمكنني ذلك. لقد استثمرت الكثير من الجهد في هذا المشروع، بعد أن عملت منذ العام 2003 للمساعدة في بناء حكومة فاعلة وشاملة في العراق، قد تتطوّر إلى ديمقراطيّة حقيقيّة. سافرت إلى العراق أكثر من عشرين مرة، أولاً بصفتي عضوًا بارزًا ورئيسًا للجنة العلاقات الخارجيّة في مجلس الشّيوخ، ثمّ بصفتي نائبًا للرّئيس، بعد أن أعلن لي باراك في اجتماع العام 2009 لكبار المسؤولين في المكتب البيضاويّ: «جو سيتولّى العراق».

يمكن القول إنّ قضيّة العراق كانت أكثر القضايا إحباطًا خلال أربعين

عامًا من مسيرتي المهنيّة في العلاقات الخارجيّة. اتّسمت العلاقات بين الفصائل الثّلاثة الرّئيسة في العراق – العرب الشّيعة والعرب السّنّة والأكراد – بالغضب والبارانويا، وتخلّلتها جولات من العنف الصّريح. ولّدت الفصائل الثّلاثة ضغائن قديمة وحديثة. جرى اقتطاع الحدود الحديثة للبلاد من الإمبراطوريّة العثمانيّة في أعقاب الحرب العالميّة الأولى، وقد ميّز النّظام البعثيّ لصدّام حسين الأقليّة العربيّة السّنيّة في البلاد، في حين جرى قمع تطلّعات الأغلبيّة العربيّة الشّيعيّة التي تركّزت في وسط وجنوب العراق، والأقليّة الكرديّة في الشّمال، بوحشيّة.

قلب الغزو الأمريكيّ عام 2003 هذا النّظام، وحرم السّنّة من حقوقهم، ومكّن الشّيعة، وأعاد إحياء حلم الأكراد بالاستقلال. اثنتا عشرة سنة من المحاولات لإقناع القادة السّياسيّين في العراق برؤية فوائد الحكومة القائمة على شيء آخر غير القوّة الغاشمة والهيمنة الطّائفيّة كانت مضيعة للوقت ومستنزفة، وشبه مستحيلة في نهاية المطاف، لكنّني لم أكن مستعدًا للتّخلّي عن ذلك. فقد خاطر بو بحياته لمدّة عام خدمة للقوّات المنتشرة في العراق. رأى الموت والدّمار هناك، رغم أنّه لم يتحدّث عن ذلك كثيرًا، لكنّه أصرّ دائمًا على أنّ ما تحاول الولايات المتّحدة القيام به كان نبيلًا. إذا كانت هناك فرصة معقولة لتصحيح الأمر في العراق – على المدى الطّويل – فقد اعتقد بو أنّ علينا المحاولة. لقد سبق أن ضحّينا بالكثير من النّاس الطّيّبين للتّخلّي عن ذلك. وفي اليوم الّذي اتّصل فيه العبادي، اعتقدت أنّ لدينا فرصة أخيرة. كانت المفارقة العجيبة أنّ المجموعة نفسها الّتي تهدف إلى تمزيق البلاد، داعش، كانت في الواقع تجمع العراقيّين معًا، على الأقلّ مؤقّتًا.

لم تفاجئ قوّة داعش في العراق الولايات المتّحدة فحسب، بل أذهلت التّحالف بأكمله على حين غرّة في صيف العام 2014، عندما

شنّت قوّاتها هجومًا خاطفًا في شمال وغرب البلاد. حيث فجّر مقاتلو داعش قوّات الأمن العراقيّة، واكتسبوا أوّل موطئ قدمٍ راسخٍ لهم في مشروعهم المتهوّر والبعيد المنال لإنشاء «خلافة الدّولة الإسلاميّة» القمعيّة في جميع أنحاء الشّرق الأوسط ومن ثمّ خارجه. استولى تنظيم داعش على ما يقرب من ثلث العراق، ومعظمه في المناطق ذات الأغلبيّة السّنيّة. استولت المجموعة على الأموال النّقديّة من البنوك الّتي نهبتها وما يوازي مئات الملايين من الدّولارات من الأسلحة المتطوّرة والمعدّات الّتي تُركت في ساحة المعركة عندما هربت الوحدات العراقيّة ذات القيادة الضّعيفة. أرهبت داعش السّكّان بقطع الرّؤوس والإعدامات الجماعيّة وحرق السّجناء وصلبهم – وفعلت ذلك علنًا وقامت بتسجيله على أفلام فيديو ليراها العالم بأسره. كما دنّست أو دمّرت المواقع الدّينيّة الشّيعيّة والمكتبات، وهدّدت الأقلّيّات المسيحيّة والأزيديّة بالإبادة الجماعيّة. وهدّدت داعش معقل الأكراد الغنيّ بالنّفط في كركوك وسيطرت على الموصل، ثاني أكبر مدينة في العراق، وكذلك تكريت، عاصمة محافظة صلاح الدّين. أدّى انتشار حكم داعش الدّمويّ إلى تغيير الحسابات السّياسيّة لجميع الفصائل الثّلاث في بغداد، بحيث أرغمهم على التّفكير مثل الثّوريّ الأمريكي القديم بن فرانكلين الّذي قال مقولته الشّهيرة عند توقيع إعلان الاستقلال: «علينا جميعًا أن نتماسك، أو بالتّأكيد، ستعلّق مشانقنا كلّ على حدة». استغلّ فريقي تلك اللّحظة من الأزمة لتحقيق مكاسب حقيقيّة. قضيت ساعات على الهاتف في العام 2014 – جنبًا إلى جنب مع السّفير ستيوارت جونز في بغداد، ونائب المبعوث الرّئاسيّ الخاصّ بريت ماكغورك، وفريقي للأمن القوميّ – في محاولة للحصول على تنازلات كافية من كلّ فصيل لتشكيل أساس حكومة ائتلافيّة شاملة. نظرًا لأنّ السّياسات الطّائفيّة العنيفة لرئيس الوزراء السّابق نوري المالكي

ساعدت في ظهور داعش، عملنا بجهدٍ كبير للتّفاوض على اتّفاق بين الفصائل الثّلاثة الّتي نصّبت في نهاية المطاف حيدر العبادي، الشّيعيّ الملتزم بحكومةٍ أكثر شمولًا، رئيسًا للوزراء. بعد قضاء بعض الوقت معه ومشاهدته وهو يعمل، صرت أرى العبادي كأفضل فرصةٍ لتشكيل حكومةٍ ائتلافيّة حقيقيّة فاعلة. تحدّث معي عن تحوّل بلاده إلى ديمقراطيّة راسخة في الشّرق الأوسط. اتّفقنا على الحاجة إلى ما أسماه «الفيدراليّة الفعّالة» – ممّا يعني السّماح بمزيد من الحكم الذّاتيّ للمحافظات المنفصلة، الّتي يسيطر على بعضها السّنّة وعلى بعضها الآخر الأكراد. وتحدّثنا عن الإمكانات الاقتصاديّة الضّخمة لاحتياطيّات النّفط الهائلة في البلاد. كان لدى العراق نفط أكثر من الكويت وروسيا، ونفط يكاد يساوي إيران. يمكن أن يكون النّفط نعمة يتقاسمها الجميع إلى حدّ ما – الرّابط الّذي يمكن أن يجمع العراق بعضه ببعض.

لقد عملنا جنبًا إلى جنب مع العبادي لتشكيل قوّة أمنيّة عراقيّة واستراتيجيّة قادرة على هزيمة داعش – استراتيجيّة تضمن بقاء العراقيّين في الصّدارة، حتّى نتمكّن من تجنّب إرسال عشرات الآلاف من القوّات الأمريكيّة إلى العراق. لقد أهلكت حكومة المالكي الجيش وهيكله القياديّ. كلاهما يجب إعادة بنائه. ساعد مستشارونا العسكريّون رئيس الوزراء العبادي في تحديد القادة العراقيّين الّذين يمكنه تعيينهم على أساس الكفاءة وليس الطّائفة الدّينيّة. لقد كلّفنا قواتنا الخاصّة بتقييم الوحدات العراقيّة الّتي يمكن إنقاذها بالفعل، وساعدناها في إعادة تشكيل فرقها، وبدأنا في تدريب جنود جدد. أعدنا تجهيز هذه القوّة الجديدة بمركبات مدرّعة وذخيرة وأسلحة صغيرة وصواريخ هيلفاير وتكنولوجيا الكشف عن القنابل.

عندما اتّصل بي العبادي في ذلك الصّباح في آذار (مارس) 2015، كانت عمليّة كبيرة ضد داعش في تكريت على وشك الانطلاق. وقد أوضح

لـي رئيـس الـوزراء عبـر الهاتف أنّه قلق للغاية بشـأن هـذا الاعتداء. كانت تكريت بؤرة للتّجنّي الطّائفيّ. قبل تسـع سـنوات، كان العنف بين الشّـيعة والسـنّة في سـامرّاء المجاورة قد دفع البلاد إلى حرب أهليّة دامية، وبعد قتل داعش الوحشـيّ لمائة وخمسـة عشـر طالبًا من القوّات الجويّة، كثير منهم من الشّـيعة، في قاعدة جوّيّة عراقيّة قريبة في حزيران (يونيو) 2014 كان احتمال تكرار ذلك حقيقيًا. فقد كانت عمليّة الاسـتيلاء على المدينة مخطّطة – ويجري تنفيذها في ذلك الحين – خارج نطاق سـلطة الحكومة المركزيّة في بغداد وخارج سيطرة وزير دفاعه. شكّلت تشكيلة متنوّعة من الميليشيات الشّيعيّة المعروفة باسم قوّات الحشد الشعبيّ حوالي ثلاثة أرباع الحملـة الّتـي بلـغ عددها ثلاثيـن ألف رجل. كان العديد منهم متحالفًا مع الحكومة الإيرانيّة. بدت طهران وكأنّها تقود العمليّة. فقد زوّدتهم بالمدفعيّة والدّبابـات والطّائـرات بـدون طيار والمستشـارين العسـكريّين. كان القائد الأكثر ظهورًا وشـهرة على الأرض هو قاسـم سـليماني، قائد فيلق القدس التّابع للحرس الثّوريّ الإيرانيّ الشّـهير. كان سـليماني يتجوّل في سـاحة المعركة، يرفع العلم الإيرانيّ، ويلتقط صور السّيلفي ليجري تداولها في كلّ من إيران والعراق. إذا نجح الهجوم، فسـيُنظر إلى سـليماني على أنّه بطل تكريت من قبل الكثير من السّكّان الشّيعة في المنطقة، وستصبح الحكومة العراقيّة في بغداد مَديونة لإيران، كما ستكون هناك سابقة خطيرة لعمليّات أمنيّـة موازيـة يديرهـا الإيرانيّـون في أماكن أخرى مـن العراق، علاوة على ذلـك، خشـي العبـادي مـن أن تـؤدّي الأعمال الانتقاميّـة العنيفة الّتي لا بدّ أن يقوم بها المقاتلون الشّيعة الغاضبون ضدّ السّنّة بمجرّد تحرير تكريت، إلى تصعيد التّوتّرات السّـنيّة الشّـيعيّة ممّا يعرّض حكومته الجديدة الهشّـة للانشقاق.

كلانـا يعلـم أنّ إخـراج داعـش من تكريت يجـب أن يجري بالطّريقة

الصّحيحة، وبالقوّات العسكريّة المناسبة. كان العبادي بحاجة إلى السّيطرة على العمليّة، وتولّي قوّاته الوطنيّة العراقيّة زمام القيادة، قبل أن تفلت الأمور من يده. كان يحتاج إلى مساعدة من الولايات المتّحدة للقيام بذلك، وكان يعتمد عليّ لتأمينها. لقد طلب منّا أن تكون القوّة الناريّة مطابقة، أو تفوق قوّة طهران: طائرات بدون طيّار لتوفير المعلومات الاستخباراتيّة، والمراقبة، والاستطلاع؛ ضربات جويّة موجّهة من الطّائرات الحربيّة الأمريكيّة ضدّ مقاتلي داعش على الأرض؛ ذخيرة إضافيّة وسترات واقية؛ مستشارين ومخطّطين أمريكيّين للمساعدة في تنسيق الهجوم. كنت مقتنعًا أنّ العبادي يستحقّ مساعدتنا. فقلت له: إنّني سأفعل ما بوسعي بأسرع ما يمكنني، لكن لا بدّ وأن يكون هناك شروط مرتبطة بأيّ مساعدة عسكريّة أمريكيّة.

عندما وردت المكالمة من هيوستن في اليوم نفسه، كان التّقرير واضحًا. لقد سارت عمليّة حقن بو بجسم مضاد لـ (بي دي-1) بيمبروليزوماب - أو بيمبرو، كما أسماه الأطبّاء - بشكلٍ جيّد. كان الإجراء نفسه بسيطًا. لقد وضعوا حقنة وريديّة في ذراعه، وأطلقوا حوالي 150 ملليغرام من بيمبرو في مجرى الدّم خلال الثّلاثين دقيقة التّالية، وقد تمّ ذلك. لكن بينما كنت أقف في مكتبي في الجناح الغربيّ، شعرت في داخلي أنّ القليل من الأشياء الأخرى ستكون بسيطة في الأشهر المقبلة. لقد تجاوزنا «روبيكون» الطّبّيّ أو نقطة اللّاعودة. المعركة الحقيقيّة كانت الآن، لبو ولأسرتنا.

لم يكن هناك ما يدلّ على المدّة الّتي ستستغرقها، لأنّها تُعدّ معركة جديدة في تاريخ علاج الورم الأرومي الدّبقيّ - هجوم ثلاثيّ الشّعب على السّرطان لم يُجرّب سابقًا بشكلٍ كامل. سيجري الدّكتور صوايا المناورة الثّانية المحفوفة بالمخاطر، وهي عمليّة جراحيّة لاستئصال الجزء القابل

للاستئصال من ورم بو، في نهاية شهر آذار (مارس). حالما يتعافى بو من تلك العمليّة، سيحقن الدّكتور فريدريك لانغ في الورم المتبقّي فيروسًا حيًا مصمّمًا خصيصًّا، ثمّ حقنة أخرى من بيمبرو بعد بضعة أسابيع، أو بمجرّد أن يتمكّن بو من التّعامل معها. على الأقلّ، تلك هي الخطّة.

كان الفيروس الحيّ نفسه علاجًا جديدًا نسبيًا، طوّره باحثون وأطبّاء في ام دي أندرسون على مدى السّنوات الخمس عشرة الماضية. ومع ذلك، فإنّ علم الأحياء الدّقيقة الّذي قام عليه علم العلاج يعود إلى مليارات السّنين. إذ إنّ الفيروسات موجودة تقريبًا طوال فترة وجود الكائنات الحيّة، وتطوّر الاثنان على مسارات متوازية، وأحيانًا متقاطعة. الفيروسات انتهازيّة. تتسلّل إلى الخلايا الحيّة ثمّ تتلاعب بها لتحقيق أهدافها الخاصّة. يغزو الفيروس الخلايا البشريّة الطّبيعيّة، ويقضي على البروتين الّذي يمنع تلك الخلايا السّليمة من الانقسام، وباستخدام كلّ آليّة الانقسام النّشطة للخليّة المضيفة، يبدأ في صنع نسخ من نفسه. كان الأطباء في ام دي أندرسون يتقنون طرقًا لاستخدام تلك الوسائل الفيروسيّة الخبيثة لغايات جيّدة. لقد قاموا بالفعل بتصميم فيروس قادر على تدمير الخلايا السّرطانيّة دون المسّ بالأنسجة السّليمة. تفتقر هذه القنبلة الفيروسيّة الذكيّة، المسمّاة دلتا–24، إلى القدرة على القضاء على بروتين حارس الخليّة، لذا فهي لا تضرّ بالخلايا المضيفة السّليمة. لكنّ الخليّة السّرطانيّة لا تحتوي على الجين الّذي يمنع الخليّة من الانقسام، لذلك بمجرد أن تتسلّل دلتا–24 إلى الورم، فإنّها تستخدم آليّة الخلايا الخبيثة المنقسمة بالفعل لتقسيم واستنساخ نفسها.

تتكاثر دلتا–24 دون توقّف، حتّى تنفجر الخليّة السّرطانيّة، الّتي تغمرها المادة الفيروسيّة المتوسّعة. يطلق الانفجار الجسيمات الفيروسيّة في الخلايا السّرطانيّة القريبة الأخرى وتبدأ العمليّة من جديد. لذلك كان على الدّكتور

لانـغ فقـط حقـن بقعـة صغيـرة واحدة، وكان من المأمول أن تنتشـر دلتا–24 عبـر ورم بـو بأكملـه وتدمّره في سلسـلة من الانفجـارات الخلويّة. قبل عقد مـن الزّمـن فقـط، كان هـذا العلاج بالفيروس تحديدًا، مجـرّد نظريّة لم يجرِ اختبارها، ولم يستطع الأطباء في أندرسـون استبعاد العواقب الوخيمة في ذلـك الوقـت. فـي المـرة الأولـى الّتـي جـرى فيهـا حقن مريض فـي ام دي اندرسون بفيروس حيّ، لم يتمكّن الطّبيب المشرف على الإجراء من النّوم فـي تلـك اللّيلـة من شـدّة القلق. لكنّ فريق أندرسـون بـدأ في تحقيق بعض النّجاح بحلول الوقت الّذي جرى فيه ترشيح بو لحقنة دلتا–24.

أنهى الدّكتور لانغ للتّوّ أوّل دراسة رئيسة، وقد شجّعته النّتائج وألهمته، من بين المرضى الخمسـة والعشـرين في الدّراسـة، استؤصلت أورام ثلاثة، وهـي أورامٌ كبيـرة ومتكـرّرة، كمـا حالة بـو الآن. لقد أدّى العلاج إلى إطالة حياة هؤلاء الثّلاثة لأكثر من ثلاث سنوات، وقد اكتشف الدّكتور لانغ نمطًا واعدًا في تلك النّجاحات. تسبّب الفيروس الحيّ في ردّ فعل مثير للاهتمام في الجهاز المناعيّ لكلّ من المرضى الثّلاثة الّذين تخلّصوا من الورم. عادةً تمتلك الخلايا السّرطانيّة وسـيلة للتّهرّب من قوّة الكشـف لجهاز المناعة، ولكنّ الفيروس لا يمكنه ذلك. لذا فإنّ جهاز المناعة يتعرّف على الفيروس علـى أنّـه جسـم غريب ويهاجمه. أمّا دلتـا–24، فبمجرّد دخولها إلى الخلايا السّرطانيّة يظهر وكأنّها تقلب قابسًا أساسيًّا، فيبدأ جهاز المناعة على ما يبدو في التّعرّف على بروتينات الورم على أنّها أجسام غريبة أيضًا، ويبدأ حملته الخاصّة لتدمير الورم الأروميّ الدّبقيّ.

كان لانـغ ويونـغ يفكّـران بالفعل في طرق لتقوية جهاز المناعة بشـكلٍ منفصـل أثنـاء عمـل الفيـروس الحيّ أيضًا– وأفضـل ما هو متاح هو بيمبرو، وهو الجسم المضادّ لـ (بي دي–1). صُمّم بيمبرو لمساعدة الجهاز المناعيّ في القيام بما لا يمكنه فعله بمفرده: حيث يكشف الدّواء الورم كجسم غريب

خطير وغير مرحّب به، وتعمل الخلايا التّائيّة في الجسم على تدميره. تضغط الخلايا السّرطانيّة على الخلايا التّائيّة القاتلة. يدخل الجسم المضادّ لـ (بي دي-1) ويطلق تلك المكابح. نجح بيمبرو بالفعل في علاج سرطان الجلد وسرطان الرّئة، واعتقد الطّبيبان أنّ استخدامه على بو قد يكون بمثابة اختراق حقيقيّ في الأورام الأروميّة الدّبقيّة. كان كلّ من الدّكتور لانغ والدّكتور يونج واضحين بشأن المخاطر عندما عرضا الخطّة على بو وهانتر. يمكن للفيروس الحيّ وحده أن يتسبّب في تورّم شديد في الدّماغ، ممّا قد يؤدّي إلى تلف طويل الأمد أو الوفاة. حتّى لو نجح الأمر كما هو مأمول، فمن المحتمل أن يزداد بو سوءًا قبل أن يتحسّن. إنّ إضافة بيمبرو تزيد من فرص حدوث مضاعفات. أخبرهم لانغ أنّ هناك الكثير من الأشياء المجهولة، لأنّ بو هو المريض رقم صفر. استوعب بو كلّ شيء ونظر إلى هانتر، الّذي وقف إلى جانبه في كلّ استشارة. بدا هانتر حازمًا، ونظر بو إلى لانغ وقال: «دعني أحصل عليه».

اكتشفت في وقتٍ لاحق فقط أنّ الأطباء المتخصّصين في أندرسون قد تحدّثوا فيما بينهم عن بو - كيف أنّه لم يُظهر الخوف أبدًا، وبقيت معنويّاته مرتفعة. أراد أن يطلعه الأطبّاء على كلّ ما في بوسعهم. ظلّ يطمئنهم أنّ بامكانه التّعامل مع الأمر. قال طبيب التّخدير الّذي رأى بو في كلّ زيارة من زياراته لهيوستن لمدّة عشرين شهرًا عن ابني: «نظنّ أنفسنا شجعانًا إذا مضينا قدمًا عندما تكون فرصة الفوز لدينا 50-50. ولكنّ الشّجاعة الحقيقيّة هي عندما تكون فرص الفوز ضئيلة للغاية، لكنّك تستمر في المقاومة».

الاتّصال الأوّل الّذي أجريته بعد الحديث عن العبادي مع مستشاري للأمن القوميّ، كولين كال وبقيّة فريقي، كان للقائد العسكريّ الأمريكيّ

المسؤول عن الشّرق الأوسط، الجنرال لويد أوستن. كان أوستن القلب النّابض لـ «عمليّة العزم الصّلب»، حملة إدارتنا الّتي استمرّت ستّة أشهر لتدمير داعش. من خلال العمل جنبًا إلى جنب مع دبلوماسيّينا في وزارة الخارجيّة، قام الجنرال بالفعل ببناء تحالف دوليّ واسع لمواجهة داعش، وقد أظهر استعدادًا لأن يكون شرسًا في ساحة المعركة. قال أوستن بعد وقتٍ قصير من بدء حملات القصف الأولى، هدفي هو هزيمة داعش وتدميرها في نهاية المطاف. وإذا استمرّت [داعش] في تقديم أهداف رئيسة لنا، فمن البديهيّ أنّنا سنستهدفها».

أوضح لي الجنرال أوستن أنّه يريد إيجاد طريقة لمساعدة العبادي، لكنّه يعتقد أنّه من غير الحكمة توفير الدّعم الجويّ والمستشارين للعمليّة في تكريت بشكلها الحاليّ. كانت الاحتمالات كبيرة للغاية أن تصيب الضّربات الجويّة للولايات المتّحدة أو للتّحالف رجال الميليشيات الشّيعيّة أو الحرس الإيرانيّ عن طريق الخطأ وتشعل صراعًا غير ضروريّ مع طهران، وهو بالتّأكيد لا يريد أن يكون في مجال تقديم الدّعم لعمليّة تديرها إيران. إذا أراد العبادي مساعدة حقيقيّة من الجيش الأمريكي، فسيتعيّن عليه تولّي مسؤوليّة العمليّة، وإخلاء الميدان من وحدات الميليشيات الشّيعيّة، واستبدالها بجنود تحت قيادته.

بحلول الوقت الّذي جلست فيه مع الرّئيس أوباما للدّفاع عن قضية مساعدة العبادي، كنت قد بدأت أرى المأزق في تكريت على أنّه فرصة. إذا وضع الرّئيس شروطًا قاسية وسريعة لدعمنا له، والتزم بها العبادي، وتلقّى العراقيّون المساعدة الّتي يحتاجونها منّا وطردوا داعش من تكريت، فإنّ قيمة الحكومة الائتلافيّة في العراق ستكون واضحة للجميع. كان العبادي يجتاز أوّل اختبار حقيقيّ له، وجاءت الشّروط الّتي اقترحتها على الرّئيس كالآتي: قبل أن تبدأ أيّ ضربات جويّة أمريكيّة، يجب نقل قيادة الهجوم

والتّحكّم به إلى وزارة الدّفاع العراقيّة وإلى العبادي نفسه، بالتّنسيق مع التّحالف الّذي تقوده الولايات المتّحدة ضدّ داعش. كما أنّنا بحاجة لأن يكون لدينا رؤية كاملة لجميع القوّات في ساحة المعركة وثقة تامّة بأنّنا نعرف بالضّبط مكان وجود كلّ فريق، من الميليشيات الشّيعيّة إلى سليماني وقوّاته الإيرانيّة الخاصّة، إلى الجيش العراقيّ والشّرطة الفيدراليّة. أمّا الهجوم الأخير لتحرير المدينة فيجب أن يكون بقيادة قوّات نثق بها، بما في ذلك النّخبة العراقيّة من قوّات مكافحة الإرهاب، والجيش العراقيّ، والسّنّة المحلّيّين. ويتعيّن على الميليشيات المدعومة من إيران الانسحاب إلى أطراف المدينة والبقاء هناك طوال مدّة المعركة. والأهمّ من ذلك، لابدّ من وجود مجموعة قويّة وواضحة للعيان من مقاتلي العشائر السّنيّة في المعركة النّهائيّة. كما ينبغي السّماح للمدنيّين السنّة الّذين فرّوا من تكريت خلال حكم داعش أو خلال هذه المعركة الجديدة، بالعودة إلى منازلهم في المدينة، مع استعادة الخدمات الأساسيّة مثل المياه والكهرباء، بالإضافة إلى الوعد بالحماية من الانتقام الشّيعيّ.

كان الجزء السّنيّ من الخطّة بالغ الأهمّيّة لسببين. أولّاً: سيثبت أنّ قتال داعش في العراق لم يكن حربًا للشّيعة ضدّ السّنّة، بل حربًا بين العراقيين الوطنيّين الشّيعة والسّنة والأكراد ضدّ جماعة إرهابيّة جهاديّة خطيرة ومتطرّفة. وثانيًا: كان أفضل أمل لتحقيق السّلام والأمن في تكريت (وغيرها من المدن المحرّرة من داعش) بصورة مستدامة على المدى الطّويل. وما لم يكن السّلام والأمن مستدامين – عسكريًا وسياسيًا من قبل العراقيّين أنفسهم – فلن يكون هناك سبب للمخاطرة بأمريكيّ واحدٍ في القتال.

لقد فقدنا بالفعل 4489 أمريكيًّا في العراق وأنفقنا أكثر من تريليون دولار، مع القليل جدًّا من المكاسب لإظهارها مقابل كلّ هذه الخسائر. تعامل الرّئيس أوباما مع الوضع بحذر، وأنا كذلك، خشية من أن ينتهي الأمر

بعشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين على الأرض في العراق، لخوض حرب ساخنة أخرى. ولكن إذا نجحت العمليّة في تكريت كما هو مخطّط لها، فمن المحتمل أن تضع نموذجًا يجب اتّباعه في عمليّات مكافحة داعش المستقبليّة هناك. عندما تحولّت المعركة إلى الموصل، أدرك القادة الأكراد القريبون أنّهم بحاجة للعمل مع العبادي ووزير دفاعه في بغداد من أجل الحصول على الدّعم العسكريّ الأمريكيّ. سيقاتل الجنود العراقيّون (الشّيعة والسّنّة والأكراد) تحت قيادة وسيطرة بغداد في مسرحهم الخاصّ، بدعمٍ من القوّات الجوّيّة الأمريكيّة، تّخطيطًا وتّدريبًا، وسيتضاءل النّفوذ الإيرانيّ. لقد فهم الرّئيس المخاطر، لكنّه فهم أيضًا الجانب الإيجابيّ. قال لي: علينا إبلاغ بغداد بالشّروط. ستكون الكرة في ملعب العبادي.

لم يتردّد العبادي عندما قدّم سفيرنا قائمة الشّروط في منتصف آذار (مارس)؛ فقد وصلت في الوقت المناسب له تمامًا. كانت معركة تكريت طريقًا مسدودًا. كانت قوّات الحشد الشّعبيّ والعناصر المدعومة من إيران على الأرض قد أعلنت السّيطرة على حوالي نصف المدينة في الأسبوع الأوّل من الهجوم، لكنّها لم تتمكّن بعد ذلك من الفوز بأيّ أراضٍ جديدة. أمّا جنود داعش، فعلى الرّغم من أنّهم كانوا أقلّ عددًا بكثير، إلّا أنّهم كانوا يلحقون أضرارًا حقيقيّة. وقد نثروا على الأرض عبوات ناسفة لإبطاء الهجمات. كما جاب انتحاريو داعش الشّوارع بحثًا عن أهداف لقوّات الحشد الشّعبيّ الّذين ارتفع عدد الضحايا في صفوفهم إلى أكثر من مائة في اليوم. وفاضت المشرحة المجاورة بالموتى. قال أحد رجال الميليشيا، الّذي فقد والده للتوّ في المعركة: «إنّها معركة شرسة. أصعب ممّا كنّا نظنّ».

في إيران، بدأت القوى المحبطة بسبب عدم إحراز تقدّم، في شحن صواريخ بزنة ألفي باوند وصواريخ أصغر إلى ساحة المعركة، ممّا أثار

المخاوف من أنّهم كانوا يستعدّون لقصف مكثّف لبقيّة المدينة. قال أحد المحلّلين الدّفاعيّين لمراسل نيويورك تايمز: «بشكلٍ عام، هذه الأسلحة أكثر فاعليّة في إرهاب المدنيّين من توفير الدّعم النّاريّ للعمليّات البرّيّة». في غضون ذلك، كانت هناك تقارير غير مرحّب بها عن قيام الميليشيات الشّيعيّة بحرق ونهب المنازل والمؤسّسات السّنيّة في تكريت وحولها. وبدا أنّ القتال يتحوّل إلى اشتباكٍ طائفيّ آخر بين الشّيعة والسنّة، وهو اشتباك يمكن أن يقوّض حكومة العبادي.

لذلك، قرّر رئيس الوزراء تطبيق شروطنا، كما كنت آمل أن يفعل، كفرصةٍ للإمساك بزمام الأمور. قدّم العبادي طلبًا رسميًّا للضّربات الجويّة وغيرها من المساعدات إلى التّحالف الّذي تقوده الولايات المتّحدة، وأوضح للبرلمان العراقيّ الحاجة الماسّة إلى المساعدة الأمريكيّة، ثمّ بدأ في شطب المنجز من اللّائحة. وسلّم القيادة والسّيطرة إلى وزير دفاعه، وهو مسلم سنّيّ، وأرسل نخبة من قوّات مكافحة الإرهاب إلى تكريت لتكون رأس الحربة في الهجوم؛ وجلب المزيد من رجال القبائل السّنيّة إلى القتال؛ وأمر وحدات الميليشيات الشّيعيّة بالتّنحّي عن تكريت. وطمأن قادة الحكومات السّنّيّة في المملكة العربيّة السّعوديّة ومصر والأردن بأنّ الأمن في المدينة السّنيّة، بمجرّد تحريرها، سيجري التّعامل معه من قبل الشّرطة السّنّيّة المحلّيّة، وليس من قبل الميليشيات الشّيعيّة الخارجيّة الّتي ربما لا تزال تضمر حقدًا مفهومًا.

واجه العبادي صعوبة في تسويق هذه الخطّة الجديدة لحزب الأغلبيّة الشّيعيّة في البرلمان العراقيّ، لكنّه حصل على غطاءٍ سياسيّ حاسم من الزّعيم الرّوحيّ للمسلمين الشّيعة في العراق. في 20 آذار (مارس) 2015، أرسل آية الله علي السّيستانيّ ممثّلًا عنه إلى صلاة الجمعة في كربلاء، للتّعبير

عن ضرورة الوحدة الوطنيّة في معركة تكريت – ممّا يعني أنّ الشّيعة سيقاتلون جنبًا إلى جنب مع السّنّة لطرد داعش. في اللّحظة الّتي رأيت فيها تصريح ممثّل السّيستاني، علمت أنّ العبادي قد فكّ الشّيفرة؛ لقد زاد من إيماني بقدرته الاستراتيجيّة وكذلك حدْسه السّياسيّ.

بدأت الضّربات الجوّيّة الأمريكيّة الأولى في ضرب أهداف داعش في 25 آذار (مارس) 2015. وكما هو متوقّع، أعرب عددٌ قليلٌ من قادة الميليشيات الشّيعيّة الّتي ترعاها إيران عن استيائهم مع بدء القصف. قال أحد قادة «الحشد الشّعبيّ»: «يقول بعض الضّعفاء في الجيش إنّنا بحاجة إلى الأمريكيّين، لكنّنا نقول إنّنا لسنا بحاجة إلى الأمريكيّين». أعلن أفراد ميليشيات شيعيّة أخرى أنّهم كانوا يأخذون أسلحتهم ويعودون إلى ديارهم. وقال عددٌ قليلٌ منهم إنّهم كانوا مرابضين على أمل العثور على أمريكيّين للهجوم. ومع ذلك، كانت العلامة الأكثر دلالةً هي تراجع سليماني. أدرك قائد فيلق القدس الإيرانيّ أنّه فقد فرصته في ادّعاء النّصر في تكريت نيابةً عن إيران. لقد هُزم ولم يكن لديه خيار سوى العودة إلى طهران. لقد أعاد عرض القوّة الجوّيّة الأمريكيّة تشكيل ساحة المعركة داخل تكريت. وأعلن العبادي مساء ذلك اليوم عبر التّلفزيون العراقيّ الرّسميّ، أنّ «ساعة الخلاص» قد حانت. «سوف نحرّر كلّ شبر من العراق». وقال: «إنّ انتصار العراق يحقّقه العراقيّون، العراقيّون الأبطال، بدعمٍ من الدّول الصّديقة والتّحالف الدّوليّ».

شعرت بالرّضا في ذلك اليوم عندما بدأت المعركة الجديدة تتكشّف. كان تنظيم داعش لا يزال يسيطر على أكثر من نصف المدينة، لكنّ العبادي سيطر على العمليّة. وقد أعطينا قوّاته فرصةً للقتال، وما سيحدث بعد ذلك لم يكن شيئًا أكيدًا. وافقت على التّقييم الّذي قدّمه مسؤولٌ أمريكيّ لم يذكر

اسمه لمراسلٍ على الأرض في العراق: «كانت هذه مخاطرة محسوبة، لكنّها مخاطرة يجب اتّخاذها».

في اليوم التّالي لبدء الضّربات الجويّة في تكريت، صعدت مع عائلتي على متن طائرة لا تحمل أيّ علامات في رحلةٍ إلى مركز ام دي أندرسون للسّرطان في هيوستن. حيث سيكون بو هناك لمدّة أسبوعٍ على الأقلّ، للخضوع لعمليّة جراحيّة ثمّ حقنة بالفيروس الحيّ. بناءً على طلب بو، كنّا نعمل جميعًا بجدّ لضمان خصوصيّته، الأمر الّذي تطلّب أعمالًا رائعة تجاوزت نداء الواجب من قبل عددٍ من الأشخاص - وفي مقدّمهم، عناصر جهاز الأمن الخاصّ بنا. على الرّغم من أنّني كنت دائمًا معجبًا بهم وأحترمهم كثيرًا، إلّا أنّني طوّرت على مدار الثّمانية عشر شهرًا الماضية تقديرًا جديدًا للرّجال والنّساء في الجهاز الخاصّ بي. فقد أظهر الفريق لطفًا تجاه عائلتي يتخطّى المهنيّة، وكان من المستحيل سداده. سمعت بين الحين والآخر أحد العملاء يقول إنّ وجودهم لا يقتصر على حماية أجسادنا؛ كانوا مصمّمين على حماية كرامتنا. وقد أدركت ذلك بشكلٍ متزايد في الأشهر القليلة الماضية، خاصّة خلال جولات عائلتنا الأخيرة، عندما كان عناصر الأمن يتقدّمون خلسة أمام المصوّرين المدنيّين للتّأكّد من عدم حصولهم على أيّ صور تظهر التّدهور الجسديّ الواضح على بو. أو كيف يتوقّفون في الجزء العلويّ من ممرّ المشاة في تيتون حتّى يتسنى لنا، أنا وبو وهانتر، الحصول على لحظة من الخصوصيّة، نحن الثّلاثة فقط، عند قمّة الجبل.

كما إنّني أصبحت أعتمد على مساعدي الشّخصيّ الجديد، الكولونيل جون فلين. كان فلين طيارًا في سلاح الجوّ - سبق أن قاد طائرات سي-17 - وكان أحد مساعديّ العسكريّين عندما كان بو في بداية حالته. كان الكولونيل

قد أخذ على عاتقه في أب (أغسطس) 2013 إيجاد طريقة لنقل العائلة بأكملها من وإلى ام دي اندرسون دون لفت الانتباه. اتّصل بأصدقاء يمكنه الوثوق بهم في سلاح الجوّ، وحصل على نمط طيران ومطار بعيد آمن حيث يمكننا الهبوط، وفعل كلّ ذلك دون التّسبّب في أيّ ثرثرة داخل الجيش. والكولونيل فليـن، الّـذي أصبـح صديقًـا مقرّبًـا جدًّا بحلول ذلك الوقـت، قام بذلك مرّة أخرى في 26 آذار (مارس). حيث سافرنا إلى قاعدة إلينغتون الجويّة وركبنا في موكبٍ صامتٍ وغير رسميّ - بدون شرطة درّاجة، ولا صفّارات- مباشرة إلـى مدخـلٍ جانبـيّ عنـد مجمّع المستشـفى، بالكاد تمكـن رؤيته من الطّرق الرّئيسة.

منـذ اللّحظـة الّتـي دخلنا فيها المستشـفى جميعًـا، تذكّرت كيف أصبح الأشخاص في ام دي أندرسون أشبه بالعائلة الممتدّة. وليس الدّكتور يونغ والدّكتور صوايا فحسـب. كان لدى المستشـفى مندوبٌ خاصٌّ يتأكّد دائمًا من دخول بو إلى جميع اختباراته وإجراءاته وخروجه بأقلّ قدرٍ من المتاعب وبخصوصيّـة مطلقـة. قابلنـا عندمـا دخلنـا المرفق، وكان مـن الواضح أنّ بو وهالي وهانتر يعرفونه جيّدًا - «مرحبًا ، كريس!» - واعتمدوا على مساعدته. كان صديقًـا. لقـد اصطحبنـا إلـى مكتـب الدّكتـور يونـغ، حيـث الممرّضـة المتخصّصة، إيفا لو لي، الّتي كانت تعطيه الحقنة، عانقت بو وقبّلته بحرارة، وسـألت عن ناتالي وهانتر. وقالت، مشـيرةً إلى جواربه الخضراء، «بو، أرى أنّك ترتديها مرّة أخرى». كانت صديقة.

حـرص طبيـب التّخديـر الدّكتـور ديفيـد فيرسـون، وهـو الطّبيب الآخر المهمّ في عمليّة الاستئصال مع اليقظة الّتي خضع لها ـبو في العام 2013، علـى المكـوث أثنـاء فحـص بـو قبـل الجراحـة في منطقـة التّصويـر بالرّنين المغناطيسـي. اسـتغرقت عمليّـة التّصويـر وقتًـا طويلًا، أُدخل بـو أثناءها إلى عمق الجهاز الصّغير. وكان الدّكتور فيرسـون يعرف أنّ بو لم يكن مرتاحًا،

وأنه يعاني قليلًا من الرّهاب من الأماكن المغلقة، لذلك حرص دائمًا على الحضور للمساعدة. كان صديقًا أيضًا.

شعرت أنا وجيل بالارتياح عند رؤية كمّيّة الدّعم الّتي حصل عليها ابننا هنا في أندرسون. وذكّرنا ذلك مجدّدًا بالدّعم المذهل الّذي كان يحصل عليه بو من العائلة بأكملها. كانت هالي لا تزال صخرة، حتّى في مواجهة التّدهور الجسديّ الواضح لزوجها. آشلي كانت موجودة من أجل شقيقها الأكبر، وظلّ زوج آشلي، هوارد، وهو نفسه طبيب، على اتّصال دائم بالأطبّاء في أندرسون، يتحدّث معهم حول العلاج ويراقب بو عنهم في الفترات الطّويلة بين الزّيارات. وكان هوارد أيضًا يترجم الحديث الطبّيّ إلى لغة إنجليزيّة بسيطة من أجلي. ولكن كلّما رأيت وسمعت أكثر في أندرسون، اتّضح لي أنّ هانتر بايدن هو الدّعامة الأساسيّة في هيكل الدّعم لبو. كانت مهمّته، الّتي أفضى بها إلى الدّكتور يونغ، هي إنقاذ شقيقه. وكنت أعرف أنّ تصميم هانتر كان عملًا شجاعًا حقيقيًا. لطالما حاولت أن أنقل لأولادي الدّرس الّذي علّمتني إياه أمّي وأختي وإخوتي: ليس هناك في العالم من هو أقرب إليك من أخيك وأختك. يجب أن تكونوا قادرين على اعتماد بعضكم على بعض.

فهم هانت قانون بايدن منذ أن كان طفلًا. فكان بالإمكان الاعتماد عليه. إنّه الشّخص الموجود في مقدّمة الموكب في الممرّات، أمام عناصر الأمن، للتّأكّد من وصول بو إلى المكان الّذي يحتاجه في الوقت المحدّد. كان يسحب الدّكتور يونغ جانبًا بشكلٍ منفصل لطرح الأسئلة الّتي يرغب في حماية بو من سماعها. حضر هانت عمليّات السّكانر، حيث وقف عند زاوية آلة التّصوير بالرّنين المغناطيسيّ، حتّى يتمكّن من حكّ قدم بو والتّحدّث معه، لإبقائه هادئًا. كلّ ما يطلبه بو – ماء، فاكهة، شطيرة – يسارع هانتر لتأمينه، كي لا يضطرّ شقيقه إلى الانتظار. كان يجلس مع بو في غرفة

الفنـدق فـي أوقات الرّاحة، يشـاهدان الجولـف. توجّه مرةً إلى متجر الهدايا [في المستشـفى] لشـراء علبة متعدّدة الأيّام لحبوب الدّواء بهدف مسـاعدة بـو علـى تنظيـم جرعـات الأدوية الجديدة المتناميـة. احتجّ بو قائلًا: «هانت، أنـا لـديّ نظـام أساسًـا. أنـا أعـرف ما أفعله». لكنّ هانت لم يكن ليسـمح له بارتكاب أيّ خطأ. فقال بإصرار: «سوف أتأكّد من أنّك تقوم بذلك». وكان هانت يزحف إلى السّرير مع بو ليكون قريبًا فحسـب، حتّى يتمكّن بو من التّحدّث. وفي اللّحظات الّتي تسبق خضوع شقيقه لعمليّة جراحيّة، كان هانت موجودًا ليضع ذراعيه حوله.

بدا المشهد بأكمله في أندرسون مشجّعًا، باستثناء أمرٍ واحدٍ كبير: بينما ظهر بو مصمّمًا وصلبًا من النّاحية العقليّة، لم يبدُ لي جسديًّا بحالةٍ جيّدة. لقـد اجتـاز عمليّـة جراحيّـة في 27 آذار (مارس) بنجاح، دون أيّ آثارٍ سـيّئةٍ علـى إدراكـه أو مهاراتـه الحركيّـة. لقد اسـتأصل الدّكتور صوايا كلّ ما كان يأمـل، لكـنّ الـورم بـدا أنّه ينمو بسـرعةٍ الآن، وكان بو ضعيفًا. فقرّر الفريق الطّبّـيّ الانتظـار حتّـى يـوم الخميـس المقبل 2 نيسـان (أبريل) لإجراء حقنة الفيـروس الحـيّ. وذلـك بعد سـتّة أيام. حيث أراد الدّكتـور يونغ والدّكتور لانغ التّأكّد من أنّ بو قويٌّ بما يكفي للتّعامل معها. لذلك فإنّ كل ما يمكننا فعله هو الانتظار.

قضت الأسـرة معظم السّـاعات الثّماني والأربعين التّالية قرب سـرير بو للتّأكّد من أنّه مرتاح، أو في التّشاور مع الدّكتور يونغ، أو جلوسًا في أرجاء غرف الفندق، محاولين تذكير بعضنا بعضًا، بصريح العبارة أو بمبهمها، أنّه لا يزال هناك أمل. كانت مهمّتنا هي الحفاظ على هذه الشّعلة حيّة، والتّأكّد من أنّ بو يشعر بها. كانت هالي قلقة ومرهقة، لكنّها لم تُظهر ذلك أبدًا. أصرّت على قضاء اللّيلة مع بو في غرفته بالمستشفى بدلًا من الذّهاب إلى غرفتها في الفندق. أمضت ساعات في فرك قدميه، وأخبرته أنّه سيتجاوز هذا الأمر.

قام مكتب الاتّصالات في البيت الأبيض بتركيب خطّ هاتف آمن في غرفة بالقرب من غرفة بو كي أتمكّن من التّعامل مع أيّ حالات طارئة لا يمكن لغيري التّعامل معها. كانت أهمّ مكالمة في جدول أعمالي في اليوم التّالي لجراحة بو، 28 آذار (مارس)، مع رئيس الوزراء العبادي. تلقّيت إيجازًا مدّته خمس عشرة دقيقة من فريقي للأمن القوميّ والمسؤولين من وزارتيّ الخارجيّة والدّفاع صباح ذلك السّبت، وكنت على الهاتف مع العبادي بحلول السّاعة العاشرة صباحًا. بدا أفضل في ذلك الصّباح. فقد اكتسبت معركة تكريت زخمًا. كانت قوّات العبادي تتقدّم نحو وسط المدينة من أربعة اتّجاهات منفصلة. بينما نفّذت الطّائرات الأمريكيّة والطّائرات بدون طيّار ثماني عشرة غارة جويّة منفصلة في ذلك اليوم. وبحسب ما ورد، فقد دمّرت أحد عشر موقعًا من مواقع القتال الرّئيسة التّابعة لداعش. لكنّ المعركة الّتي ازدادت صعوبة – تحوّلت إلى حربٍ من منزل إلى منزل في أحياء سكنيّة كثيفة. فراح مقاتلو داعش يعيدون تنظيم صفوفهم باستمرار للدّفاع عن الجيوب الصّغيرة في المدينة؛ ولأجل ذلك أشعلوا النّار في المنازل أو تركوها مفخّخة. أراد العبادي المزيد من الطّائرات بدون طيّار في الجوّ لتوفير المعلومات الاستخباراتيّة لجنوده، فضلًا عن المزيد من الضّربات الجوّيّة. وأشار أيضًا إلى أنّ تنظيم الدّولة الإسلاميّة كان يستغلّ تركيز الحكومة العراقيّة على تكريت لتصعيد الوضع في محافظة الأنبار، بما في ذلك مدينة الرّمادي المتنازع عليها، والّتي كانت تبعد أقلّ من ساعتين بالسّيّارة عن وسط بغداد.

كانت مهمّتي على الهاتف في ذلك اليوم، كما رأيت، هي التّعبير عن إيماني بصديقي وتذكيره بما أنجزه بالفعل. كان هناك الكثير من الأخبار السّارّة الّتي يمكن البناء عليها: فقد أقنع العبادي الميليشيات الشّيعيّة ورعاتها الإيرانيّين بالتّراجع عن الخطوط الأماميّة. أظهر قادة العبادي على الأرض

قـدرة حقيقيّـة، وأقنعـوا علـى ما يبدو المقاتلين السّـنّة المحلّيّين بالمشـاركة في العمليّة. لقد أثنيت على قواتّه الأمنيّة العراقيّة لإظهارها شجاعة حقيقيّة وعزيمـة حقيقيّـة. لـم تنتـه المعركة بعد، لكنّ الرّسـالة الكبيرة الّتي أردت أن أنقلها إلى العبادي هي أنّ الرّئيس والجيش الأمريكيّ لا يزالان وراءه، وأنا كذلك.

انتهيت من المكالمة مع العبادي وأنا أفكّر بأنّ هذه العمليّة قد تنجح، لكنّني أدركـت أنّ النّتيجـة سـتكون إلـى حـدّ كبيـر خارج سـيطرتي في هذه المرحلة. هذه العمليّة قد تنجح! يبدو أنّ هذه العبارة تصف حياتي كلّها في ذلـك الوقـت. كان الحفـاظ علـى الإيمان بشـأن تكريت، مثـل الحفاظ على الإيمـان بشـأن بـو، هـو فعـل إرادة – نوع من القتـال من منزلٍ إلى منزل ضدّ الشـكّ. دخلـت الفـراش في تلك اللّيلـة، وتلوت صلواتي، ثمّ وجّهت رجاءً خاصًّـا إلـى نيليـا وأمّـي: «أرجوكـم. رجـاءً. انتبهوا إلى بـو. وأعطوني القوّة للتّعامل مع ما يحدث».

بعد يومين من الجراحة، كان وضع بو مستقرًّا. ولا تبدو عليه آثار سيّئة من الجراحة. كان يقوم ويمشي، ومعنوياته عالية. لقد كان بصحّة جيّدة إلى درجة أنّنا قرّرنا أنّه لا بأس من العودة إلى المنزل لبضعة أيّام والعودة للحقن بالفيروس الحيّ في 2 نيسان (أبريل). أصرّ هانت على البقاء مع شقيقه.

كان ترك بو في هيوستن صعبًا. زرت غرفته في طريقي خارج المدينة لأخبره أنّني سأعود يوم الخميس عند موعد حقنة الفيروس الحيّ، ولإعلامه أنّني فخور به. قلت له: «عزيزي، أنت تقوم بعملٍ رائع. والعِلم إلى جانبنا. إنّه يتقدّم بسرعة حقًّا. سنهزم هذا الشّيء اللّعين. أنا وأنت وهانت لدينا الكثير لنفعله. لدينا الكثير من العمر لنعيشه».

«كلّ شيءٍ على ما يرام، يا أبي. كلّ شيءٍ جيّد».

ثـمّ ارتديـت نظّارتـي الشّمسـيّة وقبّعـة البايسـبول وتسـلّلنا جميعًـا مـن

بـابٍ جانبـيّ للانتقـال بالسّـيارة إلـى إلينغتون. عندما أقلعت طائرة الرّئاسـة، شـعرت بدافـعٍ قـويّ لفتـح مذكّراتي والكتابـة: 29 آذار (مارس) – مغادرة ام دي أندرسـون مـع الأمـل. بـو رجـل مذهـل. كذلك هانتر. سـيبقى مع [بو] حتّى العمليّة التّالية. سأعود. ثمّ توقّفت. ماذا عليّ أن أقول؟ كنت خائفًا إذا أفصحت عمّا في داخلي، فسأستسـلم لليأس الكامن، ولا يمكنني السّـماح بحـدوث ذلـك. لا يمكننـي السّـماح لـبـو أو لأيّ شـخصٍ آخر برؤية ذلك، أبدًا. وضعت مذكّراتي جانبًا حتّى أوشكت الرّحلة على الانتهاء، ثمّ التقطتّها مرّة أخرى لإضافة سطرٍ واحد. هبطتّ للتوّ. السّاعة السّادسة وسبع دقائق. كم أشعر بالوحدة!

رنّ مكتب الرّئيس في الموعد المحدّد، في اليوم الأوّل من نيسان (أبريل) 2015، وأخـذت ملاحظاتـي وتوجّهـت إلـى الممّـر إلى المكتـب البيضاويّ لتناول غدائي الأسـبوعيّ مع باراك. كان لدينا شـيء يسـتحقّ الاحتفال. ظلّ حيدر العبادي هو الخبر السارّ طوال الصّباح. كان هناك بثّ تلفزيونيّ وصور لرئيس الوزراء وهو يسير في شوارع تكريت، محاطًا بعرض لجنود مكافحة الإرهاب العراقيّين والشّـرطة الفيدراليّة ومقاتلي العشـائر السّـنّيّة وعدد قليل من رجال الميليشيات الشّيعيّة. وأظهرت بعض الصّور العبادي وهو يحمل علمًا بثلاثة خطوط أفقيّة منفصلة – حمراء وبيضاء وسـوداء – مُزيّنة بأحرف خضراء مكتوب عليها باللّغة العربيّة، «الله أكبر». العلم الوطنيّ العراقي. يبدو أن أعلام الميليشيات قد أُخفيت. وقال العبادي لحشدٍ من الجنود والمدنيّين والمراسـلين «قوّاتنـا البطلـة دخلـت وسـط تكريت ورفعت العلـم العراقيّ». وزيـر دفاعـه فـي بغـداد، خالد العبيـدي، كان يعلن على الملأ للبلاد بأكملها عـن سـقوط تكريـت. قـام الجنود العراقيّون والشّـرطة الفيدراليّة والمقاتلون السّـنّة بالمعارك الصّعبة من منزلٍ إلى منزل لتطهير المدينة من آخر مقاتلي

داعش، بمساعدةٍ حقيقيّةٍ من الطّيّارين والمستشارين والأسلحة الأمريكيّة. انتهى تنظيم الدّولة الإسلاميّة في تكريت، وسقطت هالة من لا يقهر. وقال العبيدي: «يسعدنا بكلّ فخر إعلان البشارة بانتصارٍ عظيم». أكدّ العبيدي أنّه جرى إنقاذ مواطني تكريت، وأنّ وزارة الدّفاع في بغداد قد بدأت لتوّها، وأنّ التّالية ستكون الموصل شمالًا، ثمّ إلى المدن الّتي يسيطر عليها تنظيم الدّولة الإسلاميّة في الغرب. قال العبيدي: «ها نحن قادمون إليك يا نينوى! ها نحن قادمون إليك يا أنبار!»

تحدّثنا أنا والرّئيس لفترةٍ وجيزة عن تكريت أثناء غدائنا، وحول ما قد يحدث بعد ذلك في العراق، لكنّني أظن أنّه لاحظ أنّني مشتّت ومكتئب. كان يعلم أنّني عدت للتّوّ من ام دي اندرسون، وكان يعلم أنّني سأعود إلى هناك قريبًا. لقد واكب الرّئيس الخطوط العريضة لما كان يجري في هيوستن. سألني: «جو، كيف جرت الأمور؟ كيف حال بو؟»

انتهى بنا الأمر بالحديث عن بو طيلة الغداء تقريبًا. بالنّظر إليه عبر الطّاولة، يمكنني القول إنّ الرّئيس كان مهتمًا حقًا. لقد أحبّ بو واحترمه وكان يعتقد، مثلي، أنّ ابني أمامه مستقبلٌ كبير. لقد وجدت نفسي أشرح له ما قاساه بو خلال الأسبوع الماضي وما الّذي سيحدث، محاولًا إبقاء الشّرح إلى حدّ ما ضمن الإطار الطّبيّ المباشر. جزء من ذلك كان لحمايتي. لم أرغب في الانهيار أمام أحد، ولا سيّما رئيس الولايات المتّحدة. في المرّة الأولى الّتي بكيت فيها أمام أشخاص آخرين، كانت في السّاعات التي أعقبت تعرّض بو لأوّل مرّة لما يشبه السّكتة الدماغيّة قبل ثلاث سنوات من تشخيص السّرطان، أتذكّر أنّني شعرت بالخجل بعد ذلك. فعقدت النّيّة آنذاك ألّا أدع ذلك يحدث مرّة أخرى أبدًا إلّا مع العائلة. والتزمت بذلك. لكن بينما كنت أتحدّث إلى باراك عبر الطّاولة في ذلك اليوم، لا بدّ أني أسررت إليه بأمور لم يكن في نيّتي الإسرار بها. كنت أتألّم، وكان بإمكان الرّئيس

رؤية ذلك. عندما شرحت له أنّ الإجراءات الآتية تعدّ منطقة مجهولة، لكنّها أملنا الوحيد في إنقاذ بو، رفعت رأسي ووجدت الدّموع في عينيّ باراك. لم يكن رجلًا يعبّر عن عواطفه، في الأماكن العامّة أو الخاصّة، فشعرت بالسّوء. ووجدت نفسي أحاول مواساته. قال: «الحياة من الصّعب جدًّا فهمها».

أخبرته أنّني كنت محتارًا في أن أسافر إلى هيوستن في وقتٍ لاحقٍ من تلك اللّيلة، لأكون مع بو عند موعد الحقنة في الصّباح، أو أن أطير غدًا وأكون هناك عندما يستيقظ. لم يتردّد باراك. قال: إنّ عليّ أن أكون مع ابني قبل أن يدخل وليس بعدها. فمهما كان على جدول أعمالي، لا يمكن أن يكون أكثر أهمّيّة. قال: «جو، عليك أن تسافر إلى هناك اللّيلة». كنت أعلم أنّه كان محقًّا. وهذا ما خطّطت لفعله، لكنّه كان يعني لي شيئًا أن أسمعه من باراك. بعد بضع ساعات، كنت في الجوّ، متوجّهًا إلى هيوستن.

الفصل الثّامن

القاعدة الأمّ

كان يوم الأحد، 12 نيسان (أبريل)، من الأيّام التي يمكن أن تبدو فيه كلّ الأشياء الجيّدة ممكنة. استيقظت أنا وجيل في منزلنا في ويلمنجتون وقد بدأت الشّمس تزيل بالفعل آخر خيوط الضّباب عن البحيرة خلف منزلنا. وبدأت زهور اللّيلك المبكرة تتفتّح، وحتّى أوراق الأشجار الطّويلة بدأت تنبت حول البحيرة. شعرت وكأنّ الظّلام القاتم لشتاء شديد الصّعوبة بدأ أخيرًا ينجلي. رحنا أنا وجيل نتطلّع إلى قضاء معظم النّهار مع أحفادنا الأصغر، ناتالي وهانتر، اللّذين سيحضرهما بو وهالي في وقتٍ لاحق من ذلك الصّباح لتسجيل مقطع لفقرة «وقت القصّة» في مسلسل الأطفال التّلفزيونيّ ريدينغ رينبو (قراءة قوس قزح). حيث سنقرأ أنا وناتالي وهانتر وجيل جميعًا من كتاب جيل للأطفال، الّذي كتبته لعائلات العسكريّين الأمريكيّين المنتشرين في الخارج. في جوهرها، تروي القصّة كيف تغلّبت ناتالي وهانتر على صعوبة بقاء والدهما بعيدًا، في بقعة خطيرة، لأكثر من عام.

وصل الجميع، وبينما قضى الطّاقم فترة الصّباح في ضبط الأضواء في مكتبتنا، راجعنا الأجزاء الّتي يتعيّن على كلّ واحدٍ منّا قراءتها: «بابا جنديّ»، تجيب والدة ناتالي بصوتٍ هادئ: «على الجنود القيام بمهمّات صعبة في بعض الأحيان». والدها يأخذ ناتالي بين ذراعيه. يغنيّ بهدوء: «المنزل هو أينما أكون معك». ناتالي تبتسم. «تعجبني تلك الأغنية يا أبي». بدت الشّمس

مشرقة في الوقت الّذي جلست فيه مع ناتالي وهانتر وجيل في مكتبتنا لتسجيل المقطع، وكان الجوّ دافئًا بدرجة كافية لفتح الأبواب الّتي تؤدّي إلى الشّرفة الخلفيّة.

بقي بو منطويًا على نفسه في ذلك اليوم، بعيدًا عن أنظار طاقم التّلفزيون الزّائر، لكن يمكنني السّير عشرين قدمًا فقط، عبر بابين، للاطمئنان عليه. استقرّ في غرفة التّشمّس لدينا، وفتح النّوافذ، بحيث يمكنه أن يطلّ على البحيرة ويشعر بالنّسيم العليل والدّافئ يلفح وجهه. هذا هو مكانه المفضّل في منزلنا، فلطالما وجدته جالسًا بهدوء في أيّامٍ لطيفة كهذا اليوم، يشاهد لعبة الضّوء والظّلّ على الماء كلّما مرّت سحابة أو اثنتان فوق رؤوسنا. وفي الأسفل يمكنه أن يرى الرّصيف البحريّ حيث يمضي ساعاتٍ مع ابنه، وصنّارات الصّيد تتدلّى في الماء. وأن يراقب، بعيدًا في الأعلى، طائر البلشون، أو طائرين، يشكّلان ببطء أقواسًا طويلة، قبل أن يستديرا وهما ينحدران ليتزحلقا على سطح البحيرة الرّاكد. تقول جيل دائمًا: علينا أن نوصي بالمنزل لبو، فهو يحبّه كثيرًا. وتقول إنّ بإمكاننا إيجاد السّبل لتسوية الأمور مع هانت وآشلي، لكنّ بو يجب أن يحصل على المنزل.

ظلّ ابننا الأكبر صامدًا في وجه السّرطان. بل كان أكثر من صامد. لقد عاد من حقنة الفيروس الحيّ قبل عشرة أيام دون أيّ مضاعفات. وهو يتحرّك بشكلٍ جيّد. وشهيّته لا تزال جيّدة. وبقي متّقد الذّهن. لكنّ النّدبتين الجديدتين المحتقنتين على فروة رأسه جعلتنا جميعًا في حالةٍ من القلق؛ فالأسرة بأكملها تخشى الآثار القادمة للعلاج التّجريبيّ غير المختبَر. لقد حذرّنا الدّكتور يونغ والدّكتور لانغ من أنّ بو سيزداد سوءًا قبل أن يتحسّن. ربما أسوأ بكثير. قالا: إنّه من المرجّح أن يكون في أضعف حالة له في الأسبوع الثّالث أو الرّابع، عندما يكون الفيروس وجهاز المناعة لديه في حالة حرب مع الورم. يمكن أن يكون الالتهاب مؤلمًا ومنهكًا. ولم يكن

هناك توقّع إلى أيّ مدى سيكون ضعيفًا، أو ما إذا كان سينجو من المعركة. يمكن أن تستغرق مرحلة التّحسّن من أسوأ الحالات الجسديّة وقتًا طويلًا أيضًا، ولن نعرف على وجه اليقين حتّى ذلك الحين ما إذا كان العلاج ناجحًا والورم قد تلاشى. سوف تنبئنا الأسابيع السّتّة أو الثّمانية القادمة بكلّ شيء.

ظلّ بو قويّ العزيمة، ولكن يمكنني أن أجزم أنّه كان متعبًا. وهو بحاجة إلى استجماع قوّته لرحلة العودة إلى ام دي اندرسون في غضون يومين، حيث سيخضع لمجموعة أخرى من الفحوصات، وإذا بدا كلّ شيء جيدًا، فسيحصل على الحقنة الثّانية من بيمبرو، وهو الجسم المضادّ لـ (بي دي-1). ناقش هوارد على الهاتف مع الدّكتور يونغ المغزى من الحقنة الثّانية. حيث يمكن لجهاز المناعة لدى بو أن يخرج عن مساراته ويبدأ في التهام أنسجة المخّ السّليمة. تجادل الأطبّاء فيما بينهم. ولكنّ بو كان على استعداد لتحمّل المخاطرة. فهو يعلم تمامًا إلى أيّ مدى يمكن أن يسوء الأمر، لكنّه مستعدّ لمواجهته، وأعتقد أنّه، إلى حدّ كبير، سيظلّ مستعدًّا لمواجهة الأمر من أجلنا نحن جميعًا. وقد أرسل رسالة نصّيّة إلى صديق قبل يومين مقيّمًا كيف تسير الأمور: «الأمور على ما يرام!»

كنت آخر الأربعة الّذين قرأوا من كتاب جيل عند التّسجيل: «ناتالي وهانتر يلعبان لعبة الجنود بدمى أبيهما. ويبدأ هانتر في البكاء». أدركت فجأة أن اجتياز هذا الأمر لن يكون سهلًا. بدا غياب الأب قريبًا جدًا من المنزل، قريبًا جدًا من هذا المنزل.

«أريد أبي». تحمل ناتالي دميتها أمام وجهها. تتظاهر بأنّ الدّمية متحرّكة، تقول بصوت والدها: «لا تبكِ يا هانتر كن صبيًا كبيرًا وقويًا».

يقول هانتر: «هذا ليس أبي الّذي يتكلّم».

«نعم إنّه هو. هذا ما كان أبي سيقوله».

عندما انتهينا من التّسجيل، عدت إلى غرفة التّشمّس ووجدت بو جالسًا مع أختي فال. وهما يقلّبان القنوات الإخباريّة ويتصفّحان الجرائد. الخبر الكبير، في ذلك اليوم الأحد، يدور حول هيلاري كلينتون، الّتي أعلنت رسميًا ترشّحها للفوز بترشيح الحزب الدّيمقراطيّ للرّئاسة. كانت الثّرثرة الّتي أثيرت في القنوات الإخباريّة بين النّقّاد والمتنبّئين المحترفين هي أنّ إعلانها يكاد يحسم المعركة. بدت بمثابة صمّام أمان للتّرشيح. وأشاروا إلى تقدّمها بخمسين نقطة في استطلاعات الرّأي المبكرة على منافسها الأقوى، أنا. بينما حصل المرشّحون الأقلّ شهرة مثل السّناتور عن ولاية فيرمونت بيرني ساندرز على أقل من ثلاثة في المائة. عرض الرّئيس أوباما في اليوم السّابق ما بدا وكأنّه تأييد منسّق ولكن غير رسميّ. فقد صرّح الرّئيس للصّحفيّين أثناء رحلة إلى بنما: «لقد كانت مرشّحة رائعة في العام 2008. وداعمة كبيرة لي في الانتخابات العامّة. ووزيرة خارجيّة بارزة. وهي صديقتي. أعتقد أنّها ستكون رئيسة ممتازة». حصل ذلك في أعقاب اجتماعٍ عقدته مع خبير في استطلاعات الرّأي، موثوق به من قبل الرّئيس، في وقتٍ سابق من ذلك الأسبوع، وهو اجتماع عقدته بناءً على طلب الرّئيس. أفادت الرّسالة الّتي تلقّيتها من ذلك الاجتماع أنّ أرقام استطلاعات هيلاري، وأموالها، وتنظيم حملتها الانتخابيّة هائلة للغاية. وأنّه ليس لديّ سبيل حقيقيّ للتّرشيح، فلماذا أثير المشاكل وأعقّد الأمور للحزب؟

لا شيء من ذلك أهمّ بو. فهو يقرأ كلّ ما في وسعه عن حملة كلينتون الانتخابيّة – رسالتها، جدول سفرها، عملها الميدانيّ المبكر. أراد أن يكون مطلّعًا على كلّ شيء، ليكون مستعدًّا للمشاركة في اللّحظة الّتي أعلن فيها ترشيحي. ظلّ بو مقتنعًا، مثلي أنا، أنّني جاهز لتولّي الرّئاسة. لم يكن هناك أحد أفضل استعدادًا. بغضّ النّظر عمّا يقوله أو يفكّر به النّاس في الخارج، اعتقد هانتر وبو أنّ بامكاننا الفوز. بالنّسبة لي، فالسّباق للرّئاسة هو مسألة

جرأة بالدَرجة الأولى. وإذا كان ولداي ورائي، فكلّ شيء ممكن. امتلك بو طريقة في غرس الشّجاعة وتهدئتي. فهو دائمًا آخر شخص في القاعة معي قبل المناظرات التّمهيديّة الرّئاسيّة في العام 2007، ومناظرة نائب الرّئيس في العام 2008، ومناظرة نائب الرّئيس في العام 2012، عندما وقع على عاتقي إعادة الزّخم إلى الدّيمقراطيّين بعد أداء باراك المحبط في مناظرته الأولى ضدّ المرشّح ميت رومني. كان بو يمسك ذراعي دائمًا قبل أن أسير على خشبة المسرح ويسحبني مرّة أخرى نحوه كي أنظر في عينيه. «بابا. انظر إليّ. انظر إليّ يا أبي. تذكّر يا أبي. القاعدة الأمّ، أبي. القاعدة الأمّ». ما يعنيه هو: تذكّر من أنت. تذكّر ما يهمّ. ابق وفيًّا لمثلك العليا. كن شجاعًا. ثمّ يقبّلني ويدفعني إلى الأمام. لذا فإنّ حملة بايدن 2016 قد تكون انطلاقتها متأخّرة. ما المشكلة في ذلك؟ إذا نجح بو في اجتياز الأشهر القليلة المقبلة و نجا بحياته، فأنا متيقّن من أنّ بامكاننا القيام بذلك.

كنت في المكتب بعد ثلاثة أيّام، يوم الأربعاء، عندما جاءت المكالمة من هيوستن. فقد اصطحب شقيقي جيمي بو إلى ام دي أندرسون كي يتمكّن الدّكتور يونغ والدّكتور لانغ من تقييم النّتائج المبكرة لحقنة الفيروس الحيّ، وكي يتمكّن الدّكتور يونغ من إعطاء الحقنة الثّانية من بيمبرو. بدت الأخبار الّتي أبلغت بها جيّدة جدًا. في الواقع، كان من المحتمل أن تكون الأخبار مذهلة. فقد أظهرت نتائج السّكانر وجود التهاب، ولكن بدا أنّ نموّ الورم قد تباطأ بالفعل. فهناك دليلٌ واضحٌ على وجود نخرٍ عند حافّة الورم، ما يعني أنّ الفيروس ربّما يفجّر بالفعل الخلايا السرطانيّة. بدا بو في حالة جيّدة، ولم تظهر عليه آثار سيّئة من الفيروس، وكان هناك بالفعل دليلٌ على تدمير الورم. وهذا ما لم يروه في ما يقرب من ثلاثين محاولة للحقن بالفيروس الحيّ. سألت إن كان ذلك بسبب علاج البيمبرو السّابق. قال الدّكتور يونغ:

«هذا ما نأمله».

اتّصلت هاتفيًا بهوارد وبأخي جيمي. قال هوارد إنّ الدّكتور لانغ والدّكتور يونغ بدا متحمسين إزاء الإمكانيّات. كان جيمي أكثر تفاؤلًا. لم يسبق للأطبّاء أن فعلوا هذا من قبل، لكنّهم أعربوا عن تفاؤلهم. حسبما سمع جيمي قد يكون لدينا شيء مهمّ هنا. ربّما نكون قد دمّرنا الكتلة. قال لي أخي: «لانغ ويونغ شبه دائخين». أغلقت الهاتف، وشعرت أنّني أستطيع أن آخذ نفسًا حقيقيًّا طويلًا وعميقًا لأوّل مرّة منذ شهور. قلت لنفسي: لا تعلّق آمالًا كبيرة. لا تستبق الأقدار.

كان الدّكتور يونغ قلقًا بشأن الإفراط في المكافحة. فالورم بدأ ينمو بسرعة قبل أسبوعين فقط، ووافق يونغ وبو على محاربته بمثل هذه الشّراسة. ولكن الآن بعد أن أخذ الورم يتباطأ في نموّه، أو ربما يتقلّص، وبدا بو في حالة جيّدة جدًا، أصبح الدّكتور يونغ يميل نحو الحذر. أخبر بو أنّ بإمكانهم الانتظار أسبوعين آخرين، وإجراء مجموعة أخرى من الفحوصات، لمعرفة ما إذا كان بحاجة إلى حقنة أخرى من بيمبرو بعد ذلك. تفاجأ كل من يونغ ولانغ بعض الشّيء بردّ فعل بو إزاء التّريّث. بدا منطويًا على نفسه قليلًا عندما تلقّى الخبر. بحلول الوقت الّذي عاد فيه إلى منزله في ويلمنجتون في وقتٍ متأخّر من تلك اللّيلة. كان محبطًا، على الرّغم من أنّه لم يظهر ذلك مطلقًا. عندما أوصله جيمي إلى المنزل، رفع بو إبهامه إلى الأعلى. «كلّ شيء على ما يرام، عمّي جيم. مائة بالمئة. كلّ شيء جيّد».

لم ينهض بو من الفراش في اليوم التّالي، الخميس، واعتقد كلّ أفراد الأسرة أنّ الأمر مجرّد إرهاق من الرّحلة. لكنّه لم ينهض من الفراش يوم الجمعة أيضًا. لقد أنهكه التّعب ولم يكن يأكل. توقّف هوارد عند منزل بو يوم السّبت ووجده كسولًا ولا يستجيب. كان متيقّنًا من أنّ بو يعاني من الجفاف الشّديد. لم يرغب بو في الذّهاب إلى المستشفى، لذلك

أعطاه هوارد ثلاثة لترات من السّوائل لتعزيز المعادن في جسمه. عندما عاد هوارد في اليوم التّالي ووجده أسوأ، أرسل بو إلى مستشفى جامعة توماس جيفرسون في فيلادلفيا. فهذه على الأرجح بداية ظهور الأعراض الخطيرة الأولى للفيروس. تبيّن أنّ بو لا يزال يعاني من الجفاف الشّديد عندما أدخلوه، وظهرت مستويات الصوديوم لديه منخفضة بشكلٍ خطير. لم يستطع إبقاء عينيه مفتوحتين. وهو بالكاد يستجيب. أفضل ما يمكنه فعله ردًّا على سؤالٍ ما هو رفع إبهامه، أو «نعم» بصوتٍ يكاد لا يسمع. لقد وصلنا إلى تلك النّقطة الآن. وصلنا إلى الحالة الأسوأ، ولم نكن متأكّدين إلى متى سيستمرّ هذا الأسوأ. بدأت آثار الفيروس تنهك بو. كان التّورّم في دماغه يكبر والألم مبرحًا، لذا أبقاه الأطبّاء في حالة تخدير شديد معظم الوقت. ظهرت الكثير من الإشاعات في ويلمنجتون حول سبب تغيّب بو، الّذي أعلن نيّته الترشّح لمنصب الحاكم، عن كلّ حدثٍ سياسيّ مهمّ في الأشهر الأربعة الأولى من العام. ظلّ بو راغبًا في إبقاء مرضه بعيدًا عن أعين الجمهور. لقد أُدخل إلى جيفرسون تحت الاسم المستعار نفسه الذي استخدمه في أندرسون، «جورج لينكولن». واصل وكلاء جهاز الأمن بذل قصارى جهدهم لضمان خصوصيّة بو وصون كرامته. وصرت أزوره عندما يمكنني التّسلّل والخروج دون اكتشاف أمري، لكنّني حرصت على الالتزام بجدول أعمالي كي لا ألفت الانتباه إلى دخوله المستشفى.

لذلك لم أكن حاضرًا بالقدر الّذي أردته، وهو كلّ لحظة، لكنّ هوارد ودوك أوكونور وافقا على أن يظلّا عينيّ وأذنيّ في المستشفى. حيث يسارع هوارد إلى وحدة العناية المركّزة كلّما وجد لديه لحظة فراغ، ويجلس دوك في الغرفة أثناء ساعات الزّيارة عندما تكون هالي أو أفراد آخرون من العائلة هناك، ويستخدم بطاقة ام دي أندرسون للدّخول إلى غرفة بو في غير ساعات العمل للجلوس معه. ويتّصل هوارد ودوك بي لتقديم التّقارير قدر المستطاع.

بقي بو تحت التّخدير الشّديد على مدار السّاعة ونادرًا ما يكون واعيًا. في بعض الأحيان، تعطيه الممرضات شيئًا لإيقاظه، فيرفع إبهامه – أسلوبه غير اللّفظي ليقول كلّ شيء على ما يرام! – عندما يُسأل عن شعوره.

كلّما تساءلت أمام دوك إن كان عليّ التّخلّص من مواعيدي والانتقال إلى جيفرسون، حذّرني من أنّ أمامنا مشوارًا طويلًا. كان رئيس وزراء اليابان قادمًا إلى المدينة، وعليّ أن ألقي خطابًا مهمًّا في اجتماع الجمعيّة الوطنيّة للنّهوض بالملوّنين في ديترويت، كما أنّ ناتالي ستجلب صفّها بالكامل في رحلة ميدانيّة إلى البيت الأبيض ثمّ تعود بهم إلى المرصد البحريّ لتناول البيتزا. نبّهني دوك إلى أنّنا لسنا متأكّدين من الوقت الّذي سيستغرقه بو للخروج من هذه الحالة، لذا فإنّ عليّ التّحلّي بالصّبر والاستمرار في تحقيق أهدافي. ظلّ يقول: «لا شيء يحدث الآن، لكنّني سأخبرك بمجرّد حدوثه، ويمكننا إيصالك إلى هناك بأسرع وقتٍ عند الضّرورة».

بقي فرد من أفراد العائلة بجانب سرير بو باستمرار، كما زاره بعض الأصدقاء المقرّبون لتقديم الدّعم. أحد هؤلاء الزّوّار هو مايكل هوكمان، صديق بو من الجامعة، الذي حمل له هديّة. مباشرة بعد تشخيص بو في آب (أغسطس) 2013، قرّر الاثنان خوض سباق الماراثون، وهو شيء لم يفعله أيّ منهما على الإطلاق. فتدرّبا على الممرّات الجبليّة في حديقة براندیواین الحكوميّة معًا، طوال فصليّ الخريف والشّتاء. ظلّ بو قادرًا على المنافسة كما كان دائمًا، حتّى وهو مريض، بل كان يحفّز مايكل. ولكن بمرور الوقت، أصبح بو قادرًا فقط على الرّكض البطيء، ثمّ المشي. شجّع صديقه على الاستمرار بدونه، وقد فعل ذلك. ظهر مايكل بالقرب من سرير بو في الأسبوع الأخير من نيسان (أبريل)، بعد أن أنهى لتوّه ماراثون كنتاكي ديربي فيستيفال. فعليًّا لم يستطع بو الكلام وبالكاد استيقظ أثناء الزّيارة. لكنّ مايكل أخبره عن السّباق. قال: «لقد نجحنا يا بو»، ووضع ميدالية الفائزين

على صدره. ضغط بو على ذراعه. قال مايكل لفال الّذي تواجد مع بو في ذلك اليوم: «الميداليّة له أكثر ممّا هي لي. لقد كان الرّيح الّتي تدفعني من الخلف».

لا أتذكّر أنّني أخبرت باراك عن دخول بو إلى المستشفى، لكن لا بدّ أنّه شعر بأنّ شيئًا ما على وشك الحدوث. فقد أعلمني أنّه يفكّر بي، ولكن بطريقة أقلّ إحراجًا بالنّسبة له. حيث بدا أنّه يبذل قصارى جهده ليقول أشياء لطيفة عنّي في الأماكن العامّة، خاصّة في غيابي. عندما استضاف الفائزين في بطولة ناسكار سبرينت لكأس العام 2014 في البيت الأبيض بعد يومين من دخول بو المستشفى، تحدّث عن العمل الجماعيّ المطلوب للفوز بالبطولات، وكيف ذكّره نجاحهم بعلاقته بي. سماها «الكيمياء الفوريّة».«عندما يكون لديك شريك تثق به يلقي على مسامعك نصائح ذات مستوى عالميّ عند كلّ منعطف، فلا يمكنك أن تخسر». كما أدلى الرّئيس ببيان رقيق عنّي بشكلٍ غير عاديّ في عشاء مراسلي البيت الأبيض في وقتٍ لاحق من ذلك الأسبوع، على الرّغم من أنّه غلّفه بمزحة حول الجدل الّذي كان قائمًا في ذلك الحين بخصوص الشّركات الّتي ترفض تلبية حفلات زفاف المثليّين. قال باراك: «أنا أستفزّ جو أحيانًا، لكنه بقي إلى جانبي طوال سبع سنوات. أحبّ ذلك الرّجل. إنّه ليس نائب رئيس عظيم فحسب، إنّه صديق رائع. لقد أصبحنا مقرّبين جدًا، لدرجة أنّ بعض الأماكن في إنديانا لن تقدّم لنا البيتزا بعد اليوم».

جعلني مرض بو أكثر وعيًا بالتّطوّرات المذهلة والإمكانيّات الجديدة في علاج السّرطان، ولكنّني أصبحت أيضًا مدركًا بشكلٍ مؤلم للصّعوبات والعقبات غير الضّروريّة في نظام الرّعاية الصّحّيّة لدينا. فلدينا فريق استثنائيّ من الأطبّاء في أندرسون وجيفرسون، وهم مكرّسون تمامًا لإنقاذ بو، ومع

ذلك، شعرنا بالإحباط - منذ البداية. على سبيل المثال، لم يوافق الأطبّاء الّذين أجروا العلاج الإشعاعيّ لبو في جيفرسون، بسهولة على فكرة تلقّي أوامر من طبيبٍ في مستشفى آخر، على الرّغم من أنّنا أوضحنا أنّنا اخترنا آل يونغ، في ام دي أندرسون، ليشرف على علاج بو. ولم يوافقوا إلّا بعد أن أوضح هوارد لاختصاصيّي الأشعّة في جيفرسون أنّ عليهم الاستماع إلى الدّكتور يونغ، أو سينقل بو إلى مكان آخر للعلاج.

بقي هاورد سلاح بو السّريّ المذهل، يجب أن يكون لدى كلّ عائلة شخص مثله: مدافع مخلص عن المريض. لقد عمل كمترجم بين الأطبّاء، الّذين يميلون إلى التّحدّث بلغة مهنيّة غير مفهومة تقريبًا، وبين بو، وهالي، وهانتر، وبقيّة أفراد عائلتنا. كما فعل هوارد أيضًا ما بوسعه لتخطّي المشكلات الإداريّة المعقّدة الّتي لا بدّ أن تواجهها جميع العائلات. وكان من أكبر المشاكل مجرّد التّواصل بين المستشفيات وتبادل المعلومات. تضمّنت حزمة الانتعاش الاقتصاديّ الّتي دفعت بها إدارتنا في العام 2009 ما يقرب من عشرين مليار دولار لمساعدة المستشفيات وعيادات الأطبّاء في جميع أنحاء البلاد في تنفيذ وتحديث نظام السّجلّات الطّبّيّة الإلكترونيّة. ولكنّ المشكلة تتمثّل في افتقار تحديثات النّظام إلى برامج موحّدة. فهناك عدد قليل من بائعي البرامج الأكفاء والبارعين الّذين يخدمون كبار مقدّمي الرّعاية الصّحّيّة، ولكلٍّ منهم تكنولوجيا خاصّة. ممّا يعني أنّ الأنظمة المختلفة غير قادرة على التّحدّث بعضها مع بعض. (ما يعني أنّ منشئي المحتوى ليس لديهم رغبة في جعل بعضهم يتحدّث مع البعض الآخر). إنّ عدم قدرة الأطباء والتّقنيّين في ام دي أندرسون على التّواصل مع الأطبّاء والتّقنيّين في جيفرسون شكّلت إحدى أكبر إحباطاتنا خلال فترة وجود بو في مستشفى فيلادلفيا. احتاج الدّكتور يونغ والدّكتور لانغ إلى رؤية نتائج السّكانر مباشرة، لكنّ المستشفيين يعملان وفق نظامين مختلفين، لذلك لم تتمكّن

أندرسون من تلقّي الملفّات الإلكترونيّة لصورة دماغ بو الّتي أجراها الأطبّاء في جيفرسون. لم يرغب أحد في تضييع الوقت الثّمين في انتظار وصول قرص مضغوط فعليّ بالبريد، لذلك اضطرّ هوارد وهانتر إلى التّواصل مع الدّكتور يونغ عبر فايس تايم، واستخدام الكاميرات الموجودة على أجهزة آي باد لبث الصّور من فيلادلفيا إلى هيوستن. لقد قرّرت في ذلك الحين أنّ هذا الوضع يحتاج إلى إصلاح.

ظلّ وضع بو مستقرًا لمدّة عشرة أو اثني عشر يومًا، وكانت هناك بعض الأدلّة في نتائج السّكانر تشير إلى أنّ الورم يتقلّص. بقيت شهيّته سيّئة، لذلك أدخل الأطباء إلى معدته أنبوب تغذية. ولكن في الأيّام القليلة الأولى من شهر أيار (مايو)، بدأ يُظهر بعض التّحسّن. أصبح أكثر استجابة، حتى أنّ الممرّضات أخرجنه من السّرير وساعدنه على القيام بخطواته الأولى في غضون أسبوعين تقريبًا. في وقتٍ متأخّر من بعد ظهر أحد الأيّام، كنت معه وهو مستيقظ، وأخذنا نتحدّث إلى إحدى الممرّضات. فسألتها: «أين تسكنين؟». أشارت إلى النّافذة عبر نهر ديلاوير. بدت السّماء جميلة بالضّوء الّذي يلي أمطار الرّبيع الدّافئة. قالت مشيرةً بإصبعها: «أنا أسكن هناك». «أوه، انظر إلى قوس قزح! انظر إلى قوس قزح. أين هبط. بيتي هناك». ثمّ التفتت إلى بو. وقالت: «إنّه فألٌ حسن يا بو. هذا فألٌ حسن». نظرت إلى قوس قزح على أنّه إشارة. قرّرنا أنّ بو، إذا كان في حالة تحسّن، فعليه الذّهاب إلى والتر ريد، المنشأة العسكريّة خارج واشنطن مباشرةً، حيث سيتمكّن من استئناف علاجه الفيزيائيّ والنّطقيّ والوظيفيّ بمجرد أن يتعافى من هذا المرض المؤقّت النّاجم عن الفيروس.

عندما وصل «جورج لينكولن» إلى والتر ريد في 5 أيار (مايو) 2015، بدا الفريق جاهزًا بالفعل لإعادة تأهيله. تلقّى زيارات في اليوم الأوّل من مستشار

التّغذيّة ومعالج النّطق وأخصائيّ الغدد الصّمّاء الّذي سيراقب مستوى الملح لديه خلال الأيّام القليلة المقبلة. وقد ساعدوه على تفادي رصاصة قاتلة محتملة. لاحظ أحد المناوبين المتنبّهين جدًّا الذين مرّوا لرؤيته، أنّ بو يعاني من انزعاجٍ حقيقيّ؛ اتّضح أنّه التهاب في الأمعاء، وهو التهاب في بطنه حيث انفصل خطأً أنبوب التغذية. نقُل إلى الجراحة الطارئة لاستبدال أنبوب التّغذية وتنظيف التّلوّث. وتراكمت التّعقيدات خلال الأسبوعين التّاليين وجلبت له المزيد من المعاناة والمزيد من الألم. لقد كان شجاعًا وصبورًا، واستمرّ في المقاومة، ولكن في كلّ مرّة يبدو فيها بو أنّه يكسب المعركة، يظهر شيء يعيده إلى الوراء. كان أنبوب الأكسجين الذي يمرّ من فمه مؤلمًا له، لذلك أجرى الجراح فغرًا للقصبة الهوائيّة وأدخل أنبوبًا للتّنفّس في أسفل رقبته. أصبح بالكاد يستجيب لفتراتٍ طويلة، وبات جانبه الأيمن شبه مشلول بالكامل. كما تراكمت السّوائل في البطين الأيسر من دماغه، وفي كل مرّة يقوم الأطبّاء بتجفيفه، يعود السّائل لتوّه، ممّا يعني أنّه يعاني من الألم أو الضّياع عندما يصبح واعيًا. في إحدى اللّيالي، عند السّاعة الثّانية صباحًا، أصبح تنفّسه صعبًا فجأة، وتبيّن أنّ ذلك علامة على وجود التهابٍ رئويّ، ممّا تطلّب جرعة من المضادّات الحيويّة القويّة. عندما عرّج كاهن كاثوليكي على غرفة بو للاطمئنان عليه، شكرته جيل على زيارته راجيةً منه المغادرة وعدم العودة. خشيت جيل أن يرد على فكر بو أنّه أتى لأداء الطّقوس الأخيرة. في الواقع، ليس هناك أيّ نقاش حول الطّقوس الأخيرة.

ظللنا أنا وجيل نذكّر بعضنا البعض بأنّ الأطبّاء حذّرونا من أنّ حالة بو سوف تزداد سوءًا قبل أن تتحسّن. ظللنا نقول لأنفسنا: إنّ هذه الأوقات الصّعبة متوقّعة، وأنّه سوف يبدأ بالتّحسّن قريبًا. يمكن أن يحصل ذلك في أيّ يومٍ الآن. لا يزال هناك أمل.

ما شعرت به، في المقام الأوّل، هو أنّني عاجز. لقد فعلت ما بوسعي،

وهـو أن أكـون حاضـرًا كلّمـا اسـتطعت. كنـت أزوره في الصّبـاح الباكر في معظـم الأيّـام، قبـل أن أبـدأ مواعيدي الرّسـميّة، ومرّة أخـرى كلّ ليلة عندما أنتهـي. تسـتغرق المسـافة إلـى المستشـفى أقـلّ من نصف سـاعة من البيت الأبيـض، وحتّـى أقـرب من مقـرّ إقامتنا في المرصد البحريّ. بمجرّد أن يطأ الموكب أرض المستشفى ويتّجه يسارًا إلى الزّقاق الخلفيّ، أجدني أنظر إلى غرفـة بـو فـي الطّابـق الثّانـي لأرى ما إذا كان المصباح مُضاءً. أقول لنفسـي لعلّه مستيقظ اللّيلة. لعلّه ينظر إليّ من النّافذة. كان عناصر الأمن يسمحون لي بالخروج من السّـيارة عند بابٍ جانبيّ، حيث ألتقي بممرّضة عسـكريّة، لتقودنـي إلـى الدّاخـل. لا يعنـي ذلـك أنّني ما زلت بحاجـة إلى التّوجيه بعد مرور فترة. فقد أصبح إيجاد الطّريق عبر المتاهة للوصول إلى بو جزءًا من الطّقوس الّتي اعتدت عليها لتهدئة نفسي. حتّى الآن، أتذكّر كلّ خطوة وكلّ منعطف: المشي المستقيم للخلف عبر ممرّ رخاميّ هادئ، والانعطاف يمينًا والعبـور عبـر تقاطـع ممرّين، ثمّ يسـارًا إلى المصعـد، والرّكوب إلى الطّابق الثّاني. أخرج من المصعد وأنعطف بشدّة إلى اليسار، ثمّ أتوقّف عند مركز الممرّضات لتحيّة الفريق المناوب، وأشـكره على كلّ ما يفعله. أحاول ألّا أركّز على المشـاهد على يسـار المركز، حيث الغرف مليئة بالمرضى الّذين لن ينجوا. أقول لنفسي لن يكون هذا ابني، وأنا أتّجه إلى اليمين نحو غرفة بو في الزّاوية. وقبل أن أصل إلى غرفته بقليل، أبدأ بالتّهيّؤ نفسـيًا. ابتسـم، أقول لنفسـي. ابتسـم. ابتسـم. كم مرّة قال لي بو: «لا تظهر حزنك يا أبـي. لا يمكنـك أن تـدع أيّ شـخص يـراك حزينًا لأنّ ذلك سـيجعله يشـعر بالسّوء. وأنا لا أريد أن يشعر أحد بالأسف تجاهي». أقول لنفسي، عليك أن تقوم بالانعطافة الأخيرة بابتسامة على وجهك. ثمّ أنعطف وأرى إمّا هالي أو هانتر أو جيل أو آشلي هناك، بجانب السّرير، ممسكين بيد بو. فأقول بكلّ الابتهاج الّذي يمكنني حشده: «مرحبًا حبيبي. أنا هنا».

جئت في إحدى اللّيالي متلهّفًا لأخبر بو عمّا حدث في البيت الأبيض في وقتٍ سابق من اليوم. قلت بينما جلست بجانب سريره: «عزيزي، احزر من كان في المكتب اليوم؟» كانت عيون بو مغلقة، لكن يمكنني القول إنّه سمعني. قلت: «إلتون جون كان هناك. هل تتذكّر عندما أوصلك أنت وهانت إلى المدرسة؟ تلك الأغنية التي نغنيها جميعًا معًا، نحن الثّلاثة، بأعلى صوت ممكن؟ كروكودايل روك». كان الأولاد في الرّابعة والخامسة عندما راجت جدًّا تلك الأغنية. كنا نحن الثّلاثة فقط، بعد وفاة نيليا، ولكن قبل أن أقابل جيل. بدأت أغنّي كلمات الأغنية لبو، بصوت منخفض بحيث يتمكّن كلانا فقط من سماعها. جاءتني الكلمات كما لو أنّنا بالأمس، لكن بعد الأسطر القليلة الأولى بدأت أشعر بالانفعال، ولم أكن متأكّدًا من قدرتي على الاستمرار. لم يفتح بو عينيه، لكنني رأيت من خلال دموعي أنّه يبتسم. لذلك استجمعت قواي واستمرّيت في الغناء، بقدر ما استطعت أن أتذكّر من كلمات الأغنية.

فكّر الأطبّاء في إجراء الفحص الأخير صباح يوم 15 أيار (مايو) ومحاولة إيجاد طريقة لتخفيف الضّغط المستمرّ على دماغ بو، بينما كنت محاصرًا في غرفة انتظار المرضى، التّي حوّلها فريق اتّصالات البيت الأبيض إلى مساحة خاصّة. حيث بإمكاني إجراء مكالمات آمنة. ظهرت أزمة جديدة في العراق في ذلك اليوم، وكانت تستدعي اهتمامي. على الرّغم من أنّني أعلم أنّها مسؤوليتي، إلّا أنّني شعرت لأوّل مرّة بالاستياء لأنّني اضطررت إلى تحويل تركيزي إلى شيء آخر غير بو، حتّى لمدّة نصف ساعة فقط. ابني في إحدى الغرف في حالة حرجة وأنا أجلس في غرفة أخرى، مجبرًا على التّعامل مع مشكلة تبعد 6200 ميلًا. فقد اقتحمت داعش، في اللّيلة السابقة، مدينة الرّمادي غرب بغداد تحت غطاء عاصفةٍ رمليّة تحجب الرّؤية.

أوّل جولة لداعش ضربت عاصمة محافظة الأنبار كانت عبارة عن قافلة من المدرّعات. بدا الكثير منها وكأنّه مشهد من فيلم ماد ماكس، أشبه بمشهد شيطانيّ عبر جدار من الرّمال، بقيادة محاريث فولاذيّة عملاقة ملحومة عند المقدّمة. حيث قاموا بدحرجة قنابل محمّلة بالمواد المتفجّرة، يقودها سائقون انتحاريّون. وأفادت التّقارير أنّ داعش ذبحت ما لا يقلّ عن اثنتي عشرة أسرة، وخمسين من رجال الشّرطة ومقاتلي العشائر في الهجوم المبكر. سيطر الجهاديّون بالفعل على المباني الحكوميّة الرّئيسة في الرّمادي. واتّهم رئيس مجلس المحافظة العبادي بالتّخلّي عن الرّمادي وعدم الوفاء بوعده بتمويل مقاتلي العشائر السّنّيّة المحلّيّين وتدريبهم وتجهيزهم.

عندما اتّصل بي العبادي عبر الهاتف في ذلك الصباح، كان تنظيم داعش لا يزال في حالة هجوم – ويكسب المعركة. لم تملك القوّات الموالية للحكومة في المدينة ما يكفي للبقاء في مواقعها الدّفاعيّة. قال العبادي إنّ جنوده ببساطة يفتقرون إلى القوّة النّاريّة لصدّ المدرّعات المفخّخة الهائلة. طلب صواريخ مضادّة للدّبابات حتّى يتمكّن رجاله من تدمير تلك الشّاحنات قبل أن تطالهم، وطلب المزيد من الضّربات الجويّة. أخبرته أنّ الصّواريخ المضادّة للدّبابات هي بالفعل في طور الإعداد، لكنّنا سنرسل المزيد ونعجّل بالتّسليم. طمأنته إلى أنّنا أنا والرّئيس ما زلنا وراءه، لكن يتوجّب عليه القيام بعملٍ أفضل فيما يخصّ إخراج الأموال من البنوك والأسلحة الأمريكيّة من المستودعات في بغداد إلى أيدي مقاتلي العشائر السّنّيّة اليائسين بالقرب من الرّمادي. ويتعيّن على قوّاته الأمنيّة، المنتشرة في جميع أنحاء البلاد، إثبات قدرتها على استعادة الأراضي ثمّ السّيطرة عليها. إنّ استعادة الرّمادي، الّتي هي في قلب العراق السّنّيّ، ستشكّل اختبارًا أكبر من تكريت. لكنّنا سنساعد.

ظهر العبادي على الهواء مباشرة بعد ساعاتٍ قليلة وأخبر الشّعب العراقيّ أنّ قوّاته العسكريّة ستقف أمام داعش وتدافع عن الرّمادي. وأنّه

يرسل تعزيزات. وقال: «السّاعات القادمة سوف تتكشّف بانتصارٍ في الأنبار». بعد أقل من ثماني وأربعين ساعة، كانت داعش قد بسطت سيطرتها على المدينة بأكملها. وحاصرت مركز القيادة العراقيّ وضربته بسيل من الانتحاريّين وقتلت المحاصرين بداخله. فرّ ما لا يقلّ عن خمسمائة جنديّ عراقيّ ورجال شرطة محليّين من الرّمادي باتّجاه بغداد الآمنة، على بعد ستّين ميلًا فقط، مخلّفين وراءهم إمدادات هائلة من المعدّات والأسلحة القيّمة لتأخذها داعش.

وأعرب أحد زعماء العشائر السّنّيّة في الرّمادي عن أسفه قائلًا: «إنّ جميع قوّات الأمن وزعماء العشائر إمّا تراجعت أو قُتلت في المعركة. إنّها خسارة كبيرة». ورأت صحيفة نيويورك تايمز في تغطيتها الإخباريّة أنّ سقوط الرّمادي «يعدّ أكبر انتصار حتّى الآن هذا العام لتنظيم الدّولة الإسلاميّة. كما كشفت الهزيمة عن الاستراتيجيّة الفاشلة للحكومة العراقيّة».

عقد الرّئيس اجتماعًا لمجلس الأمن القوميّ في 19 أيار (مايو)، وجرى خلاله التّركيز على الرّمادي. كان النّقاش بين القادة ساخنًا جدًا. واعتبر الرّأيّ الأكثر تشاؤمًا أنّ استراتيجيّتنا في خطرٍ شديد لأنّ القوّات العراقيّة تفتقر إلى العمود الفقريّ الحقيقيّ. يمكننا تزويد العراقيّين بالتّدريب العسكريّ والمعدّات والأسلحة، ويمكننا شنّ ضربات جويّة، لكنّنا لن نتمكّن من منح الجنود العراقيّين الشّجاعة للخروج، والاستيلاء على الأراضي من داعش، والسّيطرة عليها. شكّل هذا مصدر قلق مستمرّ للرّئيس منذ بداية الحملة ضدّ داعش في العراق. فالمشروع مليئ بالمخاطر منذ اللّحظة الأولى، ولم يتلقّ الرّئيس مطلقًا معلومات قويّة كافية ليكون ثابت الخطى في صناعة قراراته. أبدى حذره قبل عام من التّورّط أكثر ممّا ينبغي. لقد شعر وكأنّنا نحاول إيقاف التّسرّب في السّدّ بأصابعنا، دون قياس دقيق لحجم القوّة في الجانب الآخر. هل يمكننا احتواء داعش؟ هل يمكننا السّيطرة على

الحرب؟ هل يمكننا السّيطرة على التّداعيات؟ كان الرّئيس على استعداد لتشكيل تحالفٍ للمساعدة، ولكنّه يعتقد أنّه من غير المرجّح أن ينجح بدون قوّة قتاليّة عراقيّة رسميّة كشريكٍ حقيقيّ. وبينما استعادت البشمركة الكرديّة والميليشيات المدعومة من إيران بعض التّضاريس في المناطق الّتي أرادوها، لم يظهر سوى القليل جدًا من المؤشّرات، قبل أيار (مايو) 2015، على أنّ قوات الأمن العراقيّة مستعدّة وقادرة على استعادة الأراضي السّنّيّة الأساسيّة والسّيطرة عليها.

ولكن هناك فرق واحد كبير الآن؛ أصبح لدى الرّئيس بعض الأمل ليتمسّك به. فقد هزم العبادي داعش في تكريت قبل ستّة أسابيع فقط، وقد فعل ذلك بقوّات غير طائفيّة. عندما جاء رئيس الوزراء إلى واشنطن بعد أسبوعين من الانتصار في تكريت، بناء على إلحاحي، لجلسة طويلة مع الرّئيس، أظنّ أنّ باراك رأى في العبادي ما رأيته. إنّه شريكٌ يستحقّ الدّعم.

أدّت الخطّة التي قدّمها مستشارو الرّئيس أوباما الرّئيسون في 19 أيار (مايو)، بعد يومين من سقوط الرّمادي، إلى اتّخاذ قرار صعب. فقد أكّد زملاؤنا في وزارتي الخارجيّة والدّفاع أنّنا بحاجة إلى إشراك القوّات العشائريّة السّنّيّة في القتال. تطلّب ذلك إرسال بضع مئات من قوّات العمليّات الخاصّة والمستشارين إلى قاعدة «تقدّم» الجويّة، على بعد خمسة عشر ميلًا من الرّمادي، للمساعدة في حشد وتدريب وتسليح العشائر السّنّيّة القريبة، والعمل مع الجيش العراقيّ وقوّات النّخبة التّابعة للعبادي لتنسيق الهجوم المضادّ على الرّمادي. تمثّلت نصيحتي بإعطاء العبادي المساعدة اللّازمة لاستعادة الزّخم من داعش.

لقد استشعرت أنّ الرئيس أدرك المنطق الّذي استندت إليه الاستراتيجيّة، وكان يميل بالفعل إلى اتّباعها، لكنّه أبدى قلقًا بشأن قدرتنا على حماية بضع مئات من الأمريكيين على الأرض، الّذين يعملون انطلاقًا من قاعدة جويّة

معزولة على مقربة من الجماعات المدعومة من إيران على مشارف الأنبار الّتي تسيطر عليها داعش. قال الرئيس لي على انفراد: «جو، ماذا سيحصل لو دخلوا وألقوا القبض على عشرين من رجالنا وقطعوا رؤوسهم؟ ماذا سنفعل بعد ذلك بحقّ الجحيم؟» لم يشأ أن يعود جيشنا أدراجه إلى العراق بشكلٍ كبير. حتّى لو نجح الهجوم المضادّ على الرّمادي، فماذا بعد؟ هل هناك أيّ ضمانات بأنّ العراقيّين قادرون على الإمساك بالمدينة وحكمها بمجرّد تحريرها؟ لم يكن قرارًا سهلًا. لكنّ الرّئيس أوباما وافق على أخذ المشورة بعين الاعتبار.

أخيرًا، حصل تطوّرٌ إيجابيّ مع بو. في اليوم الّذي سقطت فيه الرمادي، نهض من الفراش بواسطة ما يشبه العلاج الفيزيائيّ. تمكّن من الوقوف مستقيمًا، بمساعدة الممرّضات، لمدة خمس دقائق. دوّن دوك أوكونور «يوم جيّد». وجاء كلّ من ناتالي وهانتر في اليوم التّالي لرؤية والدهما. بعد يومين، قام الجرّاح بإجراءٍ معيّن بدا أخيرًا أنّه يخفّف أسوأ الضغوط عن جمجمة بو. لقد أصبح يقظًا بشكل متزايد طوال الوقت. أخبرني دوك أنّه لاحظ أنّ بو يحرّك ذراعه على طول جانبه الأيمن المشلول، ثم فخذه الأيمن. في اليوم التّالي أصبح قويًّا بما يكفي للجلوس على كرسي كهربائيّ متحرّك للقيام بدورة حول مركز الممرّضات. بدا من الواضح أنّه يدرك مجدّدًا ما يجري حوله، فيومئ برأسه ردًّا على الأسئلة ويصافح بقبضة يده. حصلت هالي على إذن لأخذه في نزهة إلى الخارج، حيث يمكن أن يشعر بالشّمس على وجهه لأوّل مرّة منذ أسبوعين ونصف. بعد سبعة أسابيع من حقنة الفيروس الحيّ، بدا أن بو قد بدأ أخيرًا في الخروج من النّفق المظلم.

دعاني باراك للعب الجولف يوم السّبت. أوضح أنّه قلقٌ عليّ، وأنّه يأمل في تشتيت انتباهي لبضع ساعات. شجّعتني جيل على الذّهاب؛ في

النهاية، يبدو أنّ الأمور آيلة نحو التّحسّن بالنّسبة لبو. وأسوأ ما في الأمر هو أنّني لا أستطيع حتّى أن أتذكّر ما إذا كنت قد ذهبت أم لا!

بعد أسبوع من سقوط الرّمادي، ظهر وزير الدّفاع آش كارتر على شبكة سي إن إن، وأحرج عناصر الجيش العراقي. قال كارتر في مقابلة أذيعت يوم الأحد 24 أيار (مايو) خلال البرنامج الحواريّ ستايت أوف ذي يونيون: «ما حدث على ما يبدو هو أنّ القوّات العراقيّة ببساطة لم تُظهر أيّ رغبة في القتال. لم يكونوا أقلّ عددًا. في الواقع، لقد فاق عددهم بشكلٍ كبير القوّات المعارضة. ومع ذلك فشلوا في القتال». ويعكس هذا الكلام الشّكوك المبرّرة التي كانت لدى البعض في إدارتنا بشأن مدى استعداد العراق لمواجهة داعش. لكنّني تمنيت لو لم يقلها.

عندما أحاطني فريقي بالمعلومات الموجزة قبل مكالمتي المقرّرة مع رئيس الوزراء العبادي في صبيحة اليوم التّالي، يوم ذكرى شهداء الحرب، لم يكن هناك أيّ مفاجآت. فالسّفير جونز ونائب المبعوث الخاصّ ماكغورك كانا على اتّصال بالمسؤولين العراقيّين، الّذين أخبروهما أنّ العبادي أصيب بصدمة من تصريحات كارتر وأعرب عن قلقه من التّخلّي عن العراق. لم يكن من الصّعب تخيّل ما يشعر به العبادي في ذلك الوقت. عندما قال للصّحفيّين: «هذا يجعل قلبي ينزف لأنّنا فقدنا الرّمادي»، علمت أنّ كلماته صادقة. اتّفق معي جميع مقدّمي الإحاطات على أنّ مهمّتي الرّئيسة في المكالمة ذلك الصّباح هي لتعزيز إيماني بالعبادي. فهو تحت ضغط هائل، وعليّ التّأكّد من أنّه يسمعني عندما أقول له إنّنا ما زلنا معه. كنت أعرف مدى صعوبة المعركة في الرّمادي، حيث كنت في المنطقة عام 2006 عندما سيطر سلف داعش، القاعدة في العراق، على المدينة. قاتل الآلاف من الجنود ومشاة البحريّة الأمريكيّة، المحاربين الأكثر قدرة في العالم، قتالًا

ضاريًا لمدّة أربعة أشهر لاستعادة المدينة. قتل خمسة وسبعون من أفراد الخدمة الأمريكيّة، وأعدادًا لا حصر لها من العراقيّين في تلك المعركة. كنت أعرف أيضًا، بعد أن شاهدت بو، نوع الشّجاعة المطلقة المطلوبة لخوض معركة شاقّة ومخيفة ضدّ عدوّ شرّير لا يرحم. وأعرف مدى أهمّيّة الحصول على دعمٍ حقيقيّ.

بدا العبادي لطيفًا أثناء المكالمة ذلك الصّباح. لم أضطرّ إلى تذكيره بما نحتاجه منه. كان يعرف كلّ ذلك. قلت له ببساطة: إنّني أدرك وأقدّر التّضحيات الهائلة للجنود العراقيّين. وأكّدت له أنّ الأسلحة والمعدّات الّتي وعدنا بها لا تزال في طور الإعداد. والأهمّ من ذلك، أكّدت له أنّ إدارتنا لم تفقد الثّقة به، على الرّغم من تصريحات الوزير كارتر. وأنّنا ما زلنا ملتزمين بمساعدته على قلب الموازين، لأنّنا ما زلنا نعتقد أنّ بإمكانه ذلك. أخبرته، كما فعلت من قبل، أنّه قائد حقيقيّ، رجل يتحلّى بالشّجاعة، سياسيًّا وشخصيًّا على حدّ سواء.

لم يبقَ سوى مناسبة عامّة صغيرة أخرى في جدول مواعيدي بمناسبة ذكرى شهداء الحرب، قبل أن أتمكّن من التّوجّه إلى والتر ريد لقضاء العطلة مع بو. كنت متشوّقًا لرؤيته، جزئيًّا لمعرفة ما إذا كان هناك المزيد من التّحسّن، وجزئيًّا لأنّني لم أستطع إخراج صورة الحلم الّذي رأيته في اللّيلة السّابقة من رأسي. ظهر لي بو، وقد شفي تمامًا، بهيأته القديمة نفسها. كانت الصّورة حيّة جدًّا وشعرت بأنّها حقيقيّة للغاية. بدا بو على مسافة بعيدة، ينهي أحد أشواطه المعتادة عبر أراضي مدرسة تاتنال، ويركض بمحاذاة البحيرة خلف منزلنا. حاولت بشدّة أن أجد جيل أو أيّ شخص في العائلة لمشاركة الأخبار الرّائعة. أردت أن أصرخ: «رأيت بو يركض! رأيت بو يركض!».

الفصل التاسع

أخبروهم بالحقيقة

عندما وصلت إلى والتر ريد بعد ظهر يوم ذكرى شهداء الحرب، بدا لي بو أفضل ممّا رأيته منذ أسابيع، وبدا أنّه أكثر وعيًا واستجابة بمرور السّاعة. اعتقد الأطباء أنّه قد يكون لديهم أخيرًا علاج للمشكلة الرّئيسة: الضّغط النّاجم عن تراكم السّائل النّخاعيّ الشّوكيّ في البطين الجانبيّ الأيسر من دماغه. تنتج بطينات الدّماغ السّائل النّخاعيّ الشّوكيّ، وتعيد امتصاصه، وتصرّفه للحفاظ على توازنه المناسب، ولكنّ جهاز بو لم يكن يصرّفه بشكلٍ صحيح. أشار دوك أوكونر أمامي أنّ تراكمًا لخلايا سرطانيّة ميّتة انسلخت، وتسبّبت ربّما في انسداد قناة التّصريف، مثل الأوراق في الميزاب. كان جراحو الأعصاب في ريد قد أجروا عمليّة قبل بضعة أيّام حيث بدا أخيرًا أنّها فتحت الطّريق. وبدا أنّ البطين الأيسر لبو بدأ يتقشّر ويتقلّص. ولم يكن هناك دليل على وجود خلايا سرطانيّة في السّائل المنصّب.

كان الباحثون الطبيّون على الأرض مهتمّين حقًا بالتّقدّم الّذي يحرزه بو الآن، وكانوا متحمّسين بالفعل لأنّهم قد يشهدون أوّل نجاح من نوعه في علاج الورم الأرومي الدّبقيّ – هذا المزيج الجديد من الفيروس الحيّ والأجسام المضادّة لـ (بي دي–1).

بات الحفاظ على مستويات السّوائل في جهاز بو البطينيّ في حالة اتّزان، وخفض الضّغط على دماغه أمرًا حاسمًا لمنحه الرّاحة من الألم،

وإعطائه لحظات من الصفاء الذهنيّ، وضروريًا لمنحنا الأمل. فالمسألة مسألة حياة أو موت الآن، والمشاعر متأجّجة. عرفنا أنا وهالي وجيل وآشلي مدى أهميّة الحفاظ على السّائل النّخاعيّ الشّوكيّ متوازنًا تمامًا، وكنّا نراقبه ساعة بساعة تقريبًا، وهو يتأرجح بين الأمل واليأس. وعرفنا أيضًا أنّه بالنّظر إلى الطّبيعة التّجريبيّة للعلاج بالفيروسات الحيّة/ العلاج المضادّ لـ(بي دي-1)، صار من المهم أن يتمكّن آل يونغ وفريد لانغ من الإشراف على المعايرة. لذلك عمد الأطباء في ريد إلى تجفيف جهاز بو البطيني كلّ يوم، والقيام بإجراء فحوصات سكانر جديدة لإرسالها إلى ام دي أندرسون. لكن استمرّت عقبات توصيل البيانات بين التّقنيّين الطّبيّين في المستشفيات المختلفة. كما في جيفرسون، لم يتمكّن التّقنيّون في والتر ريد من نقل صور السّكانر بسرعة وبسلاسة إلى ام دي أندرسون، لذلك اضطّر هاورد وهانت مرّة أخرى إلى إيجاد طريقة لالتقاط مقاطع فيديو أو صور لنتائج السّكانر باستخدام أجهزة آي فون وآي باد الشّخصيّة، وإرسالها إلى الدّكتور يونغ والدّكتور لانغ. كانت هناك أوقات وجدتهما فيها يشتُمان هذا النّظام الخالي من الرّحمة، خصوصًا الآن، عندما أصبح بو يعاني حقًا، لأنّ فقدان يوم أو ساعة أو حتّى دقيقة هو أمرٌ مقلقٌ جدًّا لكلّ أفراد العائلة. يا إلهي! قلت في نفسي، لا بدّ وأن يكون هناك طريقة أفضل. يجب أن أكون قادرًا على فعل شيءٍ حيال ذلك.

ولكن على الرّغم من هذا الواقع المُهين، كنّا لا نزال نرى أدلّةً على أنّ بو بات على وشك تخطّي المرحلة الحرجة.

تمكنّا أنا وجيل من اصطحاب بو إلى الخارج على كرسيّه المتحرّك بعد ظهر ذلك اليوم، وفي المساء التّالي أيضًا لمدّة نصف ساعة كاملة. صار الطّقس معتدلًا في أواخر أيار (مايو)، ودرجة الحرارة عند الغروب ثمانين درجة مع نسيمٍ باردٍ خفيف. كنت أعلم أنّ بو يتألّم بلا شكّ. رأيتُ ذلك في

عينيه. لكنّه بدا أفضل، فهو يهزّ رأسه أحيانًا أو يبتسم، أو يشير بإبهامه إلى الأعلى. بدأ غروب الشّمس للتوّ بتلوين الغيوم، ووجدت نفسي أتذكّر بو عندما كان طفلًا صغيرًا، جالسًا في الشّرفة قبالة غرفة نومي، يراقب الأشجار، ويراقب غروب الشّمس. عندما تنخفض الشّمس تحت حدود الأشجار، كان يقول: «انظر يا أبي. إنّها تختفي».

تفاءلتُ إلى حدّ مّا عندما توجّهت لإلقاء خطابٍ في وقتٍ مبكر من بعد ظهر اليوم التّالي في معهد بروكينغز، لأنّ بو بدا أنّه يتحسّن. كان موضوع حديثي في ذلك اليوم هو أوكرانيا الّتي كانت في ورطة. فقد واصل بوتين ضغطه المستمرّ على الدّولة المجاورة لروسيا في الأشهر الثّلاثة الّتي تلت اتفاقيّة مينسك الثّانية. فقد ظلّ يعمل بجدّ لزعزعة استقرار الاقتصاد الأوكرانيّ وحكومتها، ولم يسحب مدفعيّته الثّقيلة أو قوّاته. في الواقع، علمنا أنّه نشر ما يصل إلى عشر كتائب كاملة، إلى جانب أنظمة الدّفاع الجوّيّ، بالقرب من الحدود في منطقة روستوف وحدها، وأصيب جنديّان روسيّان نظاميّان وأسرا في قتالٍ داخل أوكرانيا قبل عشرة أيام. وواصل الانفصاليّون المدعومون من روسيا – مع الجنود الرّوس إلى جانبهم – شنّ هجماتٍ متفرّقة ولكنّها مميتة. ولم يُبدوا أيّ بوادر على التّراجع. في اجتماع قبل أسبوعين، تجاهل بوتين تذكير وزير الخارجيّة جون كيري بأنّ على الرّوس التّوقّف عن تدريب القوّات الانفصاليّة في أوكرانيا وتجهيزها، وأنّ عليهم سحب قوّاتهم من الحدود.

بذل الرّئيس الأوكرانيّ، بيترو بوروشينكو، قصارى جهده لمنع جنوده على الخطوط الأماميّة من الرّدّ على استفزازات الانفصاليّين ورعاتهم الرّوس على الأرض، لكنّ وقف إطلاق النّار لم يصمد أبدًا. ولكن في مواجهة حملة بوتين العدوانيّة لتقسيم أوكرانيا، تمكّن بوروشنكو من الحفاظ على

تماسك حكومته ودفعها نحو مزيدٍ من الشّفافيّة. وكنت أتواصل عبر الهاتف مع بوروشينكو أو شريكه غير المستقرّ في الحكم، أرسيني ياتسينيوك، أو كليهما، كلّ أسبوع تقريبًا على مدار الأشهر الثّلاثة الماضية، ولطالما شجّعتهما على تغليب المصلحة الوطنيّة على الطّموح الشّخصيّ. بالعمل معًا، اتّخذ الرّئيس بوروشينكو ورئيس الوزراء ياتسينيوك الخطوات الأولى نحو إصلاحاتٍ سياسيّةٍ مهمّة؛ وقد أنشأت الحكومة بالفعل مكتبًا وطنيًا لمكافحة الفساد وقام بوروشنكو بتعيين أوّل رئيس له. كنّا نفعل ما بوسعنا للمساعدة. حيث قمنا مع حلفائنا الأوروبيّين بتوسيع العقوبات الاقتصاديّة ضدّ روسيا، وزوّدنا الأوكرانيين بمعدّات عسكريّة غير فتّاكة بقيمة 75 مليون دولار: ناقلات جند مدرّعة، وأجهزة اتّصالات، وطائرات استطلاع بدون طيّار، والمزيد من الرادارات المضادّة لقذائف الهاون. ولكن في الأسبوع الأخير من شهر أيار (مايو)، لم يكن بوتين قد أوقف اعتداءاته بعد عند الحدود الأوكرانيّة. بل ظلّ في انتهاكٍ صارخٍ للاتّفاق الذي وقّع عليه.

أشارت التّقارير الإخباريّة في اليوم الّذي ألقيت فيه خطابي في معهد بروكينغز إلى أنّ بوتين على وشك أن يخطو خطوةً أبعد، واضعًا قرار النّاتو والاتّحاد الأوروبي والولايات المتّحدة على المحكّ. كان مراسل لرويترز قد عاد لتوّه من معسكرٍ روسيّ عسكريّ على بعد ثلاثين ميلًا من أوكرانيا، حيث شهد وصول أربع قطارات منفصلة محمّلة بالمعدّات العسكريّة والقوّات. وبحسب روايته فإنّ «الأسلحة الّتي جرى تسليمها هناك تضمّنت قاذفات صواريخ متعدّدة من طراز أوراغان ودبّابات ومدافع هاوتزر ذاتيّة الدّفع. كميّة العتاد العسكريّ في القاعدة بلغت حوالي ثلاثة أضعاف ما كانت عليه في آذار (مارس) من هذا العام، عندما كان مراسلو رويترز في المنطقة سابقًا».

النّبأ الآخر المشؤوم هو أنّ بوتين بات على وشك التّوقيع على مرسومٍ يحظّر الإبلاغ عن الوفيّات الرّوسيّة خلال «عمليّات خاصّة» في وقت السّلم –

مثلما كان محظورًا منذ فترة طويلة في وقت الحرب. أراد بوتين إخفاء أيّ دليل على وقوع قتلى في المعارك في أوكرانيا، لأنّ ثلثيّ السكان الرّوس عارضوا فكرة التّضحية بالجنود الرّوس للاستيلاء على أجزاء من أوكرانيا. أشارت صحيفة واشنطن بوست إلى أنّ «بعض المراقبين لا يرون سوى سببٍ واحدٍ معقول للتّغيير. روسيا تستعدّ لهجومٍ عسكريّ آخر على أوكرانيا».

لم أكن أنوي توجيه اللّكمات في هذا الخطاب، لأنّني أعرف أنّ الجميع في الولايات المتّحدة وفي أوروبّا يتابعون باهتمام. علينا تمديد العقوبات الاقتصاديّة على المعتدين الرّوس. وعلينا إجراء نقاشٍ حقيقيّ حول تسليح الأوكرانيّين بأسلحة يمكنهم استخدامها للدّفاع عن أنفسهم. ولكن أكثر من ذلك، لقد حان الوقت لوصف بوتين بأنّه متنمّر، وتذكير الجميع بأنّ الغرب قد تصدّى للتّنمّر. في ذلك اليوم، قمت بتذكير المجموعة في معهد بروكينغز والعالم، بأنّنا «قد وصلنا إلى مرحلةٍ جديدة في تاريخ العلاقة عبر الأطلسيّ الّتي تتطلّب مجدّدًا ذلك النّوع من القيادة الّذي قدمه جيل آبائنا وأجدادنا. أعتقد أنّه أمر أساسيّ لهذا الحدّ. وأعتقد أنّه مشابه. ولكنّني مقتنع بأن الأرض بتضاريسها، تصبّ في الأساس في مصلحتنا. ليس بسبب حتميّة أن يؤدّي أيّ مسار نحو الاتّحاد أو الدّمج أو الحريّات الدّيمقراطيّة. في كلّ جيل هناك دهماويّون ومحرّفون، توفّر لهم التّحوّلات المليئة بالمخاطر، العديد العديد من الفرص.

ما يجعلني متفائلًا هو أنّ الرّؤية الّتي يحملها الرّئيس بوتين لديها القليل جدًا لتقدّمه لشعوب أوروبا – أو، في هذه الحالة، لشعب روسيا – باستثناء الأساطير والأوهام، الوعد الكاذب بالعودة إلى الماضي، الّذي عند فحصه، يتبيّن أنّه لم يكن ماضيًا جيّدًا للعودة إليه. اللّجوء إلى الحيل كبديل عن القيادة القويّة والمؤسّسات العاملة للتّنمّر على المجتمعات المدنيّة وعلى المعارضين والمثليّين. أو البروباغندا الّتي لا تميّز بين العدوان والقوّة».

في ذلك المساء عندما عدت إلى والتر ريد، بدا أنّ بو ما زال يتحسّن.

لقد كانت ليلته سيّئة يوم الأربعاء، وبحلول ظهر اليوم التّالي، الخميس، كان بالكاد يستجيب، لا إيماءات، لا مصافحة بقبضة اليد، لا رفع للإبهام. صلّينا جميعًا أن يكون الأمر مجرد نكسة مؤقّتة أخرى، ويخرج بو منها – محقّقًا المزيد من الانتصار. جاء شخص من الطّاقم الطبيّ إلى غرفة بو لترتيب اجتماع في صباح اليوم التّالي، حيث سيعرض الأطباء أمام العائلة تقييمهم لحالة بو وتوقّعات سير المرض. سيكون هناك فحوصات سكانر جديدة للنّظر فيها بحلول ذلك الوقت. اعتقدت أنّ الصّور ستظهر على الأرجح المزيد من تراكم سائل النّخاع الشّوكي. وبمجرّد تجفيفها، سيعود بو إلى الوضع السّابق.

اجتمعت العائلة بأكملها في السّاعة العاشرة من صباح يوم الجمعة في قاعة اجتماعات طويلة وضيّقة. جلس الأطباء من والتر ريد على أحد جانبيّ الطّاولة والعائلة على الجانب الآخر. كان هناك مكبر للصّوت في الوسط، كي يتمكّن فريق ام دي أندرسون من الإدلاء برأيهم أيضًا. من الواضح أنّ الأطباء، بمن فيهم دوك أوكونور وزوج آشلي، هوارد، بدأوا يتحدّثون فيما بينهم، وبدا أنّهم متّحدون إلى حدّ ما في رسالتهم. الأطبّاء لم يعجبهم ما رأوه. بدت نتائج السّكانر أسوأ بكثير ممّا كانت عليه قبل يومين فقط، لكنّ الأطباء لم يكونوا متأكّدين ممّا إذا كان ذلك بفعل الفيروس أو الورم.

بقيت أبحث عن طريقة للعبور من خلالها، إلى الجانب الآخر، مع بو على قيد الحياة. وأعتقد أنّ بقية أفراد العائلة لديهم الشّعور نفسه. بعد حوالي خمس وأربعين دقيقة، قال أحد الأطباء من والتر ريد أخيرًا: إنّ الأمر يستحقّ الانتظار لمدّة أربع وعشرين، أو ثمانٍ وأربعين ساعة أخرى، لنرى

ما سيحدث. خرجنا جميعًا من غرفة الاجتماعات وسرنا إلى أسفل الرّواق باتّجاه غرفة بو ونحن نشعر بالأمل، متمسّكين بفكرة أنّه قد ينجو من هذه مجدّدًا. ولكن ما لبثنا أن سمعنا صوت هوارد من ورائنا. قال، وهو يقودنا مرّة أخرى إلى غرفة الاجتماعات: «عليكم أن تعودوا». قال هوارد للأطبّاء الّذين ما زالوا مجتمعين: «أخبروهم بالحقيقة». فقال الأطباء: إنّ ما يحدث في دماغ بو لم يعد من الممكن إعادته إلى الوراء. لا يمكن إنقاذ بو. «إنّه لن يتعافى».

كانت هذه أكثر ثلاث كلمات مدمّرة سمعتها في حياتي. «إنّه لن يتعافى». لكن يا إلهي، ما زلت أريد أن أؤمن أنّه - ربّما - ربّما سيحدث شيء ما.

سألت هالي هوارد إذا كان عليها أن تحضر الأطفال يوم الإثنين، فقال لها: لا، هالي، عليك إحضار الأطفال هنا الآن! أوصل والدا هالي، ناتالي وهانتر، من ويلمنجتون في ذلك المساء. عبروا ممرّات المستشفى مبتسمين، وكأنّها زيارة أخرى. أمسكت هالي أطفالها من يدهم، وسارت بهم عبر مركز الممرّضات، باتّجاه غرفة بو. عناصر جهاز الأمن الخاصّ، الّذين كان العديد منهم مع عائلتنا لأكثر من ستّ سنوات، أحنوا رؤوسهم وحدّقوا في الأرضيّة الرخاميّة، أو استداروا بعيدًا، كي لا يراهم أحد يبكون أثناء مرور ناتالي وهانتر.

لم يغادر أحد المستشفى في تلك اللّيلة. جاءت زوجة هانتر وبناته ليكونوا معنا. وكانت معنا أختي فال وزوجها جاك وأخي جيم وزوجته سارة، وابنة أخي ميسي، الّتي نشأت مع بو، جاءت لتكون معنا أيضًا. وانتظرنا جميعًا معًا. غادر هانتر وهاورد الطّابق لفترة وجيزة، بعد السّاعة السّابعة مباشرة من تلك اللّيلة، لإحضار الطّعام للعائلة. وبعد وقت قصير من خروجهم، أصبح تنفّس بو مجهدًا، ثمّ ضئيلًا للغاية، ثمّ بدا أنّه توقّف.

لـم يكـن هنـاك تسـجيل لنبضـات القلـب على الشّاشـة. عاد هانـت وهوارد مسـرعين، وعندمـا وصلـوا وجـدوا بقيّتنا مجتمعين حـول بو. اقترب هانت، وانحنى لتقبيله، ووضع يده على قلب أخيه. نظر هوارد إلى الشّاشـة. قال: «انظر». كان قلب بو ينبض مرّة أخرى. ولكنّه لم يدم طويلًا.

سجّلت في مذكّراتي:30 أيار (مايو). السّاعة السّابعة وإحدى وخمسون دقيقةً مساءً. لقد حصل الأمر. يا إلهي، يا ولدي. ولدي الجميل!

وصلنا أنا وجيل إلى المنزل في ديلاوير على متن طائرة الرّئاسة الثّانية حوالي السّـاعة الثّامنة من مسـاء الأحد، بعد مرور 24 سـاعة بالضّبط على وفـاة بـو. كان الجنـرال فرانـك فافالا، قائد الحـرس الوطنيّ لولاية ديلاوير، الّـذي خـدم فيـه بـو، فـي انتظار التّرحيب بنا على المـدرج، وزوجته بجانبه. بحلول الوقت الّذي وصلنا إليه، كان الجنرال وزوجته يبكيان، ولم يتمكّنا من التّوقّف عن البكاء. قال: «لقد أحببنا بو». كنت أنا وجيل على المدرج لمدّة خمس دقائق تقريبًا نحاول مواسـاتهم، وعندما ركبنا سـيّارتنا أخيرًا وانطلقنا بعيدًا، رأيت الجنرال يقف هناك، صلبًا مستقيمًا، يؤدّي التّحيّة. ويبكي.

أرادت جيـل الذّهـاب إلـى رصيفنـا البحريّ حالمـا وصلنا إلى المنزل، فأخذنا تشامب، وانحدرنا إلى أسفل التلّ ومشينا بمحازاة البحيرة. كان هذا اليـوم واحـدًا مـن أطـول أيّام السّـنة، لذا، لم تكن الشـمس قـد غابت عندما جلسنا. رأت جيل طائر البلشون الأبيض على حافّة المياه البعيدة. قالت إنّ وجودها في مكان يحبّه بو بشدّة جعلها تشعر بأنّها أكثر تواصلًا معه. أخبرتني أنّها في إحدى اللّحظات، في السّـاعات الأخيرة، انحنت إليه وهمسـت له: «اذهب إلى مكان سعيد، بو. اذهب إلى الرّصيف البحريّ، مع هانتر». راقبنا البلشـون الأبيض لمدّة عشـرين دقيقة، حتّى بدأ بالطّيران أخيرًا. جلس كلانا في صمت بينما كان البلشون يطير فوق رؤوسنا مرارًا وتكرارًا، يرتفع ببطء،

إلى أن اتّجه أخيرًا بعيدًا نحو الجنوب، تحت السّحب، واختفى تدريجيًا عن الأنظار. قالت جيل: «إنها إشارة من الله. كان بو عند البحيرة للمرّة الأخيرة، قبل أن يصعد إلى السّماء».

ذهبت جيل إلى الفراش بعد فترة وجيزة، وانتهى بي الأمر بمفردي في غرفة الجلوس مقابل غرفة نومنا، وكان قد جرى مؤخرًا تغطيتها بورق الجدران. كانت الغرفة لا تزال في حالة من الفوضى بسبب الأشغال؛ حيث جرى تحريك الأثاث جانبًا ودفع الكتب والتّذكارات إلى منتصف الأرضيّة في صناديق مفتوحة أو أكوام. طلبت من اثنين من عناصر جهاز الأمن مساعدتي في نقل مكتب جيل وخزانة كتبي إلى مكانهما، لكن ذلك لم يستغرق وقتًا طويلًا. كنت بحاجة إلى شيء أفعله لإبقاء ذهني مشغولًا حتّى أتمكّن من النّوم، فبدأت في إفراغ بعض الصّناديق وترتيب الكتب - بشكلٍ منهجيّ، حسب الموضوع - على الرّفوف. احتوى الصّندوق الأخير الّذي أمسكت به على بعض الصّفحات من كتب القصاصات وبعض الصّور العائليّة القديمة. تطايرت الصّورة الموجودة في أعلى الكومة، فانحنيت لألتقطها، فإذا هي صورة ملوّنة لبو بحجم أربعة في ستة. ربّما كان في الثّامنة أو التّاسعة من عمره، يرتدي حذاءًا رياضيًّا وسروالاً قصيرًا، ويضع قبّعة بايسبول ويلبس سترة، كان يمشي عبر السّياج قرب المحطة، حيث المنزل الّذي اشتريته بعد وفاة نيليا بقليل. نشأ الأولاد وآشلي هناك. في الصّورة، بدا بو يسير بعيدًا عنّي، ينظر من فوق كتفه مبتسمًا وملوّحًا بيده. فاضت مشاعري فجأة. فأنا لم أرَ تلك الصّورة منذ ثلاثة عقود على الأقلّ، لكن كان هذا هو العمر الّذي طالما تخيّلته فيه. يبتسم لي دائمًا بهذه النّظرة المطمئنة.

يا إلهي، لقد صُدمت في تلك اللّحظة كم إنّني أفتقده بشدّة - بالفعل. كان بإمكان بو دائمًا أن يطرد مخاوفي بعيدًا. لقد أنقذ حياتي مع هانتر،

قبل أربعين عامًا، بعد وفاة نيليا ونعومي في حادث السّيّارة، والآن ماذا عليّ أن أفعل؟ كنت أنظر إلى بو، كما أنظر إلى هانت، منذ أن كان طفلًا ، كمصدرٍ للثّقة والشّجاعة. فهو يردّد: «سيكون الأمر على ما يرام يا أبي. لن أذهب بعيدًا». كم يبدو من الحماقة، حسب اعتقادي، أنّ رجلًا ناضجًا، رجلًا ناجحًا، قضى حياته كلّها في محاولة لبثّ الشّجاعة والثّبات، عليه أن ينظر إلى أبنائه لترتفع معنويّاته. أكاد أسمع بو يقول: «انظر إليّ، يا أبي. تذكّر. تذكّر. القاعدة الأمّ».

لقد كنت رجلًا يتعاطى الشّأن العام منذ ما يقرب من خمسين عامًا، ممّا يعني أن أولادي وأحفادي كانوا جزءًا من عائلة معروفة طوال حياتهم. لقد علموا دون أن أقول ذلك على الإطلاق، أنّ الطّريقة الّتي سنتصرّف بها خلال الأسبوع التّالي، والطّريقة الّتي سنودّع بها بو، ستكون مهمّة للغاية. هو، أيضًا، كان رجلًا يتعاطى الشّأن العامّ- شخصيّة محبوبة ومحترمة في ولاية ديلاوير- لذلك فمن الواجب تأبينه ورثاؤه شعبيًّا. كان هناك جدول زمنيّ يتشكّل بالفعل. يوم الخميس، سنتّجه جميعًا إلى عاصمة الولاية دوفر، وسيوضع الجثمان في نعش ملفوف بالأعلام؛ سيسجّى بو ليكرّم خلال احتفال مدتّه أربع ساعات في القاعة التّشريعيّة.

سنعود إلى واشنطن ذلك المساء لحفل تخرّج مايسي بايدن من الصّفّ الثّامن. الجمعة صباحًا سيكون تخرّج ابنة بو ناتالي من الصّفّ الرّابع في ويلمنجتون، ثمّ القدّاس العائليّ الخاصّ في أبرشيّتنا، سانت جوزيف في براندیواین، تليه صحوة عامّة عند النّعش في سانت أنتوني، في قلب ويلمنجتون. يوم السّبت كان حفل التّأبين، قدّاس الدّفن لدى المسيحيّين، وأيضًا في سانت أنتوني، يتبعه الدّفن في مدافن عائلتنا في سانت جوزيف. طوال فترة التّخطيط، كنت مدركًا لدوائر الالتزامات حولي- الالتزامات تجاه بو، وتجاه زوجته وأطفاله، وتجاه زوجتي وأولادي الآخرين، وتجاه أحفادي

الآخرين، وإخوتي وأختي، وعائلتي الممتدّة والأصدقاء، ولكن أيضًا تجاه كلّ من جاء إلى الصّحوة أو الجنازة، أو شاهد الوقائع على التّلفزيون، والّتي كان من المقرّر بثّ بعضها مباشرةً في جميع أنحاء البلاد. اعتبرت أنّه من واجبي العامّ أن أبيّن لملايين الأشخاص الّذين يواجهون الحقيقة المروّعة نفسها أنّه من الممكن استيعاب الخسارة الحقيقيّة وتجاوزها. كان عليّ أنا وعائلتي أن نلتزم بإظهار الصّلابة والرّضى.

خطّطت أنا وهالي وأختي فال وهانتر كلّ خطوة تقريبًا من الأيّام القادمة. قمنا بوضع مخطّطات ورسوم تبيّن أين سنسير ونجلس ونقف. ولكن بينما كنّا منكبّين على المهمّة، لاحظت أنّ هانتر، الّذي صمّم على احترام رغبات بو، كان يتولّى القيادة. فهو يعرف كيف يريد شقيقه أن يُذكر- بصفته زوجًا وأبًا ورجل عام أراد خدمة الجميع وجنديًّا كذلك- وقد صمّم على إضفاء اللّون الأحمر الحيويّ على الإجراءات ليعكس حياة بو. اتّصل بقساوسة بروتستانت وحاخامًا يهوديًا وشيخًا مسلمًا، ودعاهم ليكونوا على المذبح مع الكاردينال الكاثوليكيّ والكهنة؛ لقد حرص على تأمين مكانٍ في الحفل للواء الحرس الوطنيّ التّابع لبو كما استدعى عربة دفن موتى تجرّها الخيول لحمل نعش بو عبر شوارع ويلمنجتون، حيث سيصطفّ حرس الشّرف العسكريّ والشّرطة الّتي قادها بو بصفته مدّعيًا عامًّا. اختار هانت فرقة كورال أمريكيّة من أصل أفريقيّ لإدخال موسيقى مبهجة إلى القدّاس وعازفي المزامير لإضافة اللّحن الحزين الإيرلندي.

أمّا اللّمسة الأخيرة، فهي هديّة خاصّة من هالي للأطفال. كانوا يستقلّون سيّارة بعد ظهر أحد الأيام عندما صدحت أغنية لفرقة كولدبلاي على الرّاديو. قال هانتر البالغ من العمر تسع سنوات: «هذه فرقة أبي المفضّلة». استولى هانتر على جهاز آيبود الخاصّ بوالده بحلول ذلك الوقت، ولاحظت

هالي أنّه يقوم في تشغيل أغنية «تيل كينغدوم كوم»[1] مرارًا وتكرارًا. فاتّصلت هالي ببيث بوتشيني، الّتي كان زوجها روبي صديقًا مقرّبًا لبو، والّذي كان لديه سبيل لإيصال رسالة إلى المغنّي الرّئيس في فرقة كولدبلاي، كريس مارتن. وافق مارتن على الحضور من لندن لأداء الأغنية في القدّاس، ووافق روبي بوتشيني بسخاء على تحمّل جميع نفقات سفره.

عرض باراك تأبين بو - وهو عرض قبلناه. ووافق قائد بو العام في العراق، الجنرال راي أوديرنو، على إلقاء كلمة. اتّصل الجنرال، الّذي أصبح الآن رئيس أركان الجيش الأمريكيّ، بعد يومين من وفاة بو ليسأل عمّا إذا كان بإمكانه هو وزوجته حضور الجنازة. قال لي: «لقد توقّعت حقًا أن يقود بو بلدنا يومًا ما». رأيت أنّه من الأفضل أن يتحدّث كلّ من آشلي وهانتر نيابة عن العائلة، وأن يكونا هما اللّذين يقفان ويرثيان أخاهما. ووافقا. ولكن على الرّغم من التّخطيط الدّقيق، عندما خرجنا جميعًا من منزلنا معًا في أوّل حدثٍ عامّ، لم يكن أحد في العائلة يتخيّل أنّ هذا سيكون سهلًا.

عندما أصبح كلّ شيء وراءنا أخيرًا، ليلة السّبت، 6 حزيران (يونيو)، وجدت نفسي جالسًا وحدي في مكتبتي. لقد رحل بو منذ أسبوع بالضّبط، لكنّني ما زلت أشعر بوجوده. كتبت في مذكّراتي تلك اللّيلة: لا يبدو الأمر حقيقيًّا بعد. كنت مصمّمًا جدًا على أن يكون الحدث جليلًا وقويًّا من أجل ذكرى بو، فقد رغبت في عدم التّركيز على ضخامة الأمر، على الثّقب الأسود في صدري، الّذي يسحبني. من خلال التّركيز على هانت وآش تمكّنت من التّظاهر بأنّ بو لا يزال معي. حتّى اليوم، باستثناء [عزف] أغنية «أحضره للمنزل»، فإنّني أضع بو في وسط كلّ شيء، كما لو كنّا أنا وهو متكاتفين في كلّ هذا معًا.

---

(1) 'Til Kingdom Come

جلست هناك، وأنا أفكّر في الأيام الثّلاثة الماضية، كانت لديّ ومضات من الفخر المذهل بابني وعائلتي. إحساس بالإنجاز يخترق جدار حزني. قال الجنرال أوديرنو في خطابه التّأبينيّ: «اهتم بو بشدّة بإخوانه من البشر، وعامل الجميع دائمًا بكرامة واحترام. كان يتمتّع بكاريزما طبيعيّة لا يمتلكها سوى قلّة من النّاس. أراد النّاس أن يتبعوه عن طيب خاطر، ووثقوا تمامًا في حكمه، وآمنوا به». ما زلت متأثّرًا وأنا أفكّر باستعداد باراك للتّخلّي عن تحفّظه وإظهار العمق الاستثنائيّ لمشاعره في تأبينه لبو. لقد مررنا بالكثير معًا، لكنّني شعرت بأنّني أقرب إلى الرّئيس في ذلك اليوم في سانت أنتوني، وأكثر تقديرًا لصداقته، أكثر من أيّ وقتٍ مضى. قال: «أنا وميشيل وساشا وماليا، أصبحنا جزءًا من عشيرة بايدن، نحن أعضاء فخريّون الآن. وتنطبق علينا قاعدة آل بايدن: نحن دائمًا هنا من أجلك. وسنكون دائمًا كذلك. هذا وعد بصفتي من آل بايدن».

عندما صعدت آشلي وهانت إلى المذبح، كان هناك صمت مطبق بين جموع المصلّين. عرف كلّ فرد من الجمهور عمق الخسارة الّتي شعر بها كلّ منهما، وعرفت من تجربتي الخاصّة مدى صعوبة تأبين شخص تعشقه. كانا يعانيان من هذا الألم، واستدعاء رباطة الجأش يتطلّب شجاعةً ملحوظة. لم أكن يومًا فخورًا بابني وابنتي بهذا القدر. عندما تحدّثا عن أخيهما، كان هناك شيء شبه مقدّس حول هذا الموضوع - كما لو كانا يرغبان في التّمسّك بثالوثهم الخاصّ. قالت آشلي للحضور، في خطاب أصرّت على كتابته بنفسها: «من المستحيل التّحدّث عن بو دون التّحدّث عن هانت». هانتر كان الرّيح تحت أجنحة بو. منحه هانت الشّجاعة والثّقة للطّيران. لم يكن هناك قرار واحد لم يُستشر فيه هانتر أوّلًا، ولم يمرّ يوم واحد لم يتحدّثا فيه، ولم يكن هناك طريق سفر واحد لم يكن فيه أحدهما مساعد طيّار للآخر. كان هانتر المؤتمن على أسرار بو. كان منزله. عندما ولدت، رحّب بي كل

مـن بـوي وهانتـي - كما كنت أناديهما بعشـق طوال حياتـي- بأذرعٍ مفتوحة وتمسّكا بي بإحكام. هما من أسمياني. كنت لهما وكنت أشعر أنّهما لي».

وقـف هانتـر إلـى جانـب آشـلي أثنـاء حديثهـا، وعندمـا صعـد إلـى الميكروفـون، بقيـت آشـلي واقفة بجانب شـقيقها بينمـا كان يتوجّه بعبارات الشّـكر نيابـة عـن العائلـة بأكملها. بدأ هانتر، مسـترجعًا الأيّـام الّتي كانا فيها معًا في المستشـفى، يتعافيان من حادث السّـيارة الّذي أودى بحياة والدتهما وأختهما «أولى ذكرياتي هي عندما كنت مستلقيًا في سرير المستشفى بجوار أخي، كان عمري ثلاث سنوات تقريبًا. أتذكّر أخي، الّذي كان يكبرني بسنة ويـوم واحـد، ممسـكًا بيـدي، محدّقًـا فـي عينـيّ، قائلاً: «أنا أحبّـك، أحبّك، أحبّـك،» مـرارًا وتكـرارًا. وخـلال اثنيـن وأربعين عامًا منذ ذلـك الحين، لم يتوقّف عن إمساك يدي، ولم يتوقّف عن إخباري بمدى حبّه لي. ولكنّ يدي لم تكن اليد الوحيدة الّتي أمسكها بو. كان بو اليد الّتي يمكن الوصول إليها فـي وقـت الحاجـة. كان بـو اليد الّتي كانت تمتدّ إليك حتى قبل أن تطلب».

تحدّث هانتر لما يقرب من خمس وعشرين دقيقة، عن رحلة بو في الحياة وجميع الأشخاص الّذين أثّر بهم. لقد جسّد جوهر أخيه بشكلٍ دقيق. واختتم هانتر قائلًا: «لقد أمسـك الكثير من الأيدي. ناجون من سـوء المعاملة، آباء إخوته وأخواته الّذين سقطوا في أثناء الخدمة، ضحايا جرائم العنف في مدينته الحبيبـة ويلمنجتـون. هـذه قصّـة أخي. هناك الآلاف من النّاس الّذين يروون قصصًا مشـابهة الآن. يروون القصّة نفسـها، عندما أمسـك بو بايدن بيدهم. امتيازي الوحيد من أخي هو أنّه أمسك بيدي أوّلًا».

«وكمـا بـدأت القصّـة، انتهت. عائلته أحاطت به، كلّ واحد تمسّـك به، كلّ واحد منّا أمسـكه بشـدّة. كلّ واحدٍ منّا قال له: «أحبّك،أحبّك، أحبّك.» أمسـكت بيـده، ولفـظ أنفاسـه الأخيـرة، وأعلم أنّه أحبّنـي. وأعلم أنّ يده لن تترك يدي أبدًا».

لقد أنعم الله عليّ بعائلةٍ رائعة. أتذكّر أنّني كنت أفكّر كم كنّا محظوظين، لمجرّد أن نكون قادرين على الإمساك فعليًا بعضنا ببعض خلال ثلاثة أيّام من الاحتفالات العامّة. عندما يظهر على أحدنا أو يبدأ بفقدان رباطة جأشه، كان هناك دائمًا شخص ما لتقديم الدّعم. سمعت هانت يقول عندما لاحظ أنّني أنظر إلى السّقف ورأى كتفي بدأت تهتزّ: «أرجوك يا أبي». إنّها نعمة أن تكون قادرًا على مشاركة شعورك بالحزن الدّفين، أن يكون بالقرب منك أشخاص تحبّهم ليمتصّوا بعضًا من أسوأ آلامك. ولكنّني أدركت أنّه ليس بمقدور أحد أن يخلّصك حقًا من كلّ الألم، بغضّ النّظر عن مدى قربه. هناك أوقات يجب أن يتحمّل فيها كلّ منّا عبء الخسارة بمفرده وبطريقته الخاصّة. الأشخاص الّذين يفهمون ذلك حقًا هم الأشخاص الّذين هم أنفسهم يتحمّلون هذه الأعباء. وهم مصدر حقيقيّ آخر للعزاء. من بين جميع المكالمات والزّيارات في ذلك الأسبوع الصّعب، كلّ التّعازي القلبيّة والتّمنيّات الطّيّبة من آلاف الأشخاص الّذين تقدّموا عبر خطوط الاستقبال، برز أحدهم: حدث ذلك خلال الصّحوة الجماهيريّة عند النّعش، في سانت أنتوني في ويلمنجتون، في اليوم السّابق لقدّاس الجنازة. كنت هناك مع جيل وبقيّة أفراد العائلة لساعات، أقف بجوار نعش بو، حيث اصطفّ الآلاف من الأصدقاء والمعارف والمؤيّدين. جاء النّاس من جميع أنحاء البلاد- بما فيهم الممرّضات من مستشفيات والتر ريد وجيفرسون- لكنّ معظمهم كانوا من ولاية ديلاوير. ولايتنا الأمّ هي ولاية صغيرة، وقد بقيت فيها سنوات عديدة، لذلك تمكّنت من التّعرّف على وجوه معظم المعزّين، إن لم يكن أسماءهم. ولكن في لحظة من اللّحظات، رفعت رأسي ورأيت في الصّفّ يقترب مني، وي تانغ ليو، والد ضابط الشّرطة الأمريكيّ الصّينيّ الّذي قُتل أثناء الخدمة في مدينة نيويورك قبل خمسة أشهر. كان هو وزوجته قد قطعا مسافة ثلاث ساعات بالسّيّارة من منزلهما في بروكلين إلى ويلمنجتون، ثمّ

وقفا لساعاتٍ في طابورٍ من النّاس المصطفّين على طول الرّصيف على امتداد عددٍ من الشّوارع، وصولًا إلى الكنيسة، صعودًا إلى نعش بو.

لم يحاول وي تانغ ليو الكلام، ولا أنا. لم يكن يتحدّث الإنجليزيّة بعد، وأنا ما زلت لا أعرف الكانتونيّة. صعد وعانقني فحسب. كان يعني لي الكثير أن أكون بين ذراعيّ شخص يفهمني. تمسّك بي، بصمت، ولم يتركني. لم تكن هذه، كما كانت آخر مرّة التقينا فيها، من أجله. كانت هذه من أجلي. «شكرًا» كان كلّ ما يمكنني قوله. «شكرًا. شكرًا. شكرًا».

الفصل العاشر

هل يمكنك البقاء؟

لقد كنت في هذا الموضع من قبل، وأعرف تمامًا ما يمكن توقّعه. تخلق الصّدمة خدرًا أوّليًا يزول. يأتي الألم بعد ذلك، وتزداد حدّته. الجرح هو وجود مادّيّ لا يتركك أبدًا. كما حدث عندما فقدت نيليا ونعومي قبل ثلاثة وأربعين عامًا، شعرت أنّ هناك ثقبًا مظلمًا صغيرًا في منتصف صدري، وعرفت أنّه إذا أمعنت النّظر في وجوده، فسوف ينمو حتّى يهدّد بابتلاع وجودي بالكامل. كانت هناك أوقاتٌ بدا فيها أنّه من الأسهل فقط الاختفاء في هذا الفراغ، في الغياب الرّحيم للألم. أتذكّر أنّني لم أتمكّن من أخذ نفسٍ طويلٍ وعميق لعدّة أشهر. وفرّ لي إيماني الدّينيّ ملاذًا من الألم إلى حدٍ مّا. لطالما وجدت الرّاحة في الطّقوس المرتبطة بالكاثوليكيّة. أجد راحتي في المسبحة. كأنّها نوع من التّأمّل. والقدّاس هو المكان الّذي أذهب إليه لأكون وحدي، حتّى في وسط الحشد. أشعر دائمًا بالوحدة، أنا وحدي مع الله. عندما أصلّي، أجد نفسي لا أدعو الله فحسب، بل أصلّي إلى نيليا وأمّي، وأطلب منهما أن تشفعا لي أمام الله. إنّها الوسيلة لتذكير نفسي بأنّهما ما زالتا جزءًا مني، وأنّهما لا تزالان في داخلي. وفي السّاعات الأولى بعد أن فقدنا بو، بدأت أتحدّث معه أيضًا. كانت طريقتي لتذكير نفسي بأنّه ما زال معي أيضًا.

في نهاية خطاب التّأبين، صوّرت آشلي حقيقة الأمر والحاجة إليه.

قالت عن بو: «ستكون معنا في كلّ قرار نتّخذه في لحظات الحزن والنّضال، والاحتفال والفرح»، وكنت أعرف أنّها كانت تتحدّث مباشرة إليّ وإلى بقيّة أفراد عائلتنا. «سنراك في كلّ مكان نذهب إليه، في جمال الطّبيعة، في ابتسامةٍ من الغرباء، وفي أطفالك الجميلين، الّذين سنعتني بهم مثلما اعتنيت بنا جميعًا. لقد كنت محفورًا في كلّ شعرة من كياننا. عظامنا من عظامك، ولحمنا من لحمك، ودمنا من دمك. أنت حاضر دائمًا في حياتنا، اليوم وغدًا وإلى الأبد».

كلّما فكّرت في هذه الكلمات، عبرت الفكرة في ذهني: طالما لديّ هانت، فأنا لديّ بو. كانا لا ينفصلان في الحياة ولن ينفصلا في الموت. حتّى الآن، كان بو حاضرًا بالنّسبة لي. كان أكثر من حاضر. كان الصّوت في رأسي. الكلمات الّتي ظللت أكرّرها، مرارًا وتكرارًا، هي كلماته. دعانا بو وهالي لتناول العشاء في إحدى الأمسيات في الخريف السّابق عندما أصبحت الآثار الجسديّة للسّرطان لا يمكن إنكارها. وصلت جيل على متن قطار من ويلمنجتون، بعد أن أنهت يومًا من التّدريس، وذهبت مباشرة إلى منزلهم بملابس عملها. بعد أن انتهينا من تناول الطّعام ، قالت: إنها تريد العودة إلى المنزل لارتداء ملابس مريحة. سألني بو: «هل يمكنك البقاء يا أبي؟ نريد أنا وهالي التّحدّث إليك».

طلب من هالي أن تأخذ ناتالي وهانتر إلى الطّابق العلويّ، وانتظر لحين عودتها. جلس الإثنان أمامي على طاولتهما الطّويلة الضّيقة. قال: «أبي، اسمعني. أعلم أنّ لا أحد في العالم كلّه يحبّني بقدر ما تحبّني أنت. أنا أعلم ذلك».

«لكن أبي، انظر إليّ. انظر إليّ. سأكون بخير بغضّ النّظر عمّا سيحصل. سأكون بخير يا أبي. أعدك». لقد صدمت عندما أدركت أنّ ابني بدأ يتصالح مع فكرة الموت. ثمّ انحنى على الطّاولة ووضع يده على ذراعي: «لكن

عليك أن تعدني يا أبي، أنّه بغضّ النّظر عمّا يحدث، ستكون بخير. عدني يا أبي بأنّك ستكون بخير. عِدني يا أبي».

قلت له: «سأكون بخير يا بو»، لكنّ ذلك لم يكن كافيًا بالنّسبة له.

قال: «لا يا أبي. أعطني وعدًا بصفتك بايدن. أعطني وعدًا يا أبي، عِدني، يا أبي.

ووعدته.

لم يتوقّع أحد في البيت الأبيض أن أعود إلى العمل على الفور. لقد بذل الرّئيس أوباما وأقرب مساعديه قصارى جهدهم ليشيروا إليّ سرًا وعلانيّة بأنّهم سيستمرّون في إعطائي المساحة والوقت اللّذين أحتاجهما للتّعافي. وقالت صديقة الرّئيس ومستشارته المقرّبة فاليري جاريت لأحد المراسلين: «لا ينتهي الأمر بانتهاء القدّاس- بل هذه هي البداية إلى حدّ ما. سيكون محاطًا بالحبّ والدّعم ويعطى كلّ ما يحتاجه. إنّها عملية طويلة من الحزن، وأعتقد أنّ جزءًا من الصّداقة يتمثّل في استيعاب ذلك، والتّواجد من أجله على المدى الطّويل». كان لديّ أيضًا فريق السّياسة الخارجيّة الرّائع الّذي واصل القيام بما كان يجب القيام به في غيابي. كان مستشاري للأمن القوميّ، كولين كال، يشرف على كلّ شيء، مع التّركيز بشكلٍ خاصّ على العراق. مايكل كاربنتر كان يتابع مع أوكرانيا. وخوان غونزاليس مع المثلّث الشّماليّ. كانت هناك فيكتوريا نولاند في وزارة الخارجيّة وتشارلي كوبتشان من موظفي البيت الأبيض في مجلس الأمن القوميّ يتعاملان مع روسيا؛ بريت ماكغورك مع العراق وسوريا وتركيا؛ جيفري بريسكوت مع الشّرق الأقصى؛ عاموس هوشستين يتولّى سياسات الطّاقة حول العالم. لقد تلقّيت دعمًا لا يصدّق، وكانوا سيتحمّلون المسؤوليّة بقدر ما كنت بحاجة إليهم. لكنّني لم أستطع المكوث في المنزل مع حزني. كنت أعرف أنّ عليّ أن

أكون منخرطًا في العمل.

قرّرت أن أحضر إلى المكتب بعد أربعة أيام من دفن بو لإعلام الرّئيس بأنّني مستعدّ للعودة إلى العمل. كنت بحاجة لأن أكون منشغلًا، حفاظًا على سلامة عقلي، كنت بحاجة لأن أبقى مشغولًا. كان الرّئيس قد عاد لتوّه من قمّة مجموعة السّبع في ألمانيا، حيث ضغط على المستشارة ميركل والقادة الأوروبيّين لمواصلة العقوبات الاقتصاديّة ضدّ روسيا، وحتّى توسيعها إلى أن يلتزم بوتين باتفاقيّة مينسك لوقف إطلاق النّار وينسحب من أوكرانيا. لقد قدّرت حقًا مدى الحزم الّذي دافع فيه الرّئيس عن موقفه. وأعلن المتحدّث باسم الرّئيس أنّ «روسيا رفضت بشكلٍ أساسٍ الالتزامات الّتي قطعتها على نفسها. إنّ فشل روسيا في الوفاء بهذه الالتزامات هو ما يؤدّي إلى عزلتها المتزايدة والتّكاليف المتزايدة المفروضة على اقتصادها». كان رئيس الوزراء ياتسينيوك يزور واشنطن في ذلك اليوم، وكنت بحاجة إلى أن أكون هناك لإيصال رسالة مفادها أنّنا نقف إلى جانب الشّعب الأوكرانيّ وحكومته، ولكنّ للتأكّد أيضًا من أنّه يفهم أنّه وبوروشينكو بحاجة إلى تسريع إصلاحات مكافحة الفساد، إذا كانوا يريدون مساعدة مستمرّة.

بعد يومين كان من المقرّر أن ألتقي برئيس مجلس النّوّاب العراقي سليم الجبوري، الزّعيم السّياسيّ لأهل السّنّة. وكان سقوط الرّمادي قد شكّل ضغوطًا شديدة على حكومة العبادي. ولكنّ الرّئيس أوباما عزّز التزامه تجاه الجبوري والعبادي. لقد أذن للتوّ بنشر محفوف بالمخاطر للمستشارين العسكريّين الأمريكيّين في قاعدة جويّة على بعد خمسة عشر ميلًا من الرّمادي، للمساعدة في حشد مقاتلي العشائر السّنّيّة وتدريبهم وتجهيزهم للهجوم المضادّ القادم. لذلك حرصت على أن يسمع منّي الجبوري الأهمّيّة الحاسمة للوحدة العراقيّة في مواجهة تهديد داعش المستمرّ.

بعد خمسة أيّام من اجتماع الجبوري، كان من المقرّر أن أستقبل رئيس

هندوراس خوان أورلاندو هيرنانديز في واشنطن، لأبيّن له أنّ إدارتنا لا تزال جادّة بشأن تقديم المساعدة إذا كانوا هم جادّين بشأن تنفيذ الإصلاحات الّتي اتّفقنا عليها في مدينة غواتيمالا في أوائل مارس. كنت بحاجة للعودة سريعًا إلى مواكبة كلّ شيء.

عندما عدت إلى المكتب يوم الأربعاء، 10 حزيران (يونيو)، شعرت أنّ بو كان يراقبني ويتحدّث معي. كان يقول: «أبي، لا تدعهم يرون ألمك، أبي. انهض. قدمًا تلو الأخرى. لا تتوقّف».

تناولت الغداء مع الرّئيس أوباما في ذلك اليوم الأوّل، قبل لقائي مع أرسيني ياتسينيوك مباشرة. لقد أصبح الرّئيس يعرفني جيّدًا. كان يعلم أنّ انخراطي بعمق في العمل سيساعدني في التّركيز على شيء آخر غير بو. لذلك لم يتطرّأ لغير العمل في ذلك اليوم، وقضينا الغداء بالكامل نتحدّث عن أهداف سياستنا الخارجيّة. لكن عندما أبلغته بما كنت أفعله أنا وفريقي في أوكرانيا والعراق والمثلّث الشمالي، أعتقد أنه فوجئ بمدى تفاعلي. طلب منّي الرّئيس أن أفكّر في مهامّ محدّدة أخرى أرغب في تولّيها خلال الثّمانية عشر شهرًا المتبقّية لنا في المنصب، وأيّ تحدّيات جديدة أرغب في مواجهتها. كنت أعلم أنّني أريد إنهاء ما بدأته في أوكرانيا والعراق والمثلّث الشّمالي، لكنّني لم أكن متأكّدًا تمامًا ممّا يحمله لي المستقبل القريب. لذا أخبرته أنّني سأعود إليه بالجواب.

كان هناك أكثر من سبعين ألف مذكّرة ورسائل تعزية في انتظاري في البيت الأبيض، إلى جانب ما يقرب من ألف بيان من مسؤولين حكوميّين وشخصيّات أجنبيّة ومعلّقين سياسيّين. كان الأصدقاء والزّملاء الأقرب إلى بو هم أصحاب الرّسائل المؤثّرة، ممّا يعني أنّها كانت مواسية ومؤلمة: لقد كان شرفًا لي أن أخدم إلى جانبه حيث كان يعمل بلا كلل للنّضال من أجل

الضعفاء وحماية الأطفال الأكثر هشاشة، أطفالنا... أضف إلى ذلك حماسه، وصدقه، وجدّيته، وحبّه غير المشروط للخدمة العامّة. إنّ من أصدق ما يمكن أن يقاس المرء به هو أنّه لم يخسر صديقًا قطّ.. هذا يخبرك بكلّ شيء عنه.. لقد كان بالفعل أبًا عظيمًا. لقد كان من الآباء الحاضرين مع أطفالهم.. كان بو حاضرًا في كلّ لعبة. وكان يعرف اسم كلّ طفل ويشجّعه بقوّة كما يشجّع ابنه ... كانت العائلة تأتي أوّلاً. كانت العائلة هي البداية والوسط والنّهاية بالنّسبة له.

روى أحد أصدقاء بو من المدرسة الابتدائيّة قصّة عندما صادفه قبل بضع سنوات، عندما كان بو وهالي والأطفال يعيشون معي أنا وجيل أثناء تجديد منزلهم. وتساءل الصّديق عن صعوبة العيش مع والديه مرّة أخرى. أوضح الصّديق أنّ: «بو قال كم كان رائعًا أن تعيش الأسرة بأكملها تحت سقفٍ واحد. كانت الحياة معًا كعائلة هي أهمّ شيء بالنّسبة له».

كانت هناك رسالتان منحتاني راحة حقيقيّة في الأيّام الأولى الّتي أعقبت وفاة بو. كانت إحداهما من إيفان رايان، وهي موظّفة سابقة لديّ. حيث أرسلت لي اقتباسًا من قصيدة، جاء فيها: «وقفت أشاهد بينما شقّ قاربٌ عباب البحر. لوّن الغروب أشرعته البيضاء بنورٍ ذهبيّ، وعندما اختفى عن الأنظار همس صوتٌ من جانبي،» لقد رحل». لم يكن الاختفاء نهاية، بل بداية أخرى، في مكانٍ غير معروف. «على الشّاطئ البعيد، اجتمعت ثلّة من الأصدقاء تراقب وتنتظر بأمل». وجدت نفسي أتخيّل نيليا وأخت بو الصّغيرة، نعومي، وأمّي وأبي يقفان على هذا الشّاطئ البعيد، جاهزين لاستقباله. «فجأة رأوا الشّراع الصّغير، وفي اللّحظة نفسها الّتي همس فيها رفيقي: «لقد رحل»، صعدت صيحة ترحيبٍ بفرح: «ها قد وصل».

أذهلتني بشكل خاصّ رسالة شخصيّة من أرملة تيدي كينيدي، فيكي. تزوّجت فيكي من عائلة فريدة في التّاريخ الأمريكي. تمتّع آل كينيدي

بإنجازات هائلة وعانوا من مآسٍ مدمّرة. يبدو أن تجربتهم تؤكّد اعتقاد والدي بأنّ القدر جزء من الحياة لا مفرّ منه، ولكن يحصل كلّ شخص وكلّ عائلة على نوعٍ من الرّصيد الصّفريّ في معادلة «الحظّ الجيّد-الحظّ السّيّئ» في دفتر الحسابات. كلّما كانت القمم أعلى، كانت القيعان أعمق. لقد أكّدت حياتي الخاصّة حكمته. كان آل كينيدي على مستوى مختلف تمامًا. كان والد تيدي، جو كينيدي الأب، قد حقّق نجاحًا باهرًا في كلّ الأعمال الّتي لمسها تقريبًا، وقد عاش ليرى أحد أبنائه يصبح رئيسًا للولايات المتّحدة. لكنّه دفن ثلاثة من أبنائه الأربعة، وابنته الغالية في حياته. في رسالتها الموجهة إليّ، اقتبست فيكي كينيدي من رسالة كتبها جو الأب إلى صديقٍ فقد ابنه، وهي رسالة قالت إنّ تيدي كان ينزوي ويقرأها في أسوأ أوقات حياته. كتب جو الأب إلى صديقه: «عندما يفارقك أحد أحبائك، فأنت تفكّر بما كان سيفعله ببضع سنوات إضافيّة. وتتساءل ما ستفعله أنت ببقيّة ما لديك. ثمّ ذات يوم ، نظرًا لوجود عالم تعيش فيه، تجد نفسك جزءًا منه، تحاول إنجاز شيء ما- شيء لم يكن لديه وقتٌ كافٍ للقيام به. وربما هذا هو السّبب وراء كلّ هذا. آمل ذلك.» وأنا آمل ذلك، أيضًا.

كنت أعرف ما كان سيفعله بو ببضع سنوات أخرى. كان سيواصل معركته ضدّ إساءة استخدام السّلطة، وخاصّة إساءة معاملة الأطفال. كان الأمر محوريًا بالنّسبة إليه، وكنت أنا وهانتر، وهالي، وآشلي، وجيل، مصمّمين على المضيّ قدمًا في هذا الجهد على شرفه. أنشأنا مؤسّسة بو بايدن لمواصلة عمله. أعطانا الهدف. وكنّا جميعًا بحاجة إلى هدف.

ربّما تفاجأ الرّئيس قليلًا في غدائنا بعد ستّة أيام. سألني مرّة أخرى عن المهامّ الّتي أريد أن أتولّاها خلال ما تبقّى من إدارتنا. لم أشأ الالتزام. سأل: «ماذا ستفعل بخصوص التّرشّح؟». أوضحت أنّني لم أتخلّ نهائيًا عن فكرة

التّرشّح للفوز بترشيح الحزب الدّيمقراطيّ للعام 2016. لم أحسم الأمر بعد، وكنت أعلم أنّني لن أكون في أيّ وضع يسمح لي باتّخاذ القرار لفترةٍ من الوقت. ثمّ وجدت نفسي أقول: «اسمعني، سيّدي الرّئيس، أتفهّم إن كنت قد قطعت عهدًا صريحًا لهيلاري وبيل كلينتون»، ولكنّني أكّدت لباراك أنّني إذا قرّرت التّرشّح، فسوف أتحاور مع هيلاري بشؤون خلافاتنا السّياسيّة فقط، وليس في مسائل تتعلّق بطباعها أو شخصيّتها والّتي يمكن أن تضعفها إذا فازت بالتّرشيح. قلت له: «أعدك». وتركنا الأمر عند هذا الحدّ.

كان اليوم التّالي هو الأكثر ازدحامًا منذ عودتي – جدول أعمال كامل. الإحاطة الاستخباراتيّة اليوميّة، يليها اجتماع للتّحضير لخطاب سألقيه في وزارة الخارجيّة الأسبوع المقبل حول ضرورة زيادة انخراطنا الاقتصاديّ مع الصّين، يليه إحاطة عن أمريكا الوسطى، يليها اجتماعي مع الرّئيس هيرناندیز. وبعد ذلك سأسافر إلى المنزل في ويلمنجتون كي نتمكّن أنا وجيل من قضاء ذكرى زواجنا معًا. لم نكن في حالة مزاجيّة للاحتفال، لكنّنا أردنا أن نكون معًا.

كتبت في مذكّراتي في ويلمنجتون في تلك اللّيلة: 17 (حزيران) يونيو. يوم جيّد لأنّني كنت مشغولًا وتمكّنت من الحصول على قسطٍ من الرّاحة. ما زلت لا أصدّق أنّ بو قد رحل. أشعر بوجوده بقدر ما كنت أشعر به عندما كان في العراق لمدّة عام. أعرف أنّني سأفقد عقلي إذا لم أتمكّن من الفصل بين الأمور. يمكنني سماعه يقول: «أبي، أنا بخير الآن. كلّ شيء جيّد. كلّ شيء على ما يرام، يا أبي».

كانت جيل محبطة في تلك اللّيلة. كان الصّيف عادةً هو وقتها المفضّل من السّنة، ولكن الآن لم تعد فيه أيّ متعة. أردت أن أكون قادرًا على تخفيف آلام جيل، لكنّني أدركت أنّه لا يوجد الكثير ممّا يمكنني فعله. كنت آمل،

ولكنّني لم أكن مقتنعًا على الإطلاق، بأنّ رحلتنا القادمة قد تساعد. كنّا على بعد أسبوع فقط من إجازة عائليّة إلى أحد مواقعنا المفضّلة على الشّاطئ، في ساوث كارولينا، وبدا الجميع متخوّفًا من الرّحلة. كان من الصّعب علينا أن نكون جميعًا معًا، في مكان يحبّه بو، لأوّل مرّة بدونه. لكنّني أكّدت أنّه في أعقاب خسارتنا، أصبح من المهمّ أكثر أن نستمرّ في القيام بالأشياء الّتي لطالما كانت تعني الكثير للعائلة. وأنّه لا يمكننا أن ندع تقاليدنا تتلاشى. وأنّ بو كان سيريد منّا القيام بالرّحلة. وكنت أعلم من التّجربة السّابقة أنّه، على الرّغم من صعوبة الأمر، كان من الأفضل خوضها بدلًا من تجنّبها. كنّا بحاجة إلى وقتٍ عائليّ حقيقيّ معًا. لذلك اتّفقنا على أن نجرّب قضاء أسبوعٍ على الشّاطئ في جزيرة كياوا. وأن تطير العائلة يوم الثّلاثاء، 23 حزيران (يونيو)، وأتبعها أنا بعد بضعة أيّام.

انتهت الفترة الّتي سبقت الرّحلة، والرّحلة نفسها بأن تكون سلسلة من الأحداث المؤثّرة أكثر ممّا كنت أتوقّع. في ليلة ذكرى زواجنا، قبل ستّة أيّام من الموعد المقرّر لمغادرة جيل، وردت أنباء عن مقتل تسعة أشخاص أبرياء في كنيسة سوداء في تشارلستون بولاية ساوث كارولينا. وكان من بين الضّحايا راعي كنيسة إيمانويل آمي، القسّ كليمنتا بينكني، وهو رجل سبق أن تعرّفت إليه. كان القسّ كليمنتا بينكني عضوًا في مجلس الشّيوخ عن الولاية، وقد ترك بصمته في سياسة ساوث كارولينا، وكنت قد قضيت وقتًا معه خلال المناسبات السّياسيّة في السّنوات القليلة الماضية. كان يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا فقط، أصغر من بو، ولديه زوجة وابنتان، تبلغان من العمر أحد عشر عامًا، وستّة أعوام.

كان القاتل رجلًا متعصّبًا أبيض يبلغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا. دخل الكنيسة في ذلك المساء، وقبل دعوةً للانضمام إلى دراسة الكتاب المقدّس ليلة الأربعاء، حيث جلس في نصف السّاعة الأخيرة من الاجتماع،

ثمّ قتل تسعةً من الاثني عشر شخصًا في المجموعة. أكبر ضحيّة كانت في السّابعة والثّمانين من عمرها، وأصغرها في السّادسة والعشرين. وكان من بين أهداف القاتل المعلنة إشعال حربٍ عرقيّة. أدليت أنا وجيل ببيانٍ عامّ في تلك اللّيلة، وبدأت باتّخاذ التّرتيبات للاتّصال بعائلات الضّحايا لتقديم تعازينا. وبعد ذلك بدأنا بتجهيز أنفسنا للحدث الإضافيّ في جدولنا في الأسبوع التّالي. سنقوم بالرّحلة من كياوا إلى تشارلستون لحضور الحفل التّأبينيّ العامّ للقسّ بينكني وضحايا إيمانويل الآخرين، ولنفعل ما في وسعنا لتوفير قدرٍ بسيط من الرّاحة لعائلاتهم وأصدقائهم.

قدّمت لجيل بعض الهدايا الصّغيرة في اللّيلة التّالية في محاولة لرفع معنويّاتها، لكن يبدو أنّ تأثيرها جاء معاكسًا. قالت: إنها لا تريد العشاء. تناولت فنجانًا من الحساء وذهبت إلى الفراش في الثّامنة والنّصف، بينما كان لا يزال هناك ضوء في الخارج. عندما صعدَت كنت أتحدّث مع هانتر. حاول هانت جاهدًا أن يجعلني أواصل تقدّمي نحو الهدف الكبير التّالي. فهو يعرف أمنيّات بو أفضل منّي، لكنّه أيضًا يعرفني.

قال لي: «إذا تراءى الله لك غدًا، يا أبي، وقال: «الفوز في السّباق الرئاسيّ من نصيبك، لكن عليك أن تقرّر الآن، أنا أعلم أنّك ستقول لا.»

قلت لهانتر: «أعتقد من كلّ قلبي أنّنا إذا خضنا السّباق للرّئاسة فلدينا حقًا فرصة جيّدة للفوز». وتابع هانتر يذكّرني بأنّ عائلتنا، سواء كانت محطّمة أم لا، ستصبح أقرب وأقوى تحت ضغط الحملة الرّئاسيّة.

كلانا يعلم أنّ أسرتنا ظلّت دائمًا في أفضل حالاتها عندما كان لدينا هدفٌ واضحٌ يجمعنا، خاصّة عندما واجهنا احتمالات ضئيلة. لكنّ الخسارة النّاجمة عن فقدان بو جعلت من هذا السّباق ظرفًا جديدًا تمامًا. لم أكن متأكّدًا من أنّني جاهزٌ عاطفيًا ومستعدٌ للمهمّة الّتي ستكون مهمّة هائلة حتّى في أفضل الظّروف.

كنّا في كياوا بعد السّاعة العاشرة من صباح يوم 26 حزيران (يونيو)، نستعدّ للذّهاب إلى حفل التّأبين في تشارلستون، عندما انتشر الخبر، وجاء في تقرير سي إن إن من خارج المحكمة مباشرة: «يوم تاريخيّ هنا في المحكمة العليا. ربّما يمكنكم سماع دعاة حقوق المثليّين يهتفون عن يميني لهذا القرار، الّذي أعلنه القاضي كينيدي، قائلًا إن الحقّ في الزّواج هو حقٌّ أساسيٌّ ولا يمكن استبعاد المثليّين والمثليّات عن هذا الحقّ. في هذا الحكم المتحرّر للقاضي كينيدي، يقول: «الحقّ في الزّواج هو حقّ أساسيّ»، ولا يجوز حرمان الأزواج من الجنس نفسه من الحرّيّة، أو من هذا الحقّ في الزّواج. لذا مرّة أخرى، يعدّ إقرار هذا الزّواج للمثليّين حقٌّ دستوريٌّ على مستوى البلاد. هذه قضيّة من أعظم قضايا الحقوق المدنيّة في عصرنا، وهذا ما كان المدافعون عن حقوق المثليّين يأملونه منذ عقود».

اتّخذ القرار بخمسة أصوات مقابل أربعة. القاضي أنتوني كينيدي، الّذي أدّى اليمين الدّستوريّة خلال السّنة الأخيرة من رئاسة رونالد ريغان، لم يكن الصّوت المرجّح فحسب، بل هو الّذي شكّل أيضًا رأي الأغلبيّة في القرار التّاريخيّ. لقد شعرت بفخر حقيقيّ بالحكم، ويرجع ذلك جزئيًا إلى أنني كنت رئيس اللّجنة القضائيّة الّتي ترأّست جلسات الاستماع لإقرار تعيين كينيدي. أنتوني كينيدي لم يكن الخيار الأوّل لريغان. فقد جرى ترشيحه فقط بعد أن كشفت جلسات الاستماع لإقرار اختيار ريجان الأصليّ، روبرت بورك، أنّ بورك كان ضيّق الأفق جدًا في قراءته لحقوق الخصوصيّة الأساسيّة الّتي يوفّرها الدّستور لدرجة أنّ مجلس الشّيوخ رفضه، بنتيجة 58 صوتًا مقابل 42. وشملت أصوات الرّفض ستّة من حزب ريغان نفسه. لقد عملت بجدّ في تلك الجلسة لأكون عادلًا مع بورك، الّذي كان فقيهًا متميّزًا، ورجلًا ذكيًا بشكلٍ ملحوظ. لكنّني عملت بجدّ أيضًا لإظهار

أن آراء القاضي بورك وسجلّه في القضاء يتعارضان مع نظرة الأمريكيّين إلى دستورنا. يعتقد القاضي بورك أنّه لا توجد حقوق فرديّة في الدّستور لم تكن مكتوبة حرفيًا في الوثيقة نفسها. ولكنّ الدّستور لم يتحدّث صراحةً عن الحقّ في الخصوصيّة، أو الحقّ في استخدام وسائل منع الحمل، أو حقّ المرأة في أن تُعامل على قدم المساواة بموجب القانون، أو الحقّ في الزّواج من شخص من الجنس نفسه، لذا فإنّ الأمر يتطلّب أن تمنح الهيئة التّشريعيّة تلك الحقوق. ويرى بورك أنّ على المحاكم أن تذعن للعمليّة السّياسيّة في جميع هذه المسائل. وأن يتّخذ القرار بالأغلبيّة.

بإمكاني القول من شهادة أنتوني كينيدي في جلسة الاستماع الخاصّة بترشيحه أنّه ستكون لديه قراءة أوسع للدّستور ورؤية أكثر شمولًا للحقوق الفرديّة والمساواة بموجب القانون، وقد أظهر التّاريخ أنّ هذه هي الحال. يعدّ حصوله على رأي الأغلبيّة في قضية زواج المثليّين لعام 2015 أهمّ بصمة له على مدى ثلاثة عقود قضاها في المحكمة.

كانت المعركة من أجل المساواة في الزّواج معركةً طويلةً وبطيئةً تتطلّب شجاعةً أخلاقيّة وجسديّة لا تصدّق من جانب الرّجال والنّساء المثليّين الشّجعان حقًا. مجرّد الإفصاح عن هويّتهم كان عملًا شجاعًا حتّى وقتٍ ليس ببعيد. إنّ المثليّين والمثليّات الّذين أعلنوا عن مثليّتهم، ودافعوا وطرحوا قضيّتهم من أجل المساواة في المعاملة والحقوق، خاطروا بالكثير. لقد طالبوا بحقوقهم في مواجهة الكراهيّة المعلنة في بعض الأوساط، ممّا جعلهم فريسة للإساءة الجسديّة والعاطفيّة. أتذكّر أنّه خلال كارثة الإيدز المروّعة، ادّعى العديد من رجال الدّين الأصوليّين المحافظين والعديد من المسؤولين اليمينيّين بقسوة أنّ المرض الّذي يقتل الآلاف من الشّباب المثليّين كلّ عام جاء عقابًا من الله. لكنّ العقبة الأصعب الّتي واجهها المثليّون والمثليّات ربّما لم تكن الكراهية؛ بل كانت الجهل لدى معظم أقرانهم. لقد استغرق الأمر

وقتًا طويلًا حتّى بدأ الأمريكيّون في فهم الحقيقة البسيطة والواضحة وهي أنّ الرّجال والنّساء المثليّين هم أناس طيّبون ولائقون ومشرّفون إلى حدّ كبير، يريدون ويستحقّون الحقوق نفسها كأيّ شخصٍ آخر. لم أكن أدرك تمامًا مدى انتشار الصّعوبة الّتي واجهوها حتّى إحدى اللّيالي في التّسعينيات. كنت عضوًا في مجلس الشّيوخ آنذاك، وركبت قطارًا للعودة إلى ويلمنجتون بعد الاستماع إلى لجنة قضائيّة عن المثليّين في الجيش. كان أحد الرّجال الّذين يخدمون بار الوجبات الخفيفة في قطار أمتراك، وهو رجل عرفته منذ سنوات، يتابع وقائع المرافعات وكان محبطًا حقًّا بسبب بعض الكلام الّذي سمعه من حشدٍ مناهضٍ للشّذوذ. قال لي: «أتعلم أيها السيناتور؟ أنا شاذّ!»

قلت: «لا، لم أكن أعرف ذلك».

قال لي: «لديّ ولدان، أحدهما مثليّ». «وأنت تعرف ما الّذي يستفزّني بشأن هؤلاء الأشخاص؟ يعتقدون أنّ هذا «سلوك». يعتقدون أنّنا استيقظنا ذات صباح وقلنا: «يا إلهي، أليس من الرّائع أن أكون مثليًا؟ أليس من الرائع أن أكون مثليًا؟ يا إلهي، هذا سيجعل حياتي أسهل. ألن يكون رائعًا. أعتقد أنّني سأكون مثليًّا».

أتذكّر أيضًا مشاهدة زميلٍ في مجلس الشّيوخ يكافح لفهم شهادة جيفري ليفي، المدير التّنفيذيّ لفريق العمل الوطنيّ للمثليّين والمثليّات، الّذي جاء للإدلاء بشهادته في جلسة استماع اللّجنة القضائيّة في العام 1986. كان ليفي من بين آخر الواصلين الكثر الّذين يمثّلون المجموعات الخارجيّة والّذين جاؤوا للإدلاء بمواقفهم في نهاية جلسات الاستماع لإقرار تعيين ويليام رينكويست لمنصب رئيس المحكمة العليا.

بحلول الوقت الّذي بدأ فيه ليفي بيانه، كنت أنا وستروم ثورموند العضوين الوحيدين اللّذين بقيا في الجلسة – والعضوين الوحيدين هناك عندما قدّم الشّاهد الإحصاء بأنّ حوالي 10 في المائة من السّكان الأمريكيّين

هم من المثليّين، ما يعني حوالي ثلاثين مليون أمريكيّ. كان ستروم مذهولًا حقًا. أعتقد أنّ السّيناتور البالغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، والّذي كان في منصبٍ انتخابيّ منذ العام 1933، كان يعتقد حقًا أنّه لا يعرف أبدًا أيّ شخصٍ مثليّ. قال لي ستروم خلال تصريح ليفي: «جو، هل هذا صحيح؟» همست بهدوء لستروم أنّ بعض الخبراء رأوا فعلًا أنّ ما يصل إلى 10 في المائة من السّكّان هم من المثليّين.

التفت ستروم إلى الشّاهد الشّابّ الفصيح اللّسان الّذي يرتدي ملابس محافظة. وسأله: «هل أنت متأكّد من أنّ هذا الرّقم صحيح؟». فاستشهد ليفي بالإحصاءات الّتي طوّرها قبل جيل من الزّمان الباحث الشّهير في قضايا الجنس ألفريد كينزي. واجه ستروم صعوبة في تقبّل هذه الحقيقة وجال في سلسلة من الأسئلة لم تكن بسوء نيّة، ولكنّها مع ذلك كانت جارحة.

هل تؤيّد منظّمتك أيّ نوعٍ من العلاج للمثليّين والمثليّات لمعرفة ما إذا كان بالإمكان تغييرهم وجعلهم طبيعيّين مثل الآخرين؟»

«في الواقع أيّها السّيناتور، نحن نعتبر أنفسنا طبيعيّين جدًا، شكرًا لك. نحن فقط نختلف عن الآخرين. والجميل في المجتمع الأمريكي هو أنّنا، في نهاية المطاف، نقبل جميع الاختلافات في السّلوك ووجهات النّظر – وكلّ المجتمع الطّبيّ المعنيّ لم يعد يعتبر المثليّة الجنسيّة مرضًا، بل مجرّد اختلاف في السّلوك القياسيّ».

«أنت لا تعتقد أنّ المثليّين والمثليّات قابلون للتّغيير، أو لا تعتقد أنّ بإمكانهم – »

«أيها السّيناتور، ليس أكثر من–»

«– ألا تعتقد أنّ بالإمكان تحويلهم ليكونوا مثل الأشخاص الآخرين، بطريقةٍ ما؟»

«نحن نعتقد أنّنا مثل الآخرين، باستثناء أمر واحد صغير. ولسوء الحظ،

فإنّ بقية المجتمع هم الّذين يجعلون من هذا الاستثناء أمرًا جللًا».

«استثناء صغير؟ إنّه استثناء كبير جدًا، أليس كذلك؟»

«للأسف، المجتمع يجعل منه استثناءً كبيرًا».

وضع ستروم يده على ميكروفونه والتفت إليّ قائلًا: «أعتقد أنّ عليّ أن أذهب، أليس كذلك؟»

بالفعل، اعتبارًا من 26 حزيران (يونيو) 2015، لم يعد قانون البلاد ينصّ على استثناءات في الاعتراف بالزّواج. كتب كينيدي في الحكم الّذي قرأه بصوت عالٍ في المحكمة العليا ذلك الصّباح: «عند تكوين اتّحاد الزّوجيّة، يصبح الشّخصان أعظم ممّا كانا عليه من قبل. وكما يوضح بعض مقدّمي الالتماسات في هذه القضايا، فإنّ الزّواج يجسّد حبًا قد يدوم حتّى ما بعد الموت. أملهم ألّا يُحكم عليهم بالعيش في عزلة، مستبعدين من واحدة من أقدم مؤسّسات الحضارة. يطلبون المساواة في الكرامة في نظر القانون. والدّستور يمنحهم هذا الحقّ».

لا أستطيع أن أدّعي أنّني خاطرت كثيرًا في الدّفاع عن المساواة لمجتمع المثليّين، لكنّني شعرت بالفخر الشّديد في ذلك اليوم لأنّني لعبت دورًا مّا في قرار زواج المثليّين. فكّرت في بو، الّذي كان مدّعيًا عامًا لولاية ديلاوير وقد حرص على حضور حفل زفاف من الجنس نفسه في 1 تموز (يوليو) 2013، وهو اليوم الّذي جرى فيه تطبيق المساواة في الزّواج في ولايتنا. كما قدّم مذكّرة قانونيّة تدعم المساواة في الزّواج في قضيّة أمام الدّائرة التّاسعة في خريف العام 2013، عندما كان ينهي للتوّ جولته الأولى من العلاج الإشعاعيّ والكيميائيّ، وبعد بضعة أشهر أعلن أنّ ولاية ديلاوير ستعترف بزواج المثليّين في ولاية يوتا في إطارٍ ضيّق من الزّمن عندما كان ذلك قانونيًا هناك. قال: «المساواة في الزّواج هي القانون في ولاية ديلاوير، وأعتقد بشدّة أنّ الأفراد خارج حدود ولايتنا يجب أن يتمتّعوا بالقدر نفسه

من الحريّة في اختيار من يحبّون، ومن يقضون حياتهم معهم.»

فكّرت أيضًا في والدي ذلك الصّباح في كياوا، وأحد أعظم دروس الحياة الّتي علّمني إيّاها، عندما كنت مراهقًا. كنّا عند إشارة مرور في وسط مدينة ويلمنجتون، لمحنا أنا وأبي رجلين في زاوية قريبة. تعانقا وتبادلا القبلات، ثمّ انطلق كلّ باتّجاه لمواصلة نهاره - كما افترضت أنّ الآلاف من الأزواج والزّوجات في جميع أنحاء المدينة يفعلون ذلك كلّ صباح، استدرت في الحال، ونظرت إلى والدي للحصول على تفسير. قال لي والدي: «جو، الأمر بسيط. إنّهما يحبّان بعضهما بعضًا».

تحدّث باراك في حفل تأبين في تشارلستون في وقتٍ لاحقٍ من بعد ظهر ذلك اليوم، وفعل بذلك بشكلٍ رائع. لست متأكّدًا من أنّني رأيته يلقي خطابًا أفضل. ركّزت اهتمامي الخاصّ على احتضان عائلات الضّحايا الّذين كنت قد تحدّثت إليهم، لأواسيهم. وفي الجنازة، بعد مقابلة العائلات شخصيًا، قررت العودة إلى تشارلستون بعد يومين لحضور قدّاس الأحد المعتاد في كنيسة إيمانويل الأسقفيّة الميثوديّة الأفريقيّة. لم أرغب في لفت الانتباه إلى حضوري، لذلك اتّصلنا بصديقٍ قديم وداعم منذ زمن طويل، القسّ جوزيف داربي، رئيس الكنائس الأسقفيّة الميثوديّة الأفريقيّة في منطقة قريبة. نصحنا القسّ داربي حول كيفيّة التّرتيب مع راعي إيمانويل المؤقّت، لكي أذهب بهدوء ودون لفت نظر. فهم القسّ داربي سبب رغبتي في الحضور إلى هناك دون الحاجة إلى إخباره. كانت هذه الأبرشيّة تتألّم وتحتاج للمواساة، وكنت أعلم أنّ مجيئي بعد وفاة ابني بوقتٍ قصير قد يكون مصدر قوّة لعائلة إيمانويل. كنت أعلم أيضًا أنّه سيعطيني إحساسًا بالعزاء، أن أكون مصدرًا للرّاحة لهؤلاء الأشخاص الّذين يعانون من الألم، لطالما أشعرني فعل المواساة بالقليل من التّحسّن، وكنت متعطّشًا إلى الشّعور بالتّحسّن.

أكثر من ذلك، على ما أعتقد، أردت حقًا أن أشعر بالاحتضان الاستثنائيّ لكنيسة إيمانويل الأسقفيّة الميثوديّة الأفريقيّة وأبناء أبرشيّتها. كنت في حاجة إلى قوّتها. كنت في حاجة إلى بركتها. من يقرأ عن تاريخ تلك الكنيسة وآثار مأساتها الجديدة المروّعة يفهم السبب. كانت كنيسة إيمانويل ملاذًا لرعيّتها وحصنًا ضدّ الاسترقاق والتّمييز العنصريّ لما يقرب من مائتيّ عام. كانت الكنيسة تكافح من أجل الحفاظ على المجتمع الأصغر سنًّا، وفقدت عضويّتها في العام 2015، ولكنّها لم تضلّ طريقها. كان أبناء رعيّة إيمانويل الّذين قرأت عنهم، وأبناء الرّعيّة الّذين قابلتهم في الحفل التّأبينيّ قبل يومين، لا تظهر في مشاعرهم آثار للضّغينة والارتياب الّتي يتوقّعها المرء، من أناس ظلّوا يكافحون طويلًا ضدّ الآخرين الّذين كانوا مصمّمين على كرههم. لقد أذهلتني قدرتهم على التّسامح، حتّى بالنّسبة لقاتل أطلق النّار بلا رحمة وقتل تسعة من أفضلهم وأحبّهم. ذهبت ابنة أحد الضّحايا إلى جلسة الاستماع للتّحدّث مع قاتل والدتها. قالت نادين كوليير عن والدتها، بينما القاتل يحدّق بهدوء: «لن أتمكّن من التّحدّث معها مرّة أخرى أبدًا. لن أتمكّن أبدًا من معانقتها مرة أخرى. لكنّني أسامحك وأشفق على روحك. آذيتني. لقد آذيت الكثير من النّاس. سامحك الله. وأنا أسامحك».

والدة أصغر الضّحايا كانت تواجه صعوبة في التّسامح. كانت فيليسيا ساندرز هناك في قاعة الكنيسة، ترتعش من الخوف، وسمعت كلمات ابنها الأخيرة. قال للقاتل: «ليس عليك أن تفعل هذا. نحن لا نضمر لك أيّ شرّ».

قال المسلّح، قبل أن يطلق النّار على ابن فيليسيا البالغ من العمر ستّة وعشرين عامًا: «عليّ أن أفعل ذلك، يجب أن أنهي مهمّتي». اعترفت فيليسيا ساندرز بأنّها تكافح. قالت: «بالنّسبة لي، المسامحة هي مسار كامل. أحيانًا يجب أن يصلني إلهام من الله لمسامحة النّاس على الأشياء الصّغيرة. ولكن عندما يتعلّق الأمر بشيء بهذا الحجم، ستكون المسامحة بالنّسبة لي مسارًا

كاملًا». بالنّسبة لي، كان هناك سماح لا يصدّق في جهودها.

أراد هانتر أن يأتي معي، لذلك سافرنا في صباح يوم الأحد هذا وقمنا بتثبيت شرائط إيمانويل التّسعة على طيّة صدر السّترة في طريقنا إلى الكنيسة. كانت كنيسة إيمانويل تفيض بالزّائرين في ذلك اليوم، وعندما دعا القسّ نورفيل جوف الأب، الّذي حلّ محلّ القسّ بينكني، جميع الزّوار إلى الوقوف، فوجئت بعدد المصلّين الّذين وقفوا على أقدامهم. جاء النّاس من جميع أنحاء البلاد لمشاركة زملائهم وإظهار دعمهم لعائلة الكنيسة. كان عدد الزّائرين البيض مساويًا لعدد الزّائرين السّود في الكنيسة ذلك الصّباح. مطلق النّار لم يحرّض على حربٍ عرقيّة. على العكس تمامًا: لقد حرّض على تدفّقٍ مذهل من الدّعم لكنيسة إيمانويل بين البيض والسّود.

طلب منّي القسّ جوف أن أقول بضع كلمات في ذلك الصّباح. قلت لهم: «أتمنّى أن أقول شيئًا من شأنه أن يخفّف آلام العائلات والكنيسة. لكنّني أعلم من التّجربة، وقد جرى تذكيري بها مرّة أخرى قبل تسعة وعشرين يومًا، أنّه ليس هناك كلمات يمكن أن تصلح القلب المكسور. وليس هناك موسيقى يمكن أن تملأ الفراغ الهائل... وأحيانًا، كما يعلم جميع المبشّرين هنا، أحيانًا حتّى الإيمان يمكن أن يغادرك لثانية واحدة فقط. أحيانًا تشكّ. هناك تعبيرٌ مشهورٌ يقول: إنّ الإيمان يظهر بشكلٍ أفضل في الظّلام، وبالنّسبة للعائلات التّسع، هذا وقتٌ مظلم، مظلمٌ للغاية».

لم أكن قد خطّطت لإلقاء أيّ خطاب، ولكن كنت قد كتبت بعض الملاحظات فقط تحسّبًا، وكنت جاهزًا مع ترنيمةٍ من سفر المزامير أمدّتني بالرّاحة :

يَا رَبُّ، فِي السَّمَاوَاتِ رَحْمَتُكَ. أَمَانَتُكَ إِلَى الْغَمَامِ.
عَدْلُكَ مِثْل جِبَالِ اللهِ، وَأَحْكَامُكَ لُجَّةٌ عَظِيمَةٌ.
النَّاس وَالْبَهَائِم تُخَلِّصُ يَا رَبُّ.

مَا أَكْرَمَ رَحْمَتَكَ يَاالله!
فَبَنُو الْبَشَرِ فِي ظِلِّ جَنَاحَيْكَ يَحْتَمُونَ.

أدعو الله أن تجد العائلات ملجأً في ظلّ جناحيه، وأدعو الله أن يساعد الحبّ الّذي أظهرتموه لهم جميعًا، والحبّ الّذي أظهره النّاس لي في جميع أنحاء البلاد، في إصلاح القلوب المحطّمة لعائلاتهم وعائلتي».

عندما أنهى القسّ جوف القدّاس، أراد القسّ داربي وزوجته وعمدة تشارلستون، جو رايلي، اصطحابي في جولةٍ قصيرة. كانت الشّمس مرتفعة، وتسطع على واجهة الكنيسة البيضاء عندما خرجنا، متلألئةً على نصبٍ تذكاريّ مزيّنٍ بالورود والبطاقات الّتي قدّمها النّاس في الأيّام الّتي تلت إطلاق النّار. أمضينا بعض الوقت في الخارج، ننظر إلى موكب التّعاطف المستمرّ. كنت على وشك المغادرة عندما أمسك بي العمدة رايلي، وقال: إنّ هناك شيئًا آخر يريدني أن أراه، وقادنا على طول الجهة الجانبيّة للكنيسة نحو المدخل السّفليّ، نزولًا ستّ درجات باتّجاه مكتب كليمنتا بينكني. كانت زوجة القسّ وابنته البالغة من العمر ستّ سنوات قد اختبأتا في ذلك المكتب أثناء المذبحة. إلى اليمين وعلى بعد خمسة عشر أو عشرين قدمًا، استطعت أن أرى قاعة الأنشطة الكبيرة حيث مجموعة دراسة الكتاب المقدّس مجتمعة. قُتل تسعة أشخاص طيّبون في هذا الطّابق، أسفل المقاعد مباشرةً، قبل أحد عشر يومًا فقط، لكنّ هذه الرعيّة صمدت. كان أعضاء الكنيسة قد ملأوا ثقوب الرّصاص بالمعجون وواصلوا دراسة الكتاب المقدّس ليلة الأربعاء المعتادة دون أن يفوتهم أسبوعٌ واحد. ظهر مائةٌ وخمسون شخصًا في حصّة الكتاب المقدّس يوم الأربعاء الأوّل بعد المذبحة. قال القسّ جوف للعالم: «هذا المكان ملكٌ لله».

كانت المشاعر تتصاعد في رأسي بينما كنت أمشي. كان لدي شعورٌ

غامرٌ بالامتنان لأبناء رعيّة إيمانويل وجميع الأشخاص الّذين جاءوا لدعمهم أو أرسلوا الأموال والصّلاة. كنت مقتنعًا بأن إظهار الدّعم العامّ لإيمانويل، من شأنه أن يشجّع القادة السّياسيّين في ساوث كارولينا على التّقدّم ومضاهاة شجاعة هؤلاء الأشخاص وإنسانيّتهم. لقد اعتقدت حقًّا أنّ بعض الخير يمكن أن يأتي من هذه المأساة، وشعرت بالارتياح لرؤية السّياسيّين في كلا الحزبين في المجلس التّشريعي للولاية يتحدّثون بالفعل عن إزالة أحد الرّموز الأكثر إيذاءً للسّود الجنوبيّين من مجلسهم التّشريعيّ. ألا وهو علم الكونفدراليّة. قال السّناتور الجمهوريّ بول ثورموند، نجل ستروم ثورموند، الّذي كان يمارس التّمييز العنصريّ في السّابق: «وجدت نفسي أحاول الدّفاع عن علم الكونفدراليّة». «كيف تدافع عنها؟ أنا بصراحة لم أستطع».

جعلني رئيس البلديّة رايلي أواصل السّير إلى مكتب القسّ بينكني. فجأة استوقفتني صورة على جدار بينكني، كانت حيث وضعها بالضّبط. صورة للقسّ وأنا معًا، قبل سبعة أشهر، عندما ساعد في تنظيم حدثٍ لحشد رجال الدّين المحليّين قبل انتخابات التّجديد النّصفيّ للرّئاسة للعام 2014. كنّا نبتسم في ذلك اليوم. كليمنتا بينكني كان بصدد القيام بالكثير في آخر لقاءٍ لنا. أمّا الآن فقد رحل.

استيقظت في وقتٍ مبكرٍ من صباح اليوم التّالي وقرّرت الخروج لركوب الدّراجة على الشّاطئ الرّمليّ الصّلب. كان الطّقس شبه مثاليّ، كما كان طوال رحلتنا إلى ساوث كارولينا – ظهرت سحبٌ متناثرة في بعض الأحيان ولكنّها مرّت مع الرّيح. هبّ نسيمٌ لطيفٌ على وجهي بينما رحت أركب باتّجاه الشاطئ، وراء خطّ المنازل الخاصّة، ثمّ خلف نادي «أوشن كورس» وعلى طول الطّريق حتّى نهاية مسار الدّرّاجات الجيّد، حيث أصبحت الرّمال طريّة، وبدأ خطّ الأشجار يقترب من الماء. كان عناصر الأمن الخاصّ بعيدًا

ورائي، يتبعونني في العربات الخاصّة بالرّمال. لم يكن هناك أيّ شخص آخر بالجوار، وفجأة تذكّرت الرّكوب إلى هذا المكان بالذّات مع بو في آخر مرّة كان معنا هنا. قال ذلك اليوم: «أبي. دعنا نتوقّف ونجلس هنا». وهكذا جلسنا، نحن الاثنين، نستنشق الهواء فحسب. فقال: «انظر، أبي، أليس هذا رائعًا؟ أليس هذا جميلًا؟»

شعرت وكأنّي أسمعه يتحدّث معي مجدّدًا. أبي، دعنا نتوقّف ونجلس. نزلت عن درّاجتي وشعرت وكأنّني أقف عند حافّة المعمورة- لا شيء سوى المحيط والشّاطئ والغابات. كان ذلك رائعًا. غمرتني المشاعر فجأة. وشعرت بضيقٍ في حلقي، وبدأ صدري يضيق. أدرت ظهري إلى عناصر الأمن، ونظرت إلى اتّساع المحيط من جانب وظلام الغابة من الجانب الآخر، وجلست على الرّمال، أبكي.

الفصل الحادي عشر

ترشّح يا جو، ترشّح

نُشر مقال في صحيفة وول ستريت جورنال في آخر يومٍ لنا في ساوث كارولينا. تحت عنوان: «هل سيترشّح؟ تصاعد التّكهّنات بشأن بايدن». كما نقلت الصّحيفة عن أحد الأصدقاء القدامى والمؤيّدين السّياسيّين قوله: «ليس سرًا أنّ بو أراده أن يترشّح، إذا فعل ما أراده بو أن يفعل، فسوف يترشّح». لم تحظ القصّة بالكثير من الاهتمام في الصّحافة، الأمر الّذي كنت ممتنًا له، لأنّني كنت أعاني بالفعل. في أعقاب وفاة بو مباشرة، كان مجرّد التّفكير بالتّرشّح للرّئاسة يفوق طاقتي. «انتهى كلّ شيء تحدّثنا عنه»، هذا ما قلته لرئيس الموظّفين، ستيف ريتشيتي، الّذي كان يشرف على تخطيط حملتي جنبًا إلى جنب مع مايك دونيلون.

كان التّرشّح للفوز بترشيح الحزب الدّيمقراطيّ مرتبطًا بوضع بو. كان كلّ شيء مقيّدًا بالعائلة بأكملها. قبل أن يمرض، كان بو يشعر بقوّة أنّ عليّ أن أترشّح، وكذلك هانت. كانت جيل وآشلي داعمتين جدًّا. كنّا نعلم جميعًا أنّ وضع البلاد على المحكّ، واعتقدنا جميعًا أنّني مؤهّل أكثر من غيري لإنهاء المهمّة الّتي بدأتها أنا وباراك. لو لم يمرض بو أبدًا، لكنت قد ترشّحت بالفعل. كنّا سنخوض هذا الأمر معًا، وبحماس. كان بو سيقول: «تذكّر، يا أبي. القاعدة الأمّ. القاعدة الأمّ.

كانت فكرة القيام بذلك بدونه مؤلمة. ولكن مع مرور الأيّام، بدأت

فكرة عدم التَرشّح تبدو وكأنها خذلته، وكأنّها خذلت الجميع. لا يزال هانت يعتقد أنّ التَرشّح سيعطينا هدفًا - شيئًا كبيرًا للتَركيز عليه قد يساعدنا في التَعامل مع حزننا العميق. اعتقدت جيل أنّ علينا الاستمرار في النّظر في هذا الاحتمال. كنت أفكّر أحيانًا في الشّجاعة الّتي أظهرها بو في معركته مع خصمٍ يكاد يكون من المؤكّد أنّه لا يهزم. قال أحد الأطباء في أندرسون: «خسر بو معركته، لكنّه لم يهزم أبدًا». أردت أن أكون قادرًا على استجماع شجاعتي للارتقاء إلى مستوى بو. لكنّني لم أكن متأكدًّا ممّا إذا كنت سأتمكّن من العثور على الطّاقة النفسيّة، وعرفت من التّجربة السّابقة أنّ الحزن هو عمليّة لا تخضع لأيّ برنامج أو جدولٍ زمنيّ. سأكون جاهزًا عندما أكون جاهزًا، وفي حال كنت جاهزًا، وليس قبل ذلك. لم تكن لديّ فكرة متى سيكون ذلك.

ولكنّني كنت أعلم أيضًا أنّه إذا كانت هناك أيّ فرصة بالنّسبة لي للتَرشّح، فيجب النّظر في الآليّات المعقّدة لإطلاق الحملة. لذلك طلبت من مايك وستيف قضاء بعض الوقت خارج وظائفهما اليوميّة المعتادة للقيام بتحليلٍ جادّ: هل ما زال هناك سبيل؟ هل يمكن بالفعل أن تكون لدينا حملة جاهزة في الوقت المناسب للفوز؟ لم يستغرق الأمر منهم الكثير من الوقت لإعادة العمليّة. الحقيقة أنّنا بدأنا الحديث بجديّة عن السّباق الرّئاسيّ للعام 2016 في صيف العام 2013. عندما أوصلني ستيف إلى محطّة القطار لقضاء عطلة آب (أغسطس) في ذلك العام، كنّا قد وضعنا بالفعل رسالة وخطّة للحملة، وكنّا بصدد البدء بتنفيذها. ولكن بعد بضعة أيّام فقط، وجدنا أنفسنا أنا وجيل وجميع أفراد الأسرة في مركز ام دي أندرسون للسّرطان نحاول استيعاب أخبار تشخيص بو، وقمنا بتعليق كلّ شيء.

على الفور بدأ مايك وستيف العمل بشكلٍ سريع، وبحلول الأسبوع الثّاني من شهر تموز (يوليو)، بعد التّشاور مع مستشارين آخرين، قاموا بتقييمٍ

جادَ للوضع الحاليّ للسّباق الرّئاسيّ وما إذا كان لا يزال هناك فرصة لي. عقدنا سلسلة من الاجتماعات في الأوقات الفارغة القليلة في جدول أعمالي الرّسميّ على مدى ثلاثة أيّام لمناقشة ما إذا كان ذلك معقولًا أم لا. كانت المجموعة مؤلّفة من دائرتي الموثوقة فقط: جيل وهانتر وآشلي؛ أختي فال وصديقي القديم ورئيس الموظّفين من فترتي الأولى في مجلس الشّيوخ، تيد كوفمان؛ إضافة إلى ستيف ومايك. أقرّ الإجماع أنّ السّباق لا يزال مفتوحًا على مصراعيه، وإذا قمنا بعمل جيّد في الولايات المبكرة، فيمكننا التّنافس حتّى النّهاية، وستكون لدينا فرصة جيّدة للفوز بالتّرشيح. اعتبرنا أنّ هناك وقتًا كافيًا لجمع المال مع البدء بالمعركة على الأرض للمنافسة في الولايات الأربع الأساسيّة ذات التّجمّعات المبكرة: آيوا ونيو هامبشاير ونيفادا وساوث كارولينا. وإذا فعلنا كما كنّا نأمل، فإنّنا نعلم أنّه لن تكون هناك مشكلة في جمع الأموال لبقيّة الحملة. أشار أحدهم إلى أنّ الهزيمة، خاصّة الهزيمة الكبيرة لنائب الرّئيس الحاليّ، ستكون ضربة حقيقيّة لإرثي. قالوا: «لا كرامة رومانسيّة في الخسارة». اعلم أنّك إذا خسرت، فستكون خسارة مدوّية».

لقد أدركت ذلك للتّوّ. فهمت الفرق بين الخسارة الانتخابيّة والخسارة الحقيقيّة. لم أكن خائفًا من خسارة سباق سياسيّ. وأعتقد أنّه إذا كان بإمكاني استجماع قوّتي لخوض المعركة، فسأكون أفضل شخص مؤهّل والأكثر قدرةً في هذا المجال. كان هناك ميل في الغرفة للحفاظ على إمكانيّة التّرشّح قائمة.

عمل فريقي الصّغير على تفاصيل الحملة الرّئاسيّة: الموظّفون الميدانيّون، جمع الأموال، والرّسالة. تطوّع جريج شولتز، الّذي كان يدير ولاية أوهايو لصالح أوباما–بايدن، ويعرف أفضل المنظّمين في جميع أنحاء البلاد، للقيام بالعمليّة الميدانيّة. وتطوّع مايكل شروم، نائب المدير الماليّ

الوطنيّ السّابق في اللّجنة الوطنيّة الدّيمقراطيّة، لتنظيم فريق عمل لوضع خطّة لجمع الأموال. وكان لدى مايك دونيلون بالفعل فكرة واضحة عمّا يجب أن تكون عليه الرّسالة – لم تكن تختلف جوهريًا عن الرّسالة الّتي وضعناها قبل عامين – وكان سيحوّلها إلى خطابٍ إعلانيّ. وستصلح أيضًا لتكون بمثابة بيان المهمّة: هذا هو سبب ترشّحي وهذا هو سبب إيماني بالمهمّة بعمق. قال أحدهم: «إذا لم تتمكّن من كتابة خطاب إعلانيّ جيّد، فعليك أن لا تترشّح».

أعتقد أنّنا خرجنا جميعًا من تلك الاجتماعات مع الاعتقاد بأنّه لا يزال لدينا وقت كافٍ، وأنّنا بحاجة إلى المضيّ قدمًا. لكن لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا لأدرك إلى أيّ مدى كنت بعيدًا عن الاستعداد النّفسيّ للحملة الرّئاسيّة، ومدى صعوبة قرار التّرشّح. سافرت غربًا في 21 تموز (يوليو) للتّحدّث أمام اثنين من حملات جمع التّبرّعات للحزب الدّيمقراطيّ، وعندما وصلنا إلى قاعدة باكلي الجويّة في أورورا، كولورادو، كانت هناك مجموعة من الأفراد العسكريّين وعائلاتهم يلوّحون بالتّرحيب من بعيد. كانوا على بعد حوالي سبعين ياردة [حوالي 64 متر]، لذلك ركضت لأستقبلهم. قلت: «شكرًا». «أشكركم على خدمتكم.» بينما كنت أصافحهم، سمعت صوتًا في الخلف يقول: «الرائد بو بايدن، سيّدي! في العراق يا سيّدي! خدمت معه سيّدي! جنديّ جيّد يا سيّدي! رجل صالح!» شعرت بتورّم في حلقي. فجأة أصبح تنفّسي ضعيفًا، وصوتي متصدّعًا. كنت أخشى أن تغمرني العاطفة، وأعتقد أنّ الجمهور يمكن أن يرى ذلك. لوّحت بيدي واندفعت إلى السّيّارة، ولم تكن هذه الطّريقة هي الّتي يمكن لمرشّحٍ رئاسيّ أن يتصرّف بها علنًا.

بعد ستّة أيام، سافرت إلى روتشستر، نيويورك، للانضمام إلى الحاكم أندرو كومو في الإعلان عن استثمارٍ جديد في أحدث التقنيّات الّتي يمكن استخدامها للطّاقة البديلة والطّبّ والبناء والتّصنيع. ثمّ ذهبت إلى مدينة

نيويورك للوقوف معه حيث أعلن عن خططه الواسعة لإعادة إنشاء مطار لا غارديا. قضيت خمس ساعات في ذلك اليوم مع أندرو كومو، وانتهى بي الأمر بأن تكون الزّيارة شخصيّة أكثر منها سياسيّة. لقد فهم القرار الّذي كنت أواجهه، لأنّه رأى والده، الحاكم ماريو كومو، يتصارع بشأن قراره بخصوص التّرشّح للرّئاسة. توفّي ماريو في وقتٍ سابقٍ من ذلك العام، لذلك كان أندرو يفكّر به كثيرًا. وكان أندرو أيضًا يعرف بو جيّدًا؛ فقد انتخب مدّعيًا عامًا لنيويورك في اليوم نفسه الّذي انتُخب فيه بو مدّعيًا عامًا لولاية ديلاوير. لقد عملا معًا وأصبحا صديقين. أخبرني أندرو أنّه كان هو وبو يتعاطفان كونهما سياسيّين طموحين، وفي الوقت نفسه ابنيّ مسؤولين معروفين. كلاهما كان فخورًا بنا، وكانا فخورين بأنّهما من أبنائنا، لكنّهما اتّفقا على أنّ ذلك يجعل من الصّعب عليهما أن يشقّا طريقهما الخاصّ. أخبرني أنّهما اعتادا على الضّحك بشأن محاولتهما «إدارة» أبويهما، وكانا يتمازحان حول مدى متطلّباتنا، خاصّة فيما يتعلّق بخطاباتنا. قال لي أندرو في ذلك اليوم: «كان والدي يسعى دائمًا إلى الكمال. إذا لم يكن مثاليًا – إذا كان خطابه غير مقفّى – فإنّه يرفض إلقاءه. لا يهمّ إن كان سيخرج ويتحدّث إلى ثلاثين شخصًا، فهذا الأمر يهمّه. وقال بو إنّك تتصرّف بالمثل».

لطالما شعرت بالصّلة مع ماريو كومو. عندما سمعته يلقي خطابه الشّهير في المؤتمر الوطنيّ للحزب الدّيمقراطيّ لعام 1984، أتذكّر أنّني كنت أفكّر إلى أيّ مدى ينبع، مثلي أنا، حسّ الإنصاف والعدالة لديه وازدراؤه لأولئك الّذين كانوا يسيئون استخدام سلطتهم، من تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة. لقد أخبرت عائلته في الصّحوة الّتي أقيمت عند نعشه في كانون الثّاني (يناير)، وقلت ذلك من قبل علنًا: إنّ ماريو كومو هو أحد المسؤولين القلائل في حياتي الّذين تطلّعت إليهم وقلت في نفسي: أوه، قد يكون هذا الرّجل أفضل مني.

وكنت أقدّر بشكلٍ متزايد صعوبة المداولات الّتي كان يواجهها ماريو حول التّرشّح للرّئاسة. بغضّ النّظر عمّا يقوله العالم الخارجيّ، مع أو ضدّ، كان عليه أن يشعر بأنّ القرار النّهائيّ مناسب له. تمامًا كما يجب أن يكون قراري مناسبًا لي. ما قاله لي أندرو في ذلك اليوم في نهاية شهر تمّوز (يوليو) هو: إنّ والده لم يتصالح أبدًا مع رفضه التّرشّح للرّئاسة. قال لي: «أيّ قرار تتّخذه، تأكّد من أنّك لن تندم عليه». «لأنّك ستعيش معه بقيّة حياتك».

في 2 آب (أغسطس) جاء في مقدّمة الخبر على الصّفحة الأولى من صحيفة نيويورك تايمز الخبر الآتي: «بدأ نائب الرّئيس جوزيف آر. بايدن جونيور ورفاقه باستكشاف حملة رئاسيّة محتملة، والّتي من شأنها أن تقلب الميدان الدّيمقراطيّ، وتوجّه تهديدًا مباشرًا إلى هيلاري رودهام كلينتون، حسبما أفاد العديد من الأشخاص الّذين تحدّثوا إلى السّيّد بايدن أو مستشاريه المقرّبين». اعتمدت القصّة الإخباريّة على عمود نشر في اليوم نفسه من قبل مورين دود، الّتي ذكرت بدقّة أنّ بو حثّني على التّرشّح . ولكنّ القصّة الإخباريّة في الصّفحة الأولى، على عكس مورين، صوّرت الأمر بشكلٍ غير دقيق على أنّه مشهد على فراش الموت، حيث تحدّث بو معي وهو «يحتضر». (قاموا بتصحيحه رسميًا، ولكن بعد بضعة أشهر). تضاعفت في الأيّام التّالية المكالمات من الخارج، المؤيّدة والمعارضة للتّرشّح.

بعد أيّام قليلة من نشر القصّة، أحضر لي مايك مسوّدة جديدة مصقولة لخطاب الإعلان الّذي كتبناه، وكان يتضمّن كلّ شيء في ألفين وخمسمائة كلمة – بيان المهمّة. ستكون هذه حملة تستند إلى مبدأ أساسيّ واحد: وجاء في النصّ «نحن أمريكا واحدة، مرتبطون معًا في هذه التجربة العظيمة المتمثّلة في المساواة والفرص والدّيمقراطيّة. وكلّ شخص – وأعني كلّ فرد – شريك في الاتّفاق».

كان علينا التّحدّث إلى أولئك الّذين شعروا بأنّهم مهملين. عليهم أن يعرفوا أنّنا نعرف يأسهم. في كلّ مرّة كان يدهشني ردّ الفعل الّذي أتلقّاه، عندما أخبر الجمهور أنّ أطول مشية على الإطلاق يمكن أن يمشيها أحد الوالدين هي صعود بضعة سلالم، لإبلاغ ابنهما أو ابنتهما أنّهما سيضطرّان إلى الانتقال، لأنّهما لم يتمكّنا من إيجاد عمل، أو أنّ البنك سيضع يده على المنزل. أخبرهم كيف قام والدي بهذه المسيرة المروّعة، وأن يفكّروا فقط بعدد الأشخاص الّذين أجبروا على فعل الشّيء نفسه في السّنوات الأخيرة. تذرف الدّموع في عيونٍ كثيرة. كان الوضع حقيقيًا. كانوا يعيشونه.

كان علينا أيضًا التّحدّث إلى الأشخاص الّذين كانوا يبلون بلاءً حسنًا. لقد تعرّضت للكثير من السّخرية لقولي إنّ الأثرياء هم وطنيّون مثل أيّ شخص آخر. لكنني أعني ما أقول. لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنّ معظم الأمريكيّين الأثرياء كانوا على استعداد للتّخلّي عن تخفيضٍ ضريبيّ آخر من أجل تعليم أطفالنا تعليمًا أفضل، أو لإعادة بناء البنية التّحتيّة لهذه الدّولة، أو لتوفير رعايةٍ صحّيّة لائقة لكلّ من يحتاجها. إنّهم يعلمون أنّ فرصة الثّراء ليست هي الصّفقة الكاملة. إنّ النّهوض ببلدهم هو جزء من الصّفقة أيضًا.

كان علينا تذكير الشّركات الأمريكيّة و«وول ستريت» بأنّ مجرد الاعتناء بأنفسهم، ومساهميهم لم يكن جيّدًا بما فيه الكفاية. لديهم مسؤوليّة تجاه عمّالهم ومجتمعاتهم وبلادهم أيضًا. ليس بهدف إحراج رؤسائهم، أو تهديدهم، ولكن لتذكيرهم بأنّ التّاريخ الطّويل من الازدهار المشترك والطّبقة الوسطى الآمنة والمتنامية هما السّبب في أنّ أمريكا تتمتّع بأكثر الدّيمقراطيّات السّياسيّة استقرارًا في العالم. إذا فقدنا ذلك - وكنّا نفقده - فلن يكبح أيّ مبلغ من المال ثورة الغضب والعصي. لم يكن الأمر يتعلّق فقط بالأرباح والاقتصاد. إنّه يتعلّق بالاستقرار الاجتماعيّ لهذه الأمّة.

والأهمّ من ذلك كلّه، كان علينا التّحدّث إلى الطّبقة الوسطى العظيمة

للأمّة. وليس فقط بشأن مخاوفها، ولكن بشأن تطلّعاتها أيضًا. إنّ إعادة إحياء آمال الطّبقة الوسطى - وليس تقليصها -هو كلّ ما تدور حوله هذه الحملة.

لمخاطبة الطّبقة الوسطى، شعرت أنّه يتعيّن علينا القيام بشيء آخر: حملة «بايدن للرّئاسة» سترفض نظام لجنة العمل السّياسيّ الفائقة[1] «سوبر باك». لقد كان من المغري أن ندخل لعبة المال كوننا سنبدأ في وقتٍ متأخّر. ولأوّل مرّة في كلّ سنوات حملاتي الانتخابيّة، كنت أعلم أنّ هناك أموالًا طائلة بالنّسبة لي. ولكنّني كنت أعلم أيضًا أنّ النّاس سئموا من كلّ هذا. عبارة «نحن الشّعب» لم تعد تبدو صحيحة. كان الأمر أشبه بعبارة «نحن المانحون». ويدرك الجميع أنّه في نظامٍ غارقٍ بالمال، لم تكن الفرصة متاحة أمام الطّبقة الوسطى للكفاح. لم يكن رفض أموال «سوبر باك» مشكلة بالنّسبة لي. شعرت وكأنّها دورة متكاملة. كان من بين أولى مشاريع القوانين الّتي كتبتها بصفتي سيناتورا في الولايات المتّحدة «التّمويل العام للانتخابات». الآن سواء يعدّ ذلك تهوّرًا أم لا، فقد كنت أحاول الانقلاب على التّدفّق الماليّ الجديد الّذي كان يطغى على سياساتنا.

كنت على يقين من أنّ رسالتي هذه سوف تبرز، لأنّ الحملة الّتي كنت أشهدها في صيف 2015 جاءت سلبيّة جدًّا، وكئيبة جدًّا، ومثيرة للانقسام، وشخصيّة جدًّا. وتافهة جدًا. لم أتبنَّ موقف «وا أسفاه» بشأن آفاقنا الوطنيّة الّتي كان يُروّج لها المرشّحون الآخرون. لقد تجاوزنا الكثير كأمّة، وكنّا نسير في الاتّجاه الصّحيح. كانت البلاد قد خرجت من حفرة هائلة في السّنوات

(1) في الولايات المتّحدة، لجنة العمل السياسي (PAC) هي منظّمة تجمع مساهمات الحملة الانتخابيّة من الأعضاء وتتبرّع بهذه الأموال للحملات المؤيّدة أو المعارضة للمرشّحين أو مبادرات الاقتراع أو التّشريعات. أُنشئ المصطلح القانوني (باك) سعيًا وراء إصلاح تمويل الحملات الانتخابيّة. أمّا لجان العمل السّياسيّ الفائقة (سوبر باك) فهي لجان سياسيّة مستقلّة للإنفاق فقط، وقد تتلقّى مساهمات غير محدودة من الأفراد والشّركات والنّقابات العماليّة ولجان العمل السّياسيّ الأخرى بغرض تمويل النّفقات المستقلّة والأنشطة السّياسيّة المستقلّة الأخرى. (المترجم)

السّتّ الماضية، بفضل الرّئيس أوباما. لقد ساعدت إدارتنا في إيجاد ثلاثة عشر مليون وظيفة جديدة، وأشرفت على عددٍ قياسيّ من خلق فرص عمل في القطاع الخاصّ على مدى سبعة وستّين شهرًا متتاليًا. جرى تخفيض عجز الأمّة إلى النّصف. وأخيرًا كنّا ننتقل من التّعافي إلى الانتعاش؛ كانت البلاد على وشك الإقلاع.

كنت فخورًا بالعمل جنبًا إلى جنب مع الرّئيس طوال كلّ ذلك، وفخورًا بالتّرشّح بالاستناد إلى سجلّ إنجازاتنا- دون اعتذار أو تحفّظ أو تراجع. وكما أقول لأيّ شخص يسألني، كنت سعيدًا بتحمّل اللّوم عن أيّ شيء أخطأنا فيه - طالما كانوا على استعداد لمنحي على الأقلّ بعضًا من الفضل في ما أنجزناه بشكلٍ صحيح. والآن، أصبحنا عند نقطة تحوّل. الآن أصبحنا في وضع يمكننا من خلاله الانتقال ممّا يتعيّن علينا القيام به إلى ما نريد القيام به.

وهذا ما جعل احتمال إطلاق حملة رئاسيّة أمرًا مثيرًا ومتحرّرًا. بدأت متأخّرًا جدًّا، بدون مال، مع شطبي من قبل كلّ الأشخاص «الأذكياء» - كنت أعرف ما أواجهه. ما يعني أنّ الحملة الحذرة والهادئة كانت بلا جدوى. لذا، كان لا بدّ لحملة «بايدن للرّئاسة» من أن تكون حملة كبيرة. لأنّه بصراحة، في هذه المرحلة من مسيرتي المهنيّة وبعد كلّ ما مرّت به عائلتي، لم يكن أيّ شيء أقلّ من ذلك يستحقّ العناء. كنّا في طريقنا إلى ملاحقة نظامٍ ضريبيّ فقد كلّ إنصاف، ولم يكن له أيّ معنى. كنا في طريقنا إلى التّخلّص من الإعفاء الضّريبيّ للصّندوق الائتمانيّ ومنح «الفائدة المحمّلة» لمديري صناديق التّحوّط. كنّا بصدد وضع حدّ لفرض ضرائب على الدّخل المكتسب بشكلٍ أكبر من الدّخل غير المكتسب[1]، لأنّني لم أفهم سبب معاملة الأشخاص

(1) الدّخل المكتسب هو الدّخل النّاجم عن المجهودات الّتي يبذلها الفرد كالأجور، والرّواتب وغيرها، من أنواع الدّخل النّاتجة من العمل. الدّخل غير المكتسب هو الدّخل النّاتج عن رأس المال، كامتلاك الأسهم والسّندات والآلات والمعدّات والأراضي. (المترجم)

الّذين استثمروا لقمة العيش بشكلٍ أفضل من الأشخاص الّذين يعملون من أجل لقمة العيش. وكنّا سنلاحق جبل الثّغرات الّتي تراكمت على مرّ السّنين. لقد انتقلنا من 600 مليار دولار من النّفقات الضّريبيّة المزعومة (أيّ الثّغرات) في الميزانيّة الفيدراليّة عندما كان رونالد ريغان رئيسًا إلى أكثر من 1.3 تريليون دولار اليوم. لا أحد يستطيع أن يقنعني أنّها كلّها منطقيّة.

لهذا السّبب كنت دائمًا أعتقد، عندما يقول لي النّاس إنّنا لا نملك المال لمعالجة مشاكلنا، أنّ هذا مجرّد هراء. لأنّ التّخلّص من الإعفاء الضّريبيّ للصّندوق الائتمانيّ فحسب، يمكن أن يغطي الرّسوم الدّراسيّة المجّانيّة في الجامعات المحلّيّة. هذا لوحده.

حدّ أدنى خمسة عشر دولارًا للأجور. تعليم مجانيّ في كليّاتنا وجامعاتنا الرّسميّة. تدريب وظيفيّ حقيقيّ. رعاية أطفال ميسورة التّكلفة في مواقع العمل. أجر متساوٍ للمرأة. تعزيز قانون الرّعاية الميسّرة. برنامج لخلق فرص عمل مبنيّ على الاستثمار في طرقنا وجسورنا وأنظمة المياه والصّرف الصّحيّ وتحديثها. خفض ضريبيّ للطّبقة المتوسّطة. كانت كلّ هذه الأمور ضمن إمكانيّاتنا. كانت المسألة مسألة إرادة.

بدت الكثير من الحملات الانتخابيّة الرّئاسيّة في ذلك الصّيف عالقة في الماضي. صراعٌ حول ما حدث، وما الخطأ الّذي حدث، وما خسرته أمريكا. إذا ترشّحت، أريد أن أرسم صورة لمستقبل أمريكا، وما يمكن أن نصبح عليه، وكيف يمكن إعادة التّعامل مع كلّ فرد في هذا المشروع. كنّا بحاجة إلى ما أسميته مشروع التّجديد الأمريكي. لم يكن ذلك متعلّقًا باحتياجاتنا فحسب – بل كان متعلقًا بأرواحنا أيضًا. لم نكن نريد مجرّد مشروع قانون للبنية التّحتيّة مع المال للطّرق السّريعة والسّكك الحديديّة والمطارات. كنّا نريد تمويل الطّرق السّريعة غدًا بالآلاف من محطّات الشّحن للسّيّارات الكهربائيّة والخطوط المخصّصة للسّيّارات ذاتيّة القيادة. بإمكان هذه الخطوط

تقليص وقت السّفر في ساعة الذّروة في لوس أنجلوس إلى النّصف. نريد قطارات سريعة يمكنها السّفر أكثر من 220 ميلاً في السّاعة. طائرات يمكن أن تطير من ساحل إلى آخر في غضون ساعة أو ساعتين. لأنّ هذا كان المستقبل. لقد ناضلت من أجل إنشاء شبكة ذكيّة للكهرباء في أمريكا عندما وضعنا قانون الانتعاش. كنت بالتّأكيد سأناضل من أجلها كرئيس. كنت سأناضل أيضًا من أجل ضمان سلامة أفضل للسّلاح. كان علينا التّغلّب على الجبن والوقوف في وجه هيئة الموارد الطّبيعيّة. قد تمنع التّقنيّات الجديدة مثل تقنيّة التّعرّف على اليد من مجزرة جديدة مثل مجزرة نيو تاون أو تشارلستون. لن نقدّم مجرّد تمويلٍ إضافيّ لأبحاث السّرطان؛ سنقوم بإنشاء وتمويل مشاريع رائدة بعيدة المدى خاصّة بالسّرطان لإعادة اختراع أنظمة الوقاية والبحث والرّعاية، والجمع بين أفضل الأطبّاء والعلماء وغيرهم من الخبراء لمضاعفة معدّل التّقدّم، وتحقيق نتائج حقيقيّة للمرضى. لم لا يمكننا القضاء نهائيًّا على السّرطان؟

كان مايك متفائلًا أكثر من أيّ وقتٍ مضى بشأن التّرشّح. في وقتٍ مبكر من آب (أغسطس)، أقام الحجّة بأنّني كنت كمرشّحٍ الآن في حالةٍ أفضل ممّا كنت قبل ستّة أشهر. كانت أرقام الاستطلاعات الخاصّة بي مرتفعة ولا تزال في ارتفاع. كانت تقييماتي الإيجابيّة أعلى من تلك الّتي حصل عليها أيّ مرشح في السّباق – في أيّ من الحزبين. كانت أرقامي بشأن الجدارة بالثّقة والصّدق والتّعاطف أعلى ممّا كانت عليه في أيّ وقت مضى. وكنت أقوى في المناطق الّتي كانت فيها المرشّحة الأكثر روعة، هيلاري كلينتون، الأضعف: في الولايات المتأرجحة الرّئيسة مثل بنسلفانيا وأوهايو وفلوريدا. لا بدّ أنّ الرّئيس كان يتلقّى الكثير من الأخبار من فريقه السّياسيّ – بعضهم كان يعمل بنشاط من أجل ترشيح هيلاري – لأنّه في

غدائنا التّالي سألني مرّة أخرى بشكلٍ مباشر عمّا كنت أخطّط له. كنت أحاول التّأكّد من مدى استعدادي لمنح الأمر كلّ طاقتي للعام ونصف القادم. قلت: «سيّدي الرّئيس، لست جاهزًا لاتّخاذ قرار. إنّني أتعاطى مع الأمر يومًا بيوم. إذا قرّرنا التّرشّح، فسنقرّر في الوقت المناسب حيث يكون ذلك ممكنًا». لم يكن الرّئيس مشجّعًا.

عندما حصلت أخيرًا على بعض الرّاحة في ويلمنجتون في عطلة نهاية الأسبوع التّالية، كتبت في مذكّراتي: لقد حدث الكثير. يجب أن أكون حذرًا كي لا تفلت الأمور منّي. أحتاج إلى إبطاء جدول أعمالي لشهر آب (أغسطس) وتخفيفه. يجب أن أكتشف ما أحتاج إلى معرفته لأكون جاهزًا.

كنت حريصًا على إبقاء مداولاتي داخل الدّائرة الموثوقة، لكنّي كنت أتلقّى الكثير من النّصائح الخارجيّة. كان الحديث بين المطّلعين في الحزب الدّيمقراطيّ ومعظم طبقة النّقاد السّياسيّين أنّ الأوان قد فات بالنّسبة لي. وأنّني لم أستطع جمع المال. وأنّه لم يعد هناك كفاءات جيّدة متوفّرة تشكّل هيكليّة لحملة حقيقيّة تدير معركة على الأرض قابلة للتّنفيذ، وأنّه بمجرد دخول السّباق، ستنهار جميع أرقام استطلاعاتي الرّائعة. كان الكثير من النّاس يخبروننا أنّ تصنيفات الأفضليّة العالية كانت مؤقّتة فقط – سببها التّعاطف العامّ المحيط بوفاة بو. كان مراسل بوليتيكو يغطّي إحدى حملات جمع التّبرعات لهيلاري في مارثا فينيارد، حيث شوهد باراك أيضًا وهو يلعب جولة من الجولف مع بيل كلينتون، فجعل من مسعاي البعيد المنال مقدّمة للخبر. أشار مراسل بوليتيكو في 16 آب (أغسطس): «في الوقت الّذي يدرس فيه جو بايدن إمكانيّة التّرشّح للرّئاسة، يبدو أنّ المانحين الّذين يحتاجهم ليكون قادرًا على الاستمرار يستبعدونه».

قال أحد المانحين، «لا توجد منافسة في الوقت الحاليّ. أعتقد أنّ النّاس

يتوحّدون حول هيلاري». كان هناك شخصان في الفريق السّياسيّ للرّئيس أوباما يخبروننا أنّ فوزي في السّباق غير ممكن. كانا يستخدمان عادة ديباجة من هذا النّوع: نحن نحمي نائب الرّئيس بشدّة. لا نريد أن نرى جو يتأذّى. يمكننا أن نتخيّل فحسب ما يمرّ به الآن. لكنّهما لم يكونا ماهرين. لقد طلبا من ستيف ومايك التّفكير في القوى التّاريخيّة المذهلة الّتي أحاطت بباراك أوباما في العام 2008، عندما ترشّح ضد ماكينة كلينتون الانتخابيّة وفاز بصعوبة. وإذا كانت على وشك أن تهزمنا، كما يشيرون، فسوف تهزمك بالتّأكيد. سمعت كلّ ذلك وفهمت الصّعوبات، لكن لم يكن أيّا من ذلك مهمًا. تمامًا كما لم يكن مهمًّا مدى السّرعة الّتي تشكّلت فيها «حركة بيرني ساندرز» أو كيف بدت هيلاري ضعيفة فجأة. ببساطة لم يكن المرشّحون الآخرون يشكّلون اعتباراتي الرّئيسة.

أمضيت أسبوعًا كاملًا من إجازة آب (أغسطس) في منزلنا في ويلمنجتون، وأنا أنقّح خطاب الإعلان وأحاول أن أعيد نفسي إلى حياتي القديمة. وحيث لم يكن يتسنّى لنا قضاء الكثير من الوقت في منزلنا المطلّ على البحيرة، كان من الجيّد إجراء بعض التّصليحات في العقار. أخرجت المنشار الآلي وأزلت بعض الأشجار الميّتة، واستبدلت المصابيح التّالفة، وغسلت جدران الجصّ. اضطررت إلى الاتّصال بمقاول للحصول على تقدير لكلفة تركيب سقفٍ جديد من الصّفيح للمبنى الملحق الصّغير بجوار البحيرة، حيث احتفظنا بصنانير الصّيد.

كان هناك الكثير من المكالمات الواردة من أشخاص يشجّعونني على التّرشّح، وخاصّة من زملائي السّابقين في مجلس الشّيوخ: دون ريجل، وبوب كيري، وكريس دود، وتوم داشل، الّذي أخبرني قبل ذلك بشهور أنّه معي 100 في المئة إذا قرّرت المضيّ قدمًا. لابدّ أنّ بيل برادلي قد وضع رقمي على قائمة الاتّصال السّريع، وغاري هارت وضع ثقله بالموضوع،

وكذلك فعل كينت كونراد. قال السّيناتور السّابق من نورث داكوتا علانية: «جو لديه إنسانيّة تترك انطباعًا لدى الآخرين. إنّه صادق. لديه مبادئ. وهو قادرٌ على التّعبير عن قيمه بوضوح، وأعتقد أنّ بإمكانه أن يبرئ ساحته بشكلٍ جيّد للغاية». اتّصل حاكم ولاية أيوا السّابق، شيت كولفر، ليقول إنّ الولاية مفتوحة على مصراعيها وإنّه مستعدٌ لتقديم المساعدة. وكان الرّئيس السّابق للحزب الدّيمقراطيّ في ساوث كارولينا، ديك هاربوتليان، يحثّني على المشاركة في السّباق الرّئاسيّ. كان يقول علنًا: «البلد بحاجة إلى جو بايدن». وأفضل ناشط سياسيّ لديّ في ساوث كارولينا، تريب كينج، كانت لديه قائمة من المؤيّدين الجادّين، بما في ذلك عمدة تشارلستون جو رايلي، وأكثر من نصف الأعضاء الثّلاثة والعشرين في التّجمّع الحزبيّ للسّود في المجلس التّشريعيّ للولاية، بحسب إحصائيّاته.

اتّصل بعض كبار جامعي التّبرّعات لأوباما لتأييدي، مثل أزيتا راجي، المرشّحة لمنصب السّفيرة في السّويد، الّتي عرضت البقاء في البلد وتولّي منصب رئيس الشّؤون الماليّة الوطنيّة بدلًا من ذلك. ودينيز باور، الّتي قالت إنّها على استعداد لترك وظيفتها كسفيرةٍ لبلجيكا والعودة إلى الوطن لمساعدتي. كان هناك العشرات الآخرين، بما في ذلك رؤساء بلديّات ومشرّعين بالولايات، وجامعي تبرّعات ومستشاري حملات الدّيمقراطيّين. وقد وعدت بالحفاظ على سرّيّة كلّ هذه المكالمات والعروض. لم أرغب في ترك أيّ شخصٍ معلّق في حال قرّرت أنّني غير قادرٍ على التّرشّح. لم أرغب في أن يؤدّي ولاؤهم لي إلى تعريض علاقتهم مع مرشّحٍ آخر للخطر.

كانت هناك أنواعٌ مختلفة من الرّسائل التي تُرسل إليّ عبر الصّحافة. قالت هيلاري في إحدى محطّات حملتها الانتخابيّة في ولاية أيوا: «أريد فقط من نائب الرّئيس أن يفعل ما هو مناسبٌ له ولأسرته. أكنّ له الكثير من الإعجاب والمودّة. وأعتقد أنّ عليه أن يتّخذ ما يُعدّ قرارًا صعبًا للغاية

بالنّسبة لـه ولأسـرته. يجـب أن يكـون لديه المجال والفرصـة ليقرّر ما يريد القيـام بـه». لكـن بحلـول ذلـك الوقـت، كانـت المعارضة قد بـدأت بالفعل تحقيقاتهـا حولـي. كانـت هنـاك قصّـة كبيرة في نهاية شـهر آب (أغسـطس) حول مشروع قانون جرائم الشّرطة المجتمعيّة الّذي كنت قد كتبته، وكان بيل كلينتون قد بشّـر به باعتباره خطوة كبيرة إلى الأمام عندما وقّع عليه بصفته رئيسًـا فـي العـام 1994. أصبـح يصفه الآن بالخطـأ الكبير. أعقب ذلك قصّة تزعـم أنّنـي كنـت متآلفًـا مع القطاع المصرفيّ وبطاقات الائتمان عندما كنت عضوًا في مجلس الشّـيوخ. وأرسـل مؤيّدو كلينتون إشـارة بأنّهم لن يتوقّفوا [في حملتهم] عند سجلّات التّصويت والسّياسات إذا دخلت السّباق. وقال أحد مؤيّديها لمراسـل من بوليتيكو: «ليس هناك الكثير من الأدلّة السّـاطعة بشأن القضايا، هذه هي المشكلة. الهجوم سيكون على أهليّته ليكون رئيسًا، وسيكون ذلك أمرًا صعبًا للغاية».

ركّـزت علـى الاتّصـالات الدّاعمـة، الّتي كانت تعني لي الكثير- خاصّةً تلـك القادمـة مـن أشـخاص عرفونـي وخدمـوا معي علـى مرّ السّـنين. هذا الدّعم من شـأنه أن يحدث فرقًا إذا ترشّـحت، لكنّه لم يجعل القرار أسـهل. طُرحـت القضيـة الحقيقيّـة، جوهـر الموضوع، خلال ذلك الأسـبوع الكامل فـي ويلمنجتـون فـي آب (أغسـطس). كان ابنـا بو، هانتـر وناتالي، على بعد خمس دقائق فقط بالسّيّارة، لذلك أمضيا الكثير من الوقت في منزلنا. حيث يمكـن لهانتـر القفـز على مركب شـراعيّ صغير من البلاسـتيك، والتّجديف بشـكلٍ قطـريّ عبـر البحيـرة، مـن الرّصيـف حتّـى النّهاية البعيـدة، على بعد 150 يـاردة [حوالـي 137 متـر]، ثـمّ الذّهاب إلى الغابة للاستكشـاف والعودة بسـلحفاة التقطهـا حديثًـا، وكانـت ناتالـي تقضي معظم وقتها عند المسـبح. كانت أفضل الأوقات عندما كنّا جميعًا عند المسبح، أسفل الشّرفة الخلفيّة وغرفة التّشـمّس، نقفز في المياه أو نسـترخي تحت أشـعّة الشّـمس. كانت

ناتالي تقول أحيانًا: «جدّي، إنّني أرى أبي طوال الوقت». كان هانتر يستلقي على صدري، في الخارج تحت أشعّة الشّمس، ويغفو. قال لي بعد ظهر أحد الأيّام ورأسه على صدري: «رائحتك مثل رائحة أبي. أنت لن تتركني، أليس كذلك يا جدّي؟»

اعتقدت أنّ القرار سيكون بسيطًا بعد ذلك؛ كان لحزني وزنه الخاصّ، ولم أشعر بأنّه أخفّ في نهاية آب (أغسطس). كنت أعلم أيضًا، من خبرة مكتسبة بشقّ الأنفس، أنّ السّنة الثّانية هي الأصعب في بعض الجوانب. عندما تنتهي الصّدمة، من حيث غرابة العيش خلال جميع الإجازات الأولى واحتفالات الذّكرى السّنويّة وأعياد الميلاد، وتبدأ الخسارة الّتي لا يمكن إنكارها بالاستيطان في داخلك. إذا فزت بالتّرشيح في الصّيف المقبل، سيترتّب علينا جميعًا التّعامل مع تلك الطّبقة الجديدة من الحزن في منتصف الانتخابات العامّة.

الشّيء الّذي يجب أن أفعله هو الخروج من السّباق الآن، قبل أن يفقد أولئك الّذين ظلّوا بجانبي فرصتهم في إيجاد مكان لهم في حملةٍ أخرى. لكن ظللت أسمع صوت بو: عِدني يا أبي. عِدني بأنّك ستكون بخير. لم تكن جيل تدفعني إلى التّرشّح، لكنّها لم تكن تريدني أن أحسم أمري قبل أن أكون متأكّدًا. لقد فهمت بالضّبط ما كنت أعانيه، وكم كنت أتألّم، لأنّها كانت تمرّ به أيضًا. ظلّت تردّد: «ارجع كتفيك إلى الوراء، جو. ارجع كتفيك إلى الوراء. ابتسم عندما تتحدّث عن بو». كان ستيف ومايك يطلبان منّي أن أعطي نفسي مزيدًا من الوقت، حيث إنّ قدرتي على التّكيّف هي الّتي ستميّزني.

وفي عيد العمّال، في الهواء الطّلق، في موكب وسط مدينة بيتسبرغ، شعرت وكأنّ شيئًا ما يحدث. فوجئت بالاستقبال الّذي تلقّيته. وكذلك فوجئ ليو جيرارد، رئيس نقابة عمّال الحديد، وريتش ترومكا، رئيس الاتّحاد

الأمريكي للعمل وكونغرس المنظمّات الصّناعية (AFL–CIO)، اللّذين كانا معي هناك. كان ردّ الفعل ساحقًا. اصطفّ الآلاف من النّاس في الشّارع. سار ألف أو أكثر. لقد كان حشدًا كبيرًا وصاخبًا ومتحمّسًا. كبارًا وصغارًا، بيضًا وسودًا، من أصولٍ إسبانيّة. صبيًّا يبلغ من العمر ثماني سنوات يرتدي قميص سوبرمان. فتيات مراهقات في عصابات رأس ذات ألوان زاهية، أمّهات عاملات مع نساء يرتدين قمصانًا فولاذيّة. كهولًا مع أحفادهم على أكتافهم. كانت هناك ألواح تزلّج ودرّاجات وكراسٍ متحرّكة. كانت مسيرةً تشبه أمريكا. أُطلقت هتافات: «ترشّح يا جو، ترشّح!» ورأيت أشخاصًا يحملون لافتات مكتوبة بخطّ اليدّ «بايدن للرّئاسة». أعتقد أنّ الحماس فاجأ الصّحافة أيضًا. شعرت وكأنّني استعدت هيأتي السّابقة. كان هذا هو أوّل مظهر فعليّ للزّخم الّذي شعرته خلال الأسابيع السّتّة الماضية. كان هناك الكثير من النّاس كي أتمكّن من تحيّتهم جميعًا، لكنّني حاولت الوصول إلى أكبر عددٍ ممكن. وجدت نفسي أركض، أسرع وأسرع، متعرّجًا من أحد جانبي الطّريق إلى الجانب الآخر، وصدري إلى الأمام وكتفيّ إلى الوراء، محاولًا الوصول إلى المزيد من الأشخاص أثناء ذهابي. كان الجوّ حارًا، لكنّني شعرت أنّني على قيد الحياة. كان شعورًا جيّد. حقًّا جيّد.

بدأت قناة اي بي سي ضمن برنامج أخبار العالم اللّيلة بثّها معي في تلك اللّيلة. «جو بايدن المتحمّس. هل هذا رجلٌ بصدد المشاركة في السّباق؟» وبدأت الأمور تتحرّك من هناك. بعد ثلاثة أيّام، كنت ضيفًا مميّزًا في الأسبوع الأوّل من البرنامج الجديد لايت شو مع ستيفن كولبرت. سمح لي كولبرت بالحديث كثيرًا في الجزء الأوّل عن بو وما يعني لي ابني. لقد كان اختبارًا جيّدًا.. أعتقد أنّني أبليت بلاءً حسنًا، دون أن أكون عاطفيًا جدًّا. ربما كنت بصدد تخطّي المحنة. بحلول الوقت الّذي عدنا فيه من الفاصل الإعلانيّ، كان جمهوره يهتف، «جو! جو! جو! جو!» سألني: «هل لديك أيّ شيء

تخبرنا به حول خططك؟».

قلت: «اسمع، لا أعتقد أنّ أيّ رجلٍ، أو امرأة، يجب أن يترشّح للرئاسة إلا إذا كان أولًا يعرف بالضّبط لماذا يريد أن يصبح رئيسًا. ثانيًا، إذا كان بإمكانه أن ينظر إلى النّاس حوله ويقول: «أعدكم، من كلّ قلبي، ووجداني، وبكلّ طاقتي، وشغفي، أن أقوم بذلك». وسأكون مخادعًا لو قلت: إنّني متيقّن من بلوغي هذه المرحلة. أنا صادق تمامًا. لا أحد لديه الحقّ، في رأيي، في السّعي إلى الحصول على هذا المنصب، ما لم يكن على استعداد لمنحه 110 بالمائة من نفسه. أنا متفائل، وأنا متأكّد بشأن ما نحن بصدد الذّهاب إليه، لكنّني أجد نفسي». وهنا بدأت أنفعل مجدّدًا. ثمّ واصلت الكلام أخيرًا، «في بعض الأحيان، هذا الإحساس يطغى عليك فحسب». ووجدت نفسي أروي له قصّة القاعدة الجويّة في دنفر حيث تعرّضت للاختناق.

عندما نزلت عن المنصّة شعرت بالارتياح، لأنّني كنت متماسكًا، لكنّني كنت مستنزفًا. رأى هانتر مدى صعوبة الأمر. قال لي عندما عدت إلى المنزل: «أبي، لقد كنت رائعًا، لكن علينا أن نتوقّف عن الحديث عن فقدان بو. علينا أن نتحدّث عمّا أنجزه بو وعلينا أن نتحدّث عن المستقبل».

أدّت مراجعات مقابلة كولبرت في اليوم التّالي إلى زيادة الحديث عن حملة «بايدن للرّئاسة». قال مايك بارنيكل في مقدّمة برنامج مورنينغ جو: «لقد كانت مقابلة نادرة للغاية بالنّظر إلى ثقافتنا وسياستنا اليوم». «لقد كان إنسانًا بكلّ معنى الكلمة». كنت لا أزال في نيويورك في ذلك اليوم لمساعدة الحاكم كومو في الاحتفال بذكرى 11 أيلول (سبتمبر). كان أندرو قد أيّد بالفعل السّيناتور السّابق لولايته هيلاري كلينتون لمنصب الرّئاسة، لكنّه كان لا يزال يدفعني إلى التّفكير بجدّيّة في التّرشّح. لا تتّخذ قرارًا سوف تندم عليه. وكان مسرفًا في مدحه لي. قال في اجتماعٍ لأوّل المستجيبين: «هذا اليوم يتعلّق بالإنسان وشخصيّته». «هذا رجلٌ أصيل. هذا رجلٌ صادق...

عندما يكون معك ، ينظر إليك في عينيك ويخبرك أنّه معك... كلّه مشاعر. إنّه هنا ليفعل الصّواب. إنّه صديقٌ في العسر واليسر».

بعد أربعة أيام، كتب ديفيد بروكس، كاتب العمود المحافظ في صحيفة نيويورك تايمز، أنّ ظهوري في برنامج كولبرت قد غيّر رأيه بي. وهو يعتقد الآن أنّ عليّ أن أترشّح. كتب: «يحتاج كلّ مرشح رئاسيّ إلى سرد يشرح كيف تشكّلت شخصيّته. في برنامج مع ستيفن كولبرت كشف عن قصّة وأشار إلى حملة مؤثّرة ومقنعة ومتناغمة مع الوقت الرّاهن». بعد ذلك بيومين، في الرّحلة الّتي رفعت مجموع أسفاري الرّسميّة كنائب رئيس لأكثر من مليون ميل، ضغط عليّ عمدة لوس أنجلوس كي أترشّح. الأمر الأكثر إثارة للدّهشة هو أنّ أحد المسؤولين التّنفيذيّين في قطاع التّرفيه أكّد على أنّ لديّ دعمًا في مجتمع هوليوود أكثر من هيلاري. قال: إنّ بإمكاني جمع الأموال هناك دون مشكلة. وتواصل جورج كلوني مع ستيف ريتشيتي بعد ذلك بوقتٍ قصير. قال لرئيس الموظّفين لديّ: «أنا أحبّ جو بايدن، وإذا قرّر القيام بذلك، فسوف أتقدّم بأيّ وبكلّ مساعدة ممكنة. أظنّ أنّني أثبتّ جدارتي في جمع التّبرّعات، لذلك هذا كلّ ما يطلبه منّي الجميع. ولكنّني سأكرّس نفسي لهذا. وأنا على استعداد للعب دورٍ في الحملة إذا أردتم منّي ذلك».

ظلّ مايك يقول إنّ الانطباعات الجيّدة تجاهي لم تتبدّد؛ في الواقع، كانت الأرقام المرتبطة بشخصيّتي تتحسّن. وقال: إنّ قضية ترشيحي من النّاحية السّياسيّة – سماتي الشّخصيّة، ورسالتي، وتاريخي – كانت تزداد قوّة. كانت المصداقيّة مهمّة أكثر فأكثر لدى النّاخبين. كانت الحاجة في الميدان إلى شخصٍ يتحدّث إلى الطّبقة الوسطى ملحّة جدًا، وكان الطّلب لشخصٍ يمكنه العمل عبر الانقسامات الحزبيّة ضاغطًا بشدّة. في سبتمبر (أيلول) أصبح مايك أكثر إيمانًا بإمكانيّة فوزي ممّا كان عليه في يوليو (تموز).

اتّصل بيل برادلي مرّة أخرى عندما عدت من كاليفورنيا. وأصرّ على أنّ هذا هو الوقت المناسب لي. أخبرني عن امرأة سمعها في المقهى تقول: إنّ عليّ التّرشّح. قالت لأحد الأصدقاء: «ولا أريد أن أراه يتعرّض للهجوم. لقد عانى الكثير».

أخبرني زميلي القديم: «جو، أحيانًا يحظى المرء بفرصته. لقد ربطتك المأساة بالجمهور، ويمكنك البناء على ذلك. جو، هذه فرصتك. ستأخذ البلاد بأكملها معك إذا صمدت». أخبرني أنّه لا يحاول الضّغط عليّ، وأنّ عليّ أن آخذ وقتي وأتأكّد من استعدادي لذلك. قال: لم يفت الأوان بعد، وإذا كانت تلك المرأة في المقهى على حقّ. «فأنت حالة مميّزة».

كنت أعلم أنّه سيكون سباقًا شاقًا ضدّ هيلاري، لكنّني اعتقدت أنّ بامكاني الفوز. لا شكّ أنّ اتّخاذ قرار التّرشّح صعبٌ عليها، لأنّها تعلم أنّ منتقديها سوف يلاحقونها. وقد فعلوا. تراجعت أرقامها في مواجهة الهجمات المستمرّة من قبل الجمهوريّين والتّغطيّة الصّحفيّة النّاقدة. كان بيرني ساندرز يتقدّم عليها بإحدى عشرة نقطة في نيو هامبشاير، وكان قد أقفل على التّعادل في أيوا. لم تكن قادرة على التّخلّص من تركيزهم على رسائلها الإلكترونيّة وخطاباتها المدفوعة من جانب وول ستريت. لم أكن متأكّدًا من مدى أهميّة ذلك، ولكنّني كنت أقوى منها على الأرض في المواجهات الّتي تضعنا وجهًا لوجه أمام الجمهوريّين. قال مدير معهد الاستطلاع بجامعة مونماوث: «بالنّسبة لرجلٍ غير مرشّح لمنصب الرّئيس، من المؤكّد أنّ بايدن يحرز تقدّمًا ضدّ المرشّح المتصدّر». كما قرّرت نقابة رجال الإطفاء أن تحجب تأييدها لها إلى أن أحسم أمري. وكان رئيس الاتّحاد الأمريكيّ للعمل وكونغرس المنظّمات الصّناعيّة يقول كلامًا لطيفًا عني، ممّا سبّب ذعرًا كبيرًا في مقرّ هيلاري. كان من الواضح أنّ حملة كلينتون بدت قلقة للغاية بشأن دخولي

السّباق.

بـدأت ديناميكيّـة جديـدة حادّة تتصاعد. تلقّى سـتيف ومايك مكالمات على مدى شـهور من أصدقاء مقرّبين في حملة كلينتون وأشـخاصٍ عملوا معهـم فـي فريـق الرّئيـس أوبامـا. كانوا يسـعون إلى تصيّد الأخبـار. إذاً ماذا تخطّطـون يـا رفـاق؟ هـذا ليـس حقيقيًّـا، أليس كذلك؟ ولكـن أضيفت ميزة جديدة للمكالمات. بدأ معسكر كلينتون في إعادة التّفكير في الرّواية القديمة الّتي كانوا يروّجون لها حول مهمّتي المدمّرة للذّات وبعيدة المنال. أصبحوا يقولون إنّني إذا ترشّـحت فسـوف أشـكل قوّة قويّة لدرجة أنّني سـوف أقسم الحزب إلى نصفين، أو أنّني سـآخذ أصواتًا كثيرة من هيلاري، بحيث يفوز بيرنـي بالتّرشـيح. عندهـا سنخسـر الانتخابـات العامّـة بالتّأكيـد. كان بعض المستشارين المقرّبين من أوباما يخبرون ستيف ومايك بأنّنا لا نستطيع الفوز. لماذا لا تستوعبون ذلك؟

الحقيقة أنّني كنت مرتاحًا، كما كان بقيّة الفريق، بشأن وضعنا المستضعف هذا في وقتٍ مبكر من السّـباق. إنّ ردّ الفعل المتزايد جعل الجميع غاضبًا بعض الشّيء ومصمّمًا إلى حدّ كبير. لقد ناقش ستيف كلّ شخص في المبنى، كان مستعدًّا لأن ينصت إليه، في أنّني أمتلك كلّ الحقّ في اتّخاذ القرار الّذي أريد. وأنّه لا ينبغي لأحد أن يحكم مسبقًا على السّباق للفوز بترشيح الحزب الدّيمقراطيّ قبل الإدلاء بالتّصويت الأوّل. يمكنني القول إنّ الأشخاص في فريقي بدأوا ينخرطون في اللّعبة بحلول بداية شهر تشرين الأوّل (أكتوبر).

عقدنـا اجتماعًـا فـي الخامـس من تشـرين الأوّل (أكتوبـر) لاتّخاذ قرارٍ نهائـيّ بشـأن إمكانيّـة وضـع فريق من الدّرجة الأولـى على الأرض، وجمع الأموال اللّازمة. كان هناك ستيف ومايك مع جريج شولتز ومايكل شروم، اللّذيـن كانـا يعمـلان علـى التّفاصيل العمليّة منذ تمـوز (يوليو). وكان هناك جيل وفال وهانتر. وتيد كوفمان. لكنّ الدّائرة اتّسعت الآن وشملت أشخاصًا

مثل بوب باور وأنيتا دن، اللّذين كانا لاعبين أساسيّين في فريق أوباما. توصّل بوب، الّذي كان مستشارًا قانونيًا للبيت الأبيض، إلى تفاهم مع شركته جعل من الممكن له أن يتصرّف في وقته الخاصّ كأحد مستشاريي الشّخصيّين الرّئيسيّين أثناء سعيي لاتّخاذ القرار. جلست، شبه مندهشٍ وهم يتحدّثون حول الآليّات. كان من الواضح أنّ لدينا الوقت للوفاء بجميع المواعيد النّهائيّة للتّرشّح في الولايات. لقد عرفنا بالضّبط مقدار الأموال الّتي سنحتاجها للمنافسة في الولايات الأربع الأولى وكانت لدينا الوسائل لجمعها – حتّى مع قرارنا بعدم الاستفادة من سوبر باك الّتي يمكنها أن تتلقّى تبرّعات غير محدودة من الأفراد الأثرياء. كانت لدينا التزامات من أكثر من خمسين فردًا محدّدًا، لكلّ منهم سجلٌّ حافل بجمع ما لا يقل عن 250 ألف دولار لحملة أوباما– بايدن، وكانوا جميعًا على استعداد للقيام بذلك مرّة أخرى لحملة بايدن 2016. كان علينا أن نسأل فحسب.

وجد جريج شولتز مدراء للحملة في كلّ من ولاية أيوا ونيو هامبشاير ونيفادا وساوث كارولينا. لقد اختار أفضل المنظّمين في الولايات المتأرجحة مثل بنسلفانيا وأوهايو وفلوريدا. كان من الواضح أنّ هناك الكثير من الكفاءات المتبقيّة، وكانوا على استعداد للانضمام. أنيتا دن، مديرة الاتّصالات السّابقة لأوباما، كانت موجودة بالفعل في الغرفة، كما وافق بيت روس، الّذي كان نائب رئيس موظّفي أوباما، على الانضمام إلينا أيضًا. كنت فخورًا حقًّا برؤية هذا العدد من الأعضاء السّابقين في فريق حملة الرّئيس أوباما، وموظّفيه في البيت الأبيض، وحتّى أعضاء حكومته، ممّن كانوا على استعداد لتقديم المساعدة لي.

وضعنا قائمة رائعة من المؤيّدين. وكانت لدى أنيتا خطّة إعلاميّة لإعلانها في غضون أسبوعين أو ثلاثة. كنّا مستعدّين لإيجاد مكتب في ويلمنجتون ليكون مقرًّا. بحلول نهاية الاجتماع، كان من الواضح للجميع

في الغرفة أنّ لدينا القدرة على توفير فريق عملٍ ميدانيّ من الدّرجة الأولى والقدرة على جمع الأموال لتخطّي الجولات الأربع الأولى. لم أكن متأكّدًا من أيّ من ذلك في بداية تمّوز (يوليو)، لكنّني كنت على يقين من ذلك في 5 تشرين الأوّل (أكتوبر). هناك أمر واحد فقط قد يوقفني الآن – وهو أنا.

في اليوم التّالي، السّادس من أكتوبر، صعقتني مقالة في بوليتيكو. حتّى أنّ الموظّفين لم يرغبوا في أن أرى المانشيت العريض – حصريًا: بايدن نفسه سرّب كلمةً عن أمنيّة ابنه على فراش الموت. جاء في مقالة بوليتيكو: «جو بايدن جعل مناظراته لعام 2016 تتمحور حول ابنه الرّاحل منذ آب (أغسطس). 1 آب (أغسطس)، على وجه الدّقة – في اليوم الّذي نشرت فيه النّاقدة الشّهيرة لهيلاري كلينتون مورين دود عمودًا يمثّل نقطة تحوّل في التّكهّنات الرّئاسيّة... وضع بايدن إعلانًا فعليًا في صحيفة نيويورك تايمز».

كان عليّ أن أتوقّع حدوث ذلك، على ما أعتقد.

ولكنّ مقالة بوليتيكو تجاوزت حتّى أسوأ توقّعاتي لما ستكون عليه المعارضة. كانت الفكرة القائلة بأنّني قد أستخدم موت ابني لتحقيق منفعةٍ سياسيّةٍ مقزّزة. لم أعتقد أنّ أحدًا سيصدّق التّهمة، لكنّني شعرت بغضبي يتصاعد. وأدركت خطورة ذلك، خاصّة في حالتي النّفسيّة الحاليّة. إذا تناهى هذا الكلام بخصوص بو إلى مسامعي في مكانٍ ما، كنت أخشى أنّني لن أتمكن من التّحكّم في غضبي. وقد أقول أو أفعل شيئًا أندم عليه.

ما تبيّن لاحقًا أنّه اجتماع حملتنا الأخير استمرّ حتّى وقتٍ متأخّرٍ من ليلة الثّلاثاء، 20 تشرين الأوّل (أكتوبر). كان فريق العمل لا يزال يراجع تفاصيل العرض التّمهيديّ عندما لاحظت أنّ مايك دونيلون يراقبني فعليًا. كان مايك يعرفني منذ ثلاثين عامًا. لقد كان بجانبي عندما طوّرنا رسالتنا

لعـام 2016، ودحـر بقـوّة كلّ الرّافضيـن علـى طول الطّريق. كان يقول: «لا تحرمـوه مـن ذلـك». أخبرنـي مايـك لاحقًـا أنّه بالنّظر إليّ فـي تلك اللّيلة، عندما وصلنا إلى سـاعة الصّفر، كان بإمكانه أن يراني أضغط بشـدّة على فكّي. كان الألم الّذي قرأه على وجهي خارج المخطّطات. فمايك يعرف أيضًا أنّ جيل كانت سـتدعم قرار المضيّ قدمًا، لكنّه قال: إنّه قرأ الخوف في عينيها. ضبطته ينظر إليّ، فأشرت إليه: ما الأمر يا مايك؟ قال: «لا أعتقد أنّ عليك القيام بذلك».

كانـت هـذه هـي المـرّة الأولـى الّتـي يتحدّث فيها ضدّ ترشّـحي خلال العامـيـن اللّذيـن كنّـا نتحـدّث فيهمـا عن ذلك. لقـد فهمت أنّ مايك لم يكن يتحدّث بصفته استراتيجيًا سياسيًّا، لأنّني كنت أعرف إلى أيّ مدى كان يؤمن بترشّحي وأنّه ما زال يعتقد، مثلي، أنّ بإمكاننا الفوز. لقد كان يتحدّث بصفته صديقًـا. عندمـا أرسـلت الجميـع إلى المنـزل في تلك اللّيلة. كان الوقت قد حان لأقرّر – وقد فعلت. أوّل شخص قلت له هو جيل، ثمّ هانتر وأشلي.

استيقظت في صباح اليوم التّالي واتّصلت بالرّئيس أوباما لإعلامه. ثمّ اتّصلت بـستيف ومايك. اتّصل ستيف برئيس موظّفي البيت الأبيض، الّذي أخبره أنّ الرّئيس قال بالفعل: إنّه سـيفعل ما بوسـعه لمسـاعدتي. قدّم باراك عرضًـا سـخيًا بالوقـوف إلـى جانبـي، عندمـا أدلي ببياني ودعانـا إلى التّوجّه إلـى حديقـة الـورود، خلـف المكتب البيضاويّ، للقيـام بالإعلان من هناك. ذهـب مايـك وسـتيف إلـى المرصد البحريّ في وقـتٍ مبكر من صباح ذلك اليوم وصعدا معي بالسّـيارة حتّى نتمكّن من مناقشـة ملاحظاتي أثناء رحلتنا القصيرة إلى البيت الأبيض. في الطّريق قلت لمايك: «إنّه الشّـيء الصحيح الّذي يجب أن أفعله من أجل الأسـرة. إنّه الشّـيء الصّحيح الّذي يجب أن أفعله من أجلي أنا».

استقبلنا الرّئيس أنا وجيل في المكتب البيضاويّ لمراجعة ما سأقوله ذلك الصّباح؛ لقد كان داعمًا لأقصى الحدود. كنت أعرف أنّني اتّخذت القرار الصّائب عندما مشيت إلى حديقة الورود ومعي جيل من جانب وباراك من الجانب الآخر كي أشرح أنّه لا يمكنني القيام بالالتزام المطلوب للسّباق. لقد نفذ الوقت. وقلت: إنّ عمليّة الحزن «لا تحترم أو تهتمّ كثيرًا بأمور مثل المواعيد النّهائية للتّرشّح أو المناظرات أو الانتخابات التّمهيديّة والمؤتمرات الحزبيّة». وأنا ما زلت أتألّم.

لقد حرصت على أن أكون مبتهجًا، وأن أرجع كتفيّ إلى الوراء وأن أبتسم. لم يكن لديّ خطاب مُعدّ، مجرّد ملاحظات، لكنني كنت أعرف أنّني أريد أن أوضّح أنّني ما زلت متفائلًا بشأن مستقبل البلاد، وأنّني لن أتوقف عن التّحدّث بصراحة. وقلت: «أعتقد أنّ علينا إنهاء السّياسات الحزبيّة الخلافيّة الّتي تمزّق هذا البلد، وأعتقد أنّ بإمكاننا ذلك. إنّها خبيثة. إنّها تافهة. وقد استمرّت لفترة طويلة جدًا. لا أعتقد، كما يعتقد البعض، أنّه من السّذاجة التّحدّث إلى الجمهوريّين. لا أعتقد أنّ علينا أن ننظر إلى الجمهوريّين بصفتهم أعداءً لنا. إنّهم معارضون وليسوا أعداءً. ومن أجل الوطن، علينا أن نعمل معًا. إنّ أربع سنواتٍ أخرى من هذا النّوع من المعارك الضّارية قد تتجاوز قدرة البلاد على التّحمّل». وكفكرةٍ خطرت لاحقًا، قلت: إنّني أتأسّف على شيءٍ واحد فقط. قلت: «لو قدّر لي أن أكون أيّ شيء، فإنّني أودّ أن أكون الرّئيس الّذي قضى نهائيًّا على السّرطان، لأنّ ذلك ممكن». كان مايك هناك في حديقة الورود في ذلك اليوم، يراقب فحسب. قال لاحقًا: «بدا جو بايدن أقلّ ألمًا وأقلّ حيويّة إلى حدّ ما».

الخاتمة

عدت إلى الجوّ مرّة أخرى في 6 كانون الأوّل (ديسمبر)، متّجهًا إلى كييف، مضيفًا إلى ما يزيد عن مليون ميل من السّفر بصفتي نائبًا للرّئيس. لقد دُعيت لإلقاء كلمة أمام أعضاء البرلمان الأوكرانيّ، الرادا، وشعرت أنّ هذا الخطاب لا يقلّ أهمّيّة عن أيّ خطاب ألقيته في أوروبا في أيّ وقتٍ مضى. كانت أوكرانيا على مفترق طريقٍ تاريخيّةٍ في نهاية العام 2015. أردت أن أسجّل هذه اللّحظة، وأن أذكّر الرّجال والنّساء الجالسين في الرادا بأنّهم كانوا على أعتاب حدثٍ استثنائيٍّ و- مثل كلّ الأشياء الأكثر قيمة في الحياة - هشٍّ للغاية. لقد كنت أعمل بجدّ على الموضوعات الرّئيسة للخطاب لأسابيع، مع التّركيز، ليس على لغة الخطاب فحسب ولكن على اللّهجة الّتي أردت أن تُحدث صدىً عند إلقائها. كنت لا أزال أنقّح النّصّ بينما كنّا نطير شرقًا نحو أوروبا.

كان في مقدّمة ذهني مئات المدنيّين الأوكرانيّين الّذين قُتلوا قبل عامين تقريبًا في احتجاجات ثورة الكرامة في كييف - «مئات الملائكة»، كما أصبحوا معروفين. لقد كُرّم هؤلاء الأوكرانيّين بالفعل بصفتهم شهداء الحريّة والاستقلال، لكنهم كانوا من لحمٍ ودمٍ وعظام، وكانت لديهم أيضًا بواعث للأمل والسّعادة. لذلك كنت أيضًا مدركًا للألم الحقيقيّ الّذي عانت منه مئات الأسر الّتي فقدت الزّوج أو الأب أو الابن أو الزّوجة أو الأمّ أو البنت - والآلاف الآخرين الّذين كان هؤلاء الأشخاص بالنّسبة إليهم أصدقاء أعزّاء ومقرّبين.

في الخطاب الّذي كنت أعمل عليه، قلت: لا يزال بإمكان هؤلاء الآلاف من الأوكرانيّين أن يجدوا عزاءهم في بدايةٍ جديدةٍ مجيدةٍ لبلدهم قد تعوّضهم عن الأرواح المفقودة. وسط النّار والجليد، والقنّاصين على أسطح المنازل، دفع «مئات الملائكة» الثّمن النّهائيّ عن الوطنيّين في جميع أنحاء العالم. إنّ دماءهم وشجاعتهم تمنح الشّعب الأوكرانيّ فرصةً ثانيةً للحريّة. إنّ تضحياتهم – بكلّ صراحة – أصبحت أمانةً في أعناقكم.

كان الوقت ينفد أمام الحكومة الأوكرانيّة لتصحيح الأوضاع. فاقتصاد البلاد يتصدّع، بينما استمرّ فلاديمير بوتين باستخدام القوّة في أضعف نقاط الضّغط جميعها: إمدادات الطّاقة، وسوق السّندات، والفساد المستشري في كلّ من الأعمال والسّياسة في أوكرانيا. كان الفساد يخنق النّموّ الاقتصاديّ، ويفرغ الجيش، ويدمّر الثّقة بالحكومة. أنشأ الرادا المكتب الوطنيّ الجديد لمكافحة الفساد وزوّده بالمحقّقين، لكنّ الوكالة الجديدة لم تكن قد حاكمت أيّ شخصٍ بعد، وكان الكسب غير المشروع لا يزال متفشّيًا في كلا الحزبين السّياسيّين الرّئيسن. وورد أنّ المدّعي العامّ نفسه ملوّث بالفساد. بدأ الأعضاء المخلصون في حركة الإصلاح يفقدون الأمل؛ تساءل أحد قادتها عمّا إذا كانت أوكرانيا على وشك الانهيار كدولةٍ قابلةٍ للعيش. بدا من المرجّح أنّ تضحيات مئات الملائكة – وكذلك الآلاف من الأوكرانيّين الآخرين الّذين لقوا حتفهم في القتال منذ ذلك الحين – سوف تذهب سدىً. كان ذلك هو الوضع الّذي أقدمت عليه في رحلتي الأولى إلى أوكرانيا قبل عام، مباشرةً قبل عيد الشكر.

أخذنا مسار الرّحلة إلى أوروبا الشّرقيّة في شهر كانون الأوّل (ديسمبر) فوق شمال الأطلسيّ، في يومٍ صاف، حيث كانت أوّل بقعةٍ من الأرض نراها أدناه هي إيرلندا – والّتي كانت بمثابة المعيار الأساسيّ في تاريخي الشّخصيّ والعائليّ. أحد زملائي في مجلس الشّيوخ، دانيال باتريك موينيهان، أبدى

ذات مرةٍ هذه الملاحظة البسيطة والعميقة حولنا نحن الإيرلنديّين: «الفشل في استيعاب أنّ الحياة سوف تطرحك أرضًا هو الفشل في فهم إيرلنديّة الحياة». «كنت أعرف حقيقة ذلك قبل أن أسمع السّيناتور موينيهان يقولها بصوتٍ عالٍ، كما يعرفها أيّ متحدّرٍ من سلالة بلويتس في مقاطعة مايو، حيث يبدأ نهر موي في الاتّساع ويضيع في شمال المحيط الأطلسيّ، ومن سلالة فينيجان في مقاطعة لوث، عند خليجٍ صغير هائجٍ للبحر الإيرلنديّ. كنت قد تعرّضت للهزيمة الشّديدة بحلول ذلك الوقت لفهم إيرلنديّة الحياة، وقد ذكّرني العام الماضي بها بالكامل مجدّدًا.

ولكن لم تكن هذه هي قصّتي الكاملة مع الإيرلنديّة – ولا حتّى نصفها. اعتاد جدّي فينيغان أن يقول لي عندما كنت أهمّ بمغادرة منزله: «حافظ على الإيمان، جوي. تذكّر، أنّ أفضل قطرة دم فيك هي إيرلنديّة». أحبّ أن أخبر النّاس أنّنا نحن، الإيرلنديّون، الوحيدون في العالم الّذين يشعرون بالحنين إلى المستقبل. لم أتوقّف عن كوني حالمًا أبدًا. أرفض التّوقّف عن الإيمان بالإمكانيّات. لقد ذكّرني التّحليق فوق شمال الأطلسيّ على متن طائرة الرّئاسة الثّانية والعمل على ذلك الخطاب لمجلس الرادا، بكلّ ذلك. كما ذكّرني بقوّة دافعة أخرى في الحياة – واحدة كنت أظنّ أنني أتشارك فيها مع جميع المسؤولين المنتخبين في الرادا.

أمرٌ واحدٌ أعرفه من العمل مع السّياسيّين والقادة الوطنيّين في جميع أنحاء العالم هو أنّهم يشبهونني أكثر ممّا يختلفون عنّي. يطمح معظمنا إلى الشّيء نفسه: الفرصة ليكونوا جزءًا من إنجاز شيءٍ مهمّ وذي معنى لبلدهم؛ الفرصة ليكونوا جزءًا من لحظةٍ تاريخيّة، وأن يتذكّر النّاس بأنّهم تصرّفوا بشجاعةٍ ورؤية. لذلك اعتقدت أنّني أعرف نوع الخطبة السّياسيّة الّتي ستحرّك هؤلاء المشرّعين الأوكرانيّين. عندما كنت بالكاد مراهقًا، سألتني والدتي عمّا أريد أن أفعله، أو أكونه عندما أكبر، وعرفت شيئًا واحدًا مؤكّدًا.

أردت أن أحدث فرقًا، وأن أكون جزءًا من تغييرٍ تاريخيّ مهمّ. أعتقد أنّ السّبب هو أنّني كنت أفكّر في الحقوق المدنيّة.

هذا الدّافع هو قوّة قويّة لا يمكن إنكارها، وأعتقد أنّ تسخيرها في خدمة شيءٍ جيّد هو أفضل أملٍ لنا في المستقبل. لذا، عندما أعددت الخطاب، أدركت أنّ عليّ أن أفعل أكثر من مجرّد الإعلان عن 190 مليون دولارًا إضافيًّا من المساعدات المباشرة من الولايات المتّحدة للمشرّعين الأوكرانيّين؛ أو طمأنتهم إلى أنّ الولايات المتّحدة وحلفاءها سيواصلون دعمهم في مواجهة الضّغوط العسكريّة والاقتصاديّة من بوتين، وسيواصلون الدّفاع عن حقّهم كدولةٍ ذات سيادةٍ في اتّخاذ قراراتهم واختيار حلفائهم؛ أو لتذكيرهم بأنّ عليهم الاستمرار في استئصال الفساد المستشري في سياساتهم الوطنيّة. لن يكون أيّ من ذلك كافيًا للمهمّة الحاليّة. شعرت أنّ عليّ أن أذكّرهم بهدفهم الأسمى.

بحلول الوقت الّذي صعدت فيه إلى المنصّة في الرادا في 7 كانون الأوّل (ديسمبر)، كنت مصمّمًا على مناشدة شيء يتجاوز مصلحتهم الشّخصيّة المباشرة: فرصة توريث أطفالهم وأحفادهم الحرّيّة والدّيمقراطيّة الّتي استعصت عليهم لقرون. لذلك أخبرتهم أنّهم وصلوا إلى اللّحظة المناسبة الّتي تمكّنهم من تأسيس ديمقراطيّةٍ حقيقيّةٍ ومستقلّةٍ ومستدامة في أوكرانيا، والّتي كانت شبيهة باللّحظة الثّوريّة لأمريكا قبل أكثر من مائتي عام. قلت لهم: «بدأ الأمر عندما وقف رجال الضّمير في الهيئات التّشريعيّة الّتي تمثّل كلّ منطقة في ما كان يعرف آنذاك بالمستعمرات الأمريكيّة – ماساشوسيتس، بنسلفانيا، فيرجينيا، مصالح مختلفة تمامًا – وأعلنوا في كلّ منطقة من مناطقهم الحقوق الأصيلة للشّعوب الحرّة... الحقّ الطّبيعيّ في أن تكون حرًا. لقد أخذوا قارّةً شاسعة وشعبًا متنوّعًا – ما أطلق عليه جون آدامز، أحد آبائنا المؤسّسين وأحد رؤساء المستقبل، «آلة ضخمة تتعذّر إدارتها»–

وقولبوا تلك الآلة المعقّدة في ديمقراطيّة تمثيليّة موحّدة، رأى النّاس فيها أنفسهم بصفتهم أمريكيّين أولًا وبصفتهم مواطنين من مناطقهم ثانيًا». لقد وضع هذا الإنجاز واشنطن وآدامز وجيفرسون وفرانكلين وماديسون وهاملتون وعشرات الآخرين في كتب التّاريخ.

قلت لأعضاء الهيئة المنتخبة في أوكرانيا: «لديكم فرصة تاريخيّة لتكونوا الرادا الّذي أرسى أخيرًا وبشكلٍ دائمٍ أعمدة الحرّيّة الّتي ينتظرها شعبكم، يتوق إليها، لسنواتٍ عديدة. إنّها لحظتكم التّاريخيّة. إنّها مسؤوليّتكم». كان عليهم أن يضعوا جانبًا التّعصّب الحزبيّ وضيق الأفق، والسّعي لتحقيق ما أسماه إدموند بيرك «الصّالح العامّ». كنت أؤمن حقًّا أنّهم إذا نجحوا في ذلك، فإنّ أحفادهم سيذكرون أسماءهم باحترامٍ ووقار.

قلت لأعضاء الرادا: «كلّ هذا يقع ضمن إطار سلطتكم. إنّه بمتناول يدكم. وليس بمتناول يد أحدٍ سواكم- أنتم».

لم يقل لي أحد من قبل إنّ الحياة في السّياسة والخدمة العامّة ستكون سهلة. مثل الحياة، لم أتوقّع أن تكون السّياسة خالية من خيبات الأمل أو وجع القلب. لكنّني كنت أعتقد دائمًا أنّ الأمر يستحقّ كلّ هذا الجهد. وبما أنّني شغلت منصبًا انتخابيًا وعملت في مجال الخدمة العامّة منذ أن كنت في السّابعة والعشرين من عمري، فقد أدركت أنّ كلّ الأمور الجيّدة صعبة، وتستغرق وقتًا. قد يستغرق الأمر جيلًا أو أكثر لمعرفة ما إذا كانت ثورة الكرامة في أوكرانيا قد نجحت حقًّا. تمامًا كما قد يستغرق الأمر جيلًا أو أكثر لمعرفة ما إذا كان الاستثمار الأمريكيّ في بلدان المثلّث الشّماليّ في هندوراس وغواتيمالا والسّلفادور سيحوّل حقًّا تلك الأماكن إلى دولٍ ديمقراطيّةٍ آمنة ومأمونة، ذات اقتصادات آخذة في التّوسّع وطبقةٍ متوسّطةٍ مزدهرةٍ ومتعلّمة. تمامًا كما كان الأمر سيظلّ جيلًا أو أكثر قبل أن نعرف ما

إذا كانت كلّ تلك الدّماء والأموال الّتي أُنفقت – وكلّ الجهود الّتي بذلها بو ومئات الآلاف من القوّات الأمريكيّة الأخرى في العراق – ستولّد ديمقراطيّة شاملة وموحّدة قائمة على الحريّة و التّسامح الدّينيّ. كنت مصمّمًا حتّى في سنتي الأخيرة في المنصب على أن أفعل ما بوسعي لإبقاء الأمور تسير في الاتّجاه الصّحيح. وكانت كذلك.

بعد حوالى أسبوع من عودتي من كييف، وافق الكونغرس على اعتمادٍ بقيمة 750 مليون دولارًا لبلدان المثلّث الشّماليّ الّتي استثمرتُ فيها قدرًا هائلًا من وقتي الشّخصيّ، وتصحيح السّمعة. لقد بلغ الاعتماد ثلاثة أضعاف العام الماضي، وسيكون كافيًا للبدء في مساعدة القادة السّياسيّين في المثلّث الشّمالي على توفير حكومات مدنيّة تستجيب لمواطنيها، فضلًا عن زيادة الأمن والفرص. وبعد ذلك، في الأسبوع الأخير من شهر كانون الأول (ديسمبر)، وبمساعدة المدرّبين العسكريّين للولايات المتّحدة وأكثر من ستّمائة غارة جويّة للتّحالف نفّذت على أهداف داعش، استعادت قوّات الأمن العراقيّة مدينة الرّمادي من الجهاديّين. استردّ تحالف رئيس الوزراء العبادي المكوّن من مقاتلين شيعة وسنّة المدينة وسيطروا عليها. كان قادة العبادي يضعون بالفعل خططًا لتطهير مدن رئيسة أخرى في الأنبار، وسينتقلون في النّهاية إلى الموصل. لقد شعرت بالفخر عندما علمت أنّه عندما اتّصل العبادي قبل تسعة أشهر وقال: «جو، أحتاج إلى مساعدتك»، وقفت في صفّه. وأعتقد أنّ ذلك أحدث فرقًا.

كان لدى الرّئيس أوباما مفاجأة بالنّسبة لي في خطابه السّنويّ الأخير أمام الكونغرس، في كانون الثّاني (يناير) 2016. قال، بعد حوالي خمسة وعشرين دقيقة من خطابه: «في العام الماضي، قال نائب الرّئيس بايدن إنّ بإمكان أمريكا القضاء على السّرطان بإطلاق مشاريع رائدة وبعيدة المدى.

اللّيلة، أعلن عن جهدٍ وطنيّ جديد لإنجاز ذلك. ونظرًا لأنّه قاتل عنّا جميعًا، في العديد من القضايا على مدار الأربعين عامًا الماضية، فإنّي أوكل إلى جو مسؤوليّة قيادة هذه المهمّة. لأجل أحبّائنا الّذين فقدناهم جميعًا، ولأجل العائلات الّتي لا يزال بإمكاننا إنقاذها، لنجعل أمريكا البلد الّذي يداوي السّرطان إلى الأبد. ما رأيك يا جو؟» كنت أتلقّى هذا الخبر في الوقت نفسه الّذي تلقّته فيه بقيّة البلاد. عندما استدار الرّئيس نحوي وأومأ برأسه، نظرت بعيدًا فرأيت زملاء سابقين من كلا الحزبين وقوفًا يصفّقون. لقد منحني ذلك الأمل في أن نتمكّن من القيام بشيءٍ مهمّ.

لقد رأى باراك ما مرّت به عائلتي خلال السّنوات القليلة الماضية، ليس فقط الأوقات الصّعبة، ولكن الأوقات الّتي منحتنا فيها عبقريّة الفريق الطّبيّ في ام دي أندرسون وجهوده أملًا حقيقيًا. لقد سمعني في حديقة الورود بالبيت الأبيض قبل بضعة أشهر عندما تحدّثت عن أسفي الحقيقيّ الوحيد لعدم خوض الانتخابات: أنّني لن أكون الرّئيس الّذي أشرف على نهاية السّرطان بالكامل. عندما سلّمني الرّئيس قيادة المهمّة، عرف كلّ عضوٍ في البيروقراطيّة الفيدراليّة أنّ لديّ سلطته الكاملة لحشد جميع الأصول داخل الحكومة، وكذلك التّواصل مع مجتمع الخبراء على الصّعيدين الوطنيّ والدّوليّ. كانت هذه هي المرّة الأولى الّتي يفوّض فيها أيّ رئيس سلطته لفردٍ واحد لإنجاز المهمّة. لقد كان يمنحني فرصة رائعة – فرصة للمساعدة في إنقاذ العائلات الأخرى ممّا مررنا به.

لقد أمضيت السّنوات القليلة الماضية في العمل على تسريع المعركة ضدّ السّرطان. أعتقد أنّنا على أعتاب اختراقات حقيقيّة وهامّة، وقد كرّست نفسي للقيام بأمرين – إضفاء الشّعور بالإلحاح على المعركة، والتّأكّد من أنّ أنظمة الوقاية والبحث ورعاية المرضى مصمّمة للاستفادة من أفضل علوم وتكنولوجيا القرن الحادي والعشرين. نحن على مقربة من قدرات

الحواسيب الفائقة الّتي ستوفّر مليارات من العمليّات الحسابيّة في الثّانية – ممّا يزيد من فرصنا في العثور على إجاباتٍ جديدة إذا استطعنا جمع البيانات من آلاف أو ملايين المرضى. أخذت أشجّع على وضع نظام يكرّم علوم الفريق وزيادة التّعاون ومشاركة البيانات بين الأطبّاء والباحثين والخبراء الطبيّين في مراكز السّرطان المختلفة في جميع أنحاء البلاد وحول العالم. وشرعت بالعمل على توفير أفضل الوقاية والرّعاية لجميع المجتمعات المحلّيّة، كي لا تملي مناطق جغرافيّة معيّنة النّتائج بالكامل، وساعدت في إيجاد طرقٍ لتحفيز شركات الأدوية على العمل بعضها مع بعض لتوفير المزيد من الدّمج بين العلاجات في التّجارب السريريّة. في صميم هذا كلّه رغبتي بتشجيع نظامٍ وثقافةٍ تقدّم مصالح المرضى وعائلاتهم على كلّ الاعتبارات الأخرى. لقد تعلّمت بشكلٍ مباشر، وبأصعب طريقةٍ ممكنة، أنّ مواجهة السّرطان هي محنةٌ مخيفة ومكلفة في أفضل الظّروف، لأقوى العائلات. نحتاج إلى تحديد أيّ عقبة وكلّ العقبات الإضافيّة الّتي يواجهها هؤلاء الأشخاص الّذين يعانون بالأساس، واعتبار هذه العقبات غير مبرّرة، والعمل على إلغائها.

يحظى هذا الجهد بدعمٍ من الحزبيْن في الكونغرس، ومساعدةٍ من الشّركات في جميع أنحاء البلاد، والتزاماتٍ من العديد من البلدان الأخرى للمشاركة معنا في الجهود المبذولة للقضاء على السّرطان بشكلٍ نهائيّ. الهدف في متناول أيدينا، وسيذكّرنا الوصول إلى هذا الهدف بشيءٍ يبدو أنّ البلد قد عمي عنه: ليس هناك شيءٌ لا يمكننا تحقيقه كأميركيّين، إذا عقدنا العزم على ذلك. لا يوجد تحدّ لا يمكننا مواجهته. أنا أكثر تفاؤلًا بشأن فرصنا اليوم ممّا كنت عليه عندما انتخبت لعضويّة مجلس الشّيوخ عندما كنت فتىً في التّاسعة والعشرين من العمر. إنّ القرن الحادي والعشرين سيكون قرنًا أمريكيًا آخر.

وأنا أكتب هذا، في صيف العام 2017، ما زلت أفكّر في السّؤال الّذي طرحه باراك عليّ في غرفة طعامه الخاصّة قبالة المكتب البيضاويّ في كانون الثّاني (يناير) 2015. سألني: «جو، كيف تريد أن تقضي بقيّة حياتك؟» الجواب الّذي قدّمته له آنذاك لا يزال قائمًا حتّى اليوم. في الواقع، هذا هو الجواب الّذي كنت سأعطيه عندما بدأت حياتي العامّة، وهو نفسه الّذي كنت سأعطيه في كلّ مرّة أترشّح فيها لعضويّة مجلس الشّيوخ في الولايات المتّحدة. الجواب نفسه الّذي كنت سأعطيه عندما تركت حياتي المهنيّة الّتي دامت ستّة وثلاثين عامًا في مجلس الشّيوخ لأصبح نائبًا للرّئيس. الجواب نفسه الّذي كنت سأعطيه قبل تشخيص بو، وطوال معركته مع السّرطان، وكلّ يوم منذ ذلك الحين. الفرق الآن هو أنّ لديّ صوتًا آخر في رأسي، هادئ ومُلِحّ: عليك أن تعدني يا أبي أنّه بغضّ النّظر عمّا يحدث، ستكون بخير. أعطني وعدًا يا أبي بأنّك ستكون بخير.

لم يكن بو صريحًا في تلك اللّيلة على مائدة العشاء، قبل أسابيع فقط من عيد الشّكر الأخير لنا في نانتوكيت، عندما طلب منّي أن أقطع هذا الوعد. لم يكن عليه أن يكون صريحًا. يمكننا دائمًا إنهاء أفكار بعضنا بعضًا، كان قصد بو واضحًا. كان يعتمد أيضًا على وجود هانت للتأكّد من أنّني أفي بوعدي. وأنا أرتدي مسبحة بو حول معصمي كلّ يوم الآن، كما فعلت منذ وفاته، كتذكيرٍ بما كان يتوقّعه منّي. كان عليّ القيام بواجبي- طوال المدّة. كان عليّ القيام بمهمّتي بصفتي زوجًا وأبًا وجدًّا. كان عليّ أن أتماسك لمساعدة هالي في رعاية الأطفال، ناتالي وهانتر. كان عليّ أن أكون حاضرًا لجيل وهانت وآشلي. لكنّ الأسرة لم تكن هي الشّيء الرّئيس. عرف بو أنّ الأسرة متينة، ولم يكن هناك مدّ قويّ بما يكفي ليجرفها، كان لديه إيمان بأنّها ستصمد، وأنّ هناك الكثير ممّا يمكن أن أفعله خارج الأسرة، وكان قلقًا من أنّني قد أتراجع عن واجباتي تجاه العالم الأوسع. كان بو يصرّ على

أن أبقى صادقًا مع نفسي ومع كلّ الأشياء الّتي عملت من أجلها على مرّ السنين. كان يريد مني وعدًا بالبقاء منخرطًا في الحياة العامّة للأمّة والعالم. القاعدة الأمّ. يا أبي، القاعدة الأمّ.

إذًا كيف أريد أن أقضي بقيّة حياتي؟ أريد أن أقضي أكبر قدر ممكن من الوقت مع عائلتي، و أريد المساعدة في تغيير البلاد والعالم نحو الأفضل. هذا الواجب لا يكتفي بمجرّد منحي هدفًا؛ بل أكثر من ذلك بكثير، إنّه يعطيني شيئًا يستحقّ الأمل. يجعلني أشعر بالحنين إلى المستقبل.

«بايدن يربط بين قصته الموجعة وقصته الانتخابية وقصته في الشؤون الخارجية، وبذلك، فإنه يقدم شيئًا للجميع، بغض النظر عن الجانب الذي يجذبك». - نيويورك تايمز بوك ريفيو

عدني يا أبي، كتابٌ للرّئيس الأمريكيّ جو بايدن، يحكي مذكّراته المؤثرة جدًا عن السّنة الّتي من شأنها أن تغيّر إلى الأبد كلًا من الأسرة والبلاد.

في نوفمبر 2014، اجتمع ثلاثة عشر فردًا من عائلة بايدن في «نانتوكيت» في عيد الشّكر، وهو تقليدٌ كانوا يحتفلون به على مدار الأربعين عامًا الماضية؛ لقد كان الثّابت الوحيد في ما أصبح حياةً عصيبة، تحت المجهر، وغارقة بالأعمال. كانت عطلة عيد الشّكر هي فترة الرّاحة الّتي تشتدّ الحاجة إليها. لكنّ هذا العام كان مختلفًا. فقد جرى تشخيص مرض «بو» الابن الأكبر لجو بايدن بورم خبيث في المخّ قبل خمسة عشر شهرًا، وكانت نجاته غير مؤكّدة. قال «بو» لوالده: «عِدني يا أبي. أعطني وعدًا أنّك ستكون بخير، بغضّ النّظر عمّا يحدث». أعطاه جو بايدن وعده.

عِدني يا أبي.. يروي السّنة الّتي تلت ذلك، والّتي من شأنها أن تكون الأكثر أهميّة وتحدّيًا في حياة جو بايدن ومهنته الاستثنائيّة. وبصفته نائبًا للرئيس، قطع بايدن أكثر من مليون ميلٍ حول العالم، حيث تعامل مع الأزمات في أوكرانيا وأمريكا الوسطى والعراق. فكلّما وردت مكالمة من نيويورك، أو من الكابيتول هيل، أو كييف، أو بغداد: «جو، نحتاج إلى مساعدتك» .. كان جو حاضرًا. لمدّة اثني عشر شهرًا، وفي حين ظلّ ابنه «بو» يكافح من أجل حياته، كان نائب الرّئيس يوازن بين الضّرورات المزدوجة للوفاء بمسؤوليّاته تجاه بلاده ومسؤوليّاته تجاه عائلته. ولم يبتعد أبدًا عن السّؤال الملحّ والعاجل حول ما إذا كان عليه أن يترشّح للرّئاسة في العام 2016.

حملت له تلك السّنة انتصارًا حقيقيًا وإنجازًا، وألمًا عميقًا، ولكن حتّى في أسوأ الأوقات، بدا بايدن قادرًا على الاعتماد على روابطه المتينة مع عائلته، وعلى إيمانه، وعلى صداقته العميقة مع الرّجل في المكتب البيضاويّ، باراك أوباما.

هذا الكتاب لم يكتبه الرّئيس فحسب، بل كتبه «جو بايدن» الأب والجدّ والصّديق والزّوج. عِدني يا أبي ..كتاب يحكي كيف تدعمنا الأسرة والصّداقات، وكيف يرشدنا الأمل، والهدف، والعمل، خلال مرحلة الألم، من الخسارة الشّخصيّة إلى ضوء مستقبلٍ جديد.

ISBN: 978-614-01-3216-0
9 786140 132160

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com